فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

433
أيلول 2022

مقالات
جاسم الحلفي
هندي حامد الهيتي
ثامر الصفار
عادل كنيش مطلوب
فيصل الفؤادي
مجيد إبراهيم خليل

نصوص قديمة
صالح ياسر

نصوص مترجمة
مصباح كمال

حوارات
حوار مع الأستاذ حسن الجنابي

أدب وفن
حسب الله يحيى
إبراهيم إسماعيل
ثامر عباس
عبد الغفار العطوي
سلام حربه
منى سعيد
عبدالستار البيضاني
رهبه اسودي حسين
جواد مطر الموسوي
باقر محمد جعفر الكرباسي
جمال العتّابي
ستار موزان
نادية محمد
عبد الباسط الصمدي أبو أميمه
سعيد أنوس
رعد كريم عزيز

التقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل جـــــواد الزيـدي
رضـــــا الظـاهر علي إبـــراهيـــم
كـــــاوة محمود مظهر محمد صالح
هـــــادي عزيـــز علي

العدد: 433
أيلول: 2022

هيئة التحرير

زهيـر الجـزائـري
هـــاشـم نعمـة
سوران قحطـان
حسب الله يحيى
محرر "أدب وفن"

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment– Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com
يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي: hassab1944@yahoo.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- احتجاجات التيار الصدري بين الضد النوعي وأزمة ثقة القوى المدنية..... جاسم الحلفي
24- الزراعة المحمية في محافظة الانبار.....هندي حامد الهيتي
34- الاشتراكية أو الانقراض...أزمة المناخ العالمية: وجهة نظر ماركسية..... ثامر الصفار
40- ماذا نعرف عن الخوارزميات المستخدمة في وسائل التواصل الاجتماعي؟.....عادل كنيش مطلوب
52- موقف بعض القوى القومية من نقابات العمال في العراق 1958 الى 1963 ..... فيصل الفؤادي
62- قراءة في مفهوم العدالة الاجتماعية عند سيد قطب..... مجيد إبراهيم خليل

نصوص قديمة

74- بعض قضايا الصراع بشأن المسألة الزراعية في العراق ..... صالح ياسر

نصوص مترجمة

88- المسارات الفكرية المجهولة للمراحل الأخيرة في حياة ماركس ..... ترجمة مصباح كمال

حوارات

96- (الثقافة الجديدة) تفتح ملف المياه وهي تحاور الأستاذ (حسن الجنابي)..... اجرى الحوار سوران قحطان

أدب وفن

104- الإرهاب.. ثقافيا!.....حسب الله يحيى
106- قراءة في ديوان "شذرات" للشاعر كامل الركابي.....إبراهيم إسماعيل
111- مطارحات غرامشية..... ثامر عباس
115- بلاغة الجمهور و النظام السلوكي في المجتمع العراقي.....عبد الغفار العطوي
119- (دفوف رابعة العدوية) :السرد الصوفي ..... سلام حربه
122- لن يأتي الصباح هذه الليلة "رواية حرب بامتياز لتجربة شخصية حقيقية.....منى سعيد
125- ياولد .. يافتان .....عبدالستار البيضاني
135- الإبراهيمية الجديدة والثقافة الى اين؟.....رهبه أسودي حسين
139- محطات وذكريات مع كلكامش العصر.....جواد مطر الموسوي
148- القمع والحرية في رواية (طشّاري) لإنعام كجه جي .....باقر محمد جعفر الكرباسي
154- عبد المطلب صالح، متى والى أين رحلت؟.....جمال العتّابي
158- نصوص .....ستار موزان
161- بائع مصابيح.....نادية محمد
162- حروفي حب وسلام.....عبد الباسط الصمدي أبو أميمه
163- الذَّكاءُ مَعَ العَدُوِّ.....سعيد أنوس
164- المعرض السنوي لجمعية التشكيليين العراقيين.... رعد كريم عزيز

لوحتا غلافي العدد للفنان محمد فهمي

كلمة العدد

بين المأزق التاريخي للنظام المحاصصي ورهانات التغيير الجذري... المعركة مستمرة!

من الجلي ان الأزمة العراقية وصلت منعطفاً حاداً، وبلغت مستويات حرجة ومتصاعدة باستمرار خلال الأشهر الأخيرة. وقد امتازت هذه المرة بالعديد من السمات، التي قد تُصعّب من محاولات التنبؤ بمساراتها اللاحقة بدقة ووضوح. ناهيك عن التكهن بسيناريوهاتها، والمآلات والأبعاد المحتملة لهذه المسارات والسيناريوهات. خصوصا وان الإمكانيات المفتوحة امامها متعددة، وبعضها شديد الخطورة. ان صعوبة توقع ما ستؤول إليه الاحداث يعود بالدرجة الأساس الى ان الصراع السياسي الأبرز، يحجب الى حد بعيد الطبيعة المعقدة للمضامين الاجتماعية الناظمة والموجهة له ولغيره من التناقضات. وما يرافقها من تغيير شبه دائم في موازين القوى السياسية والاجتماعية. وأحد أبرز اشكال هذا التغيير هو التفكك وإعادة التشكل المستمرين داخل كتل وقوى المحاصصة التقليدية.

*****

الأزمة السياسية الحالية او ما يطلق عليها بـ"الانسداد السياسي"، هي تجلٍّ جديد شديد الخطورة للأزمة البنيوية العامة للبلاد. انها ازمة اخرى في مسار نهج المحاصصة الذي دشن بعد عام 2003. ولأن المجال لا يتسع هنا بالخوض في تفاصيل السياق التاريخي الملموس الذي افضى الى الوضع الحالي، ولا في موازين القوى السياسية والاجتماعية التي نتجت بعد انتفاضة تشرين، والتي اعيدت بلورتها بصورة أوضح بعد انتخابات تشرين الأول 2021، فإننا نستطيع ان نركز على الحصيلة بشيء من الاختزال: الازمة السياسية في العراق هي "ازمة سلطة... ازمة نظام". إنها عبارة عن مأزق شرعي وسياسي، يدلل بوضوح على ضعف هيمنة وسيطرة القوى السياسية الحاكمة، وعدم قدرتها على إعادة انتاج سلطتها وهيمنتها. ويدلل أيضا على عدم قدرة أي جناح من اجنحتها المتصارعة على حسم الصراع لصالحه بصورة نهائية.

فمن جهة، خسرت قوى المحاصصة الطائفية والقومية الدعم الشعبي والجماهيري الى حد كبير. وهذا ما أشّرته بوضوح الموجات الاحتجاجية التي عمّت العراق. وكذلك النسب الضعيفة في المشاركة في الانتخابات. والنتائج الخجولة التي تحصلت عليها قوى المحاصصة التقليدية دليل ناصع على ذلك. وهذا يؤكد انها فقدت الدور "العُرفي" والسياسي لتمثيل "المكون". خصوصا إذا اضفنا الى كل ذلك الانشقاقات المستمرة داخل

الكتل والقوى السياسية، التي تحدث، غالبا، في صراعها على المغانم والنفوذ تحت يافطة الدفاع عن حقوق المكون، او في تنازعها على تمثيله.

من جهة أخرى، فقدت القوى السياسية المتنفذة قدرتها على الهيمنة. وذلك لأن قطاعات غير قليلة من الجماهير تحررت الى حد كبير من وعيها الزائف بأيديولوجياتها التقليدية: "المكون والتوازن والطائفية والاثنية..". ومن جهة ثالثة، وأخيرة، ان اتكاء قوى المحاصصة، بعد ان فقدت شرعيتها الأيديولوجية والسياسية والتمثيلية، على العنف والاكراه السافرين يعد واحدا من أبرز مؤشرات الضعف الذي وصلت إليه. وقد كان القمع السافر الذي تعرضت انتفاضة تشرين أحد أبرز صولاته.

بالتأكيد، لا يمكن اختزال الصراعات الدائرة بين القوى السياسية الحاكمة على انه مجرد تنافس على السلطة من داخل السلطة، من اجل الاستئثار بها وبمراكز النفوذ والثروة. وذلك بسبب التمايز الواضح في المحتوى الاجتماعي لكلّ منها. ولكنه مع ذلك يعد مؤشرا واضحا على تصدع غير قابل للإصلاح داخل القوى السياسية الحاكمة منذ 2003، وبيّنة جلية على تهافت أيديولوجيات المحاصصة الطائفية الإثنية. ان واحدة من أبرز دلالات السعي الى حسم الصراع السياسي الحالي في الساحات، هي ان الآليات الدستورية والشرعية، والاطر الأخرى التي تم التعارف عليها سابقا لحل المشاكل أصبحت غير مجدية، وصارت كلها أضيق من ان تضم المتنافسين بين جنباتها.

*****

إن الأزمة العراقية ما كانت ولم تكن أبدا أحادية الجانب. فلا يمكن فهمها بشموليتها دون فهم جانبها الآخر، دون الإحاطة بعنصرها النقيض: قوى التغيير، وما هو مستوى التطور الذي وصلت إليه، بتشكيلاتها السياسية ومضامينها الاجتماعية؟! فإذا كان القديم يتداعى ويحتضر، فإن ولادة الجديد ما زالت متعسرة لجملة عوامل ذاتية وموضوعية. وفي ظل هذا المأزق التاريخي ستبقى الإمكانيات مفتوحة. وإحدى هذه الإمكانيات هي التغيير الشامل نحو دولة مدنية ديمقراطية عصرية وعدالة اجتماعية. فلا يكفي لإحداث التغيير ان يعجز من هم في السلطة عن الحكم والقيادة حسب الطريقة القديمة، ولا ان يرفض من هم في الأسفل مواصلة العيش كما كانوا في الماضي. فهذه وان كانت شروطا جوهرية للتغيير، لكنها لا تعني بالضرورة أن الوضع أصبح جاهزا لإحداث التغيير. فهذا الأخير يتطلب كي يتحقق نضوج أسبابه الجوهرية. والجوهري هنا هو الممارسة البشرية، وتموضعها الفعال والملموس في عملية التغيير.

وفي النهاية، دون ان نكون متفائلين بتطرف، او متشائمين بإسراف، نشير الى الواقعة الاتية: أصبحت الأزمة العراقية بكل المقاييس أزمة وجود، أزمة "نكون أو لا نكون"؛ وصار بقاء الحال كما كان في السابق، أمراً صعباً، بل وحتى مستحيلاً! إن إمكانية التغيير الشامل لم تطوَ ولن تطوى بعد الآن. بل بالعكس تماماً، انها تفصح عن نفسها بقوة أكثر فأكثر. لكن، إذا لم يكن في وسع قواها الحقيقية ان تدفع باتجاه الانتصار على نظام المحاصصة بعد، وإذا كان الاخير قد يخرج محتفظاً بشيء من صلابته الظاهرة، فإنه بكل تأكيد سيكون أقل ثقة بنفسه، لأن مناعته أصبحت ضربا من ضروب الوهم. ربما سيبقى هذا النظام قادراً على القيام ببعض التسويات والمناورات، لكن الأكيد انه ما عاد يمتلك القدرة على حسم الصراع لصالحه، وان اقصى أمانيه هو تأجيل لحظة الانهيار فقط. وستقول الجماهير كلمتها في نهاية المطاف.

مقـــــالات

احتجاجات التيار الصدري بين الضد النوعي وأزمة ثقة القوى المدنية

جاسم الحلفي

المقدمة

إن التفكير في إيجاد مخرج من الانسداد الدستوري والسياسي الذي وصلت إليه العملية السياسية في العراق، هو من أولويات التفكير السياسي لانتشال النظام السياسي من هوّة أزمته المستفحلة، المتواصلة منذ التغيير عام 2003 إلا ان من الواضح بلوغ فكر الطغمة الحاكمة الى أشد حالات الرثاثة، حيث عجز بالكامل عن إيجاد منهج بديل للمحاصصة. ولذا فان فكر المحاصصة المأزوم، بكل ما خلّف من خراب وما أنتج من فساد، هو كل ما تقدمه الطغمة، التي افتضح خواؤها الفكري، لهذا لن يبقى الشعب صامتا فترة طويلة أخرى، وها هي مؤشرات الأوضاع العامة وقراءات الرأي العام واتجاهاته، تؤشر احتمال انطلاق موجة جديدة من الاحتجاجات الشعبية. فالمفاعيل التي حرّكت ثورة تشرين باقية على حالها، ولم تتم معالجة أيّ من الملفات الضاغطة، بل وازدادت المعاناة بفعل عدم الاكتراث بمعيشة المواطنين التي أصبحت بالغة الكلفة على محدودي الدخل، وقاتلة بالنسبة لفقراء الشعب والمهمشين، وذلك بسبب السلوك السياسي الخاطئ، والخلافات الناشئة بشأن تأليف الحكومة، وبقاء البلاد حتى الآن من دون موازنة مالية مصادق عليها. وبدلا من العودة الى المواطنين والاصغاء الى آرائهم، حيث انهم أصحاب الحق الوحيدين في تحديد مصيرهم، بعد عجز النظام وقواه المتنفذة عن تقديم اية حلول، نرى ان انسب الحلول هو الدعوة الى انتخابات مبكرة وحل مجلس النواب، لكن هيهات ان تصغي طغمة الحكم الى أي رأي تشعر به يقلص مساحتها، ويرخي قبضتها الماسكة بالسلطة ولو قليلا، فلم يبق امام المواطنين غير الاحتجاج، وقد يتبين لاحقا ان انتفاضة تشرين ليست سوى (بروفة) او تمرين للثورة السلمية الواسعة المرتقبة، بهدف التغيير الذي ينشده الشعب، بحيث يشمل بنية النظام باعتماد مبدأ المواطنة وبإصلاح وظائف البنية ذاتها.

امام هذه الأوضاع الحبلى بالسخط

والرفض والترقب، باغت التيار الصدري الجميع، وبادر لتنظيم موجة احتجاجات وصلت الى اقتحام قبة مجلس النواب، رافعا شعارات الإصلاح والتغيير الجذري، ومحاسبة الفاسدين وانهاء المحاصصة، وهي ذات الشعارات التي ترفعها القوى والشخصيات المدنية، فهل يا ترى ان التيار اقتنص الفرصة التي كان يمكن للقوى المدنية المبادرة فيها؟ ام جاءت كتهيئة للتنسيق والعمل المشترك بهدف اصلاح الأوضاع وتغييرها، ام انه استشعر قيام ثورة شعبية وسارع في النزول من سفينة السلطة ليتقدم صفوف الشعب في مواجهة طغمة الحكم.

هذا ما يحاول البحث استعراضه ومناقشته وتسليط الضوء على الزوايا المعتمة، وكشف التداخل وفك الالتباسات، وفض الاشتباكات، نسعى لتحليل ذلك بالقدر المستطاع من خلال هذه المقدمة وثلاثة محاور؛ ركز الأول على الاحتجاجات بين جدل التوقعات والاقتحام المباغت، عبر مبحثين الأول هو، الثورة الشعبية المتوقع اندلاعها والاخر اقتحام المنطقة الخضراء بين التنظيم والعفوية. فيما اختص المحور الثاني بالأوضاع العامة ما بعد الانتخابات المبكرة وتداعياتها، عبر مبحث عنوانه البيئة السياسية ما بعد الانتخابات المبكرة، ناقشه ضمن ثلاثة عناوين: الانتخابات المبكرة بين المقاطعة والتشكيك بنتائجها، الصراع ضمن منهج الحكم وعليه، والانسداد السياسي نتيجة متوقعة للصراع. والمبحث الاخر هو الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية بعد الانتخابات المبكرة، هذا وقد بحثنا في المحور الثالث وضع الاحتجاج الصدري بين الضد النوعي وأزمة العلاقة مع القوى المدنية، حيث اختص المبحث الأول بالضد النوعي، فيما تطرق المبحث الثاني الى ازمة الثقة بين التيار والقوى المدنية . اعتمد الباحث على البيانات السياسية وتصريحات القوى كمصادر الى جانب المتابعة الشخصية للأحداث، ومعروفة صعوبة هذا البحث في صراع احداث يومية سريعة لا تتوقف لبرهة، وقد وصل الصراع شدته، ما يجعل التكهن بالمآلات اقرب الى المستحيل، لذا فهو جهد بحثي لا ندعي فيه الكمال، بل هو محاولة اقرب الى المغامرة.

المحور الأول
الاحتجاجات بين جدل التوقعات والاقتحام المباغت

المبحث الأول: الثورة الشعبية المتوقع اندلاعها

من يتعمق في تأمل الصراع السياسي الدائر في العراق، سيكتشف دون عناء البعد الطبقي بوضوح كاف، حيث واقع الاحتياجات الملّحة جدا للطبقات والشرائح الاجتماعية لملايين العراقيين من طبقات وشرائح اجتماعية مهمشة وفقيرة، التي تفصلها فجوة طبقية هائلة السعة عن طغمة الحكم المتحالفة مع حيتان الفساد التي تعيش حياة باذخة باستفزاز، غير مكترثة بتدهور أحوال الشعب، ولا يهمها الارتفاع الجنوني للأسعار، الذي اكتوت بناره حتى الطبقة الوسطى التي تعيش في بحبوحة نسبية، زاد الحياة المعيشية صعوبة، عدم

نجاح أي إجراء اتخذته الحكومة للتخفيف من وطأة الأزمة المعيشية، التي طحنت تأثيراتها الملايين. كل ذلك رجح احتمال اندلاع هبّة شعبية كبيرة. فما من طاقة إضافية لدى فقراء العراق ومهمشيه على تحمل الأعباء المعيشية القاسية، التي ينعكس تأثيرها في المزاج العام، ولا مزيد من الصبر عند جماهير الشباب الغفيرة المتطلعة الى فرص عمل تنقذها من جحيم البطالة ومذلّتها، ولا بقايا قدرة تحمّل، بقيت عند الناس الحالمين عن حق بحياة آمنة وكريمة مستقرة. وإذ يشتد يأس المواطنين من إمكانية إيجاد حلول ومعالجات للأزمات التي تنهش حياتهم وتعصف بأحوالهم، فانهم لا يستسلمون لهذا اليأس، ولا يقنطون او يرضخون للأوضاع المأساوية الساحقة. واذا كان السخط والتذمر يطبعان مزاجهم، فان هذا ليس بالمزاج السلبي في كل الأحوال، بل يمكن ان يتحول في لحظة قادمة غير منتظرة إلى مرجل يشتعل غضبا عارما، وقد ينفجر في صورة انتفاضة او ثورة سلمية جبارة، تحاصر كل المتنفذين الذين لم يكترثوا لمعاناة الناس، ولا لمطالباتهم المتصاعدة بتأمين مستلزمات العيش الكريم.

كل ما تقدم وغيره يقودنا الى استنتاج واضح هو ان احتجاجا كبيرا، سيندلع بكل الاحوال، إذ ان العوامل والاسباب التي ادت الى اندلاع انتفاضة تشرين ما زالت قائمة بل زاد عليها عنصران اخران: عنصر تخفيض قيمة الدينار مقابل الدولار، وما تركه ذلك من اثار كارثية على معيشة المواطنين، دون ان تقوم الحكومة بواجبها بالحد من تدهور الوضع المعيشي، ودفعت بذلك شرائح اجتماعيه اخرى الى خط الفقر، كما تضرر أصحاب الدخل المحدود، والقطاعات الاقتصادية غير المنظمة، بل وصل امر سوء الأحوال المعيشية الى منتسبي الدولة من الدرجة الخامسة ونزولا، حيث صنفتهم وزارة التخطيط ضمن الفئات الفقيرة[1]، الى جانب اتساع رقعة البطالة، بشكل مخيف[2]. لم تتوقف الاحتجاجات المطلبية والخدمية يوما واحدا، بل ان المتابع يرصد أكثر من احتجاج في اليوم[3].

ما تقدم هو كالأجواء التي سبقت انتفاضة تشرين، حيث الاحتجاجات المطلبية الواسعة، التي لم يستمع لها أحد، ولم يستجب لها مسؤول في الحكومة، ما حوّلها الى انتفاضة شعبية تجاوزت المطالب الفئوية وحملت شعارات سياسية واسقطت حكومة عادل عبد المهدي. وهذا يتيح لنا ان نستنتج ان الأوضاع هذه وضعت البلاد على اعتاب ثورة شعبية من الممكن ان تندلع في اي لحظة، قبل ان يصعد التيار الصدري خطابه المعارض، ثم يقتحم اسوار المنطقة الخضراء ويحول احتجاجه الى اعتصام مفتوح استمر حتى كتابة هذا البحث.

المبحث الثاني: اقتحام المنطقة الخضراء بين التنظيم والعفوية

اقتحمت جموع شبابية غاضبة تنتمي في اغلبها الاعم الى التيار الصدري، صباح يوم 30 تموز 2022، اسوار المنطقة الخضراء للمرة الثانية خلال أسبوع واحد، اذ سبق وقامت مساء يوم الأربعاء 27 تموز 2022، باقتحام

مباغت لها، على خلفية ترشيح السيد محمد شياع السوداني رئيسا للوزراء يوم 25 تموز 2022، من قبل الإطار التنسيقي، باعتبارهم الكتلة النيابية الأكثر عددا، بعد استقالة نواب الكتلة الصدرية البالغ عددها 72 نائبا، يوم 12 حزيران 2022، وهذا ما يعارضه الصدر. لم يستمر تواجد الصدريين سوى بضع ساعات، انسحبوا بعد تغريدة السيد الصدر في اليوم ذاته، حيث نصت: (وصلت رسالتكم ايها الاحبة فقد ارعبتم الفاسدين، جرة اذن، صلوا ركعتين وعودوا الى منازلكم)[4].

اما الاقتحام الثاني، فكان بعد ان اعطى الصدر الضوء الأخضر لأتباعه باقتحام المنطقة الخضراء مرة أخرى، كما جاء في بيان محمد صالح العراقي "إذا استمر الفاسدون على غيّهم وعنادهم وفسادهم وظلمهم وتبعيتهم وكرههم للوطن، فالشعب إذا كان بهذا الانضباط فيستحق أن يكون هو القائد وهو من يقرر مصيره"[5] حيث وصل المحتجون قبة مجلس النواب، وجلسوا على كراسي النواب، وعلى منصة الرئاسة مقررين (باسم الشعب) منع انعقاد جلسة مجلس النواب المزمع عقدها بنفس اليوم والهادفة الى التصويت على المرشحين لمنصب رئيس الجمهورية، حيث تنحصر المنافسة بين مرشح الاتحاد الوطني الكردستاني، الدكتور برهم صالح، وبين مرشح الحزب الديمقراطي الكردستاني، السيد ريبر احمد البارزاني وزير داخلية إقليم كردستان؛ اذ يقوم من يفوز برئاسة الجمهورية بتكليف السوداني تشكيل الحكومة. شاركتهم في الاندفاع، الذي امتاز بالسرعة، والإصرار على إزاحة الحواجز الكونكريتية، وتسلق تلك التي تصعب ازاحتها، واسهمت معهم، فئات عمرية فتية مفتونة بسحر الانتفاضة وفعلها الثوري، وبسالة ابطالها، بعد ان غادروا للتو اعمار الطفولة، حيث كانت أعمارهم حينما اندلعت انتفاضة تشرين ما بين 13 - 14 عاما، واليوم هم بين اعمار 15 - 16 عاما، كلهم عزم وتحدٍ في لحظة الاقتحام [6]، وهو اول فعل احتجاجي من هذا النوع يسهمون فيه، الى جانب المتمرسين الصدريين، ومنهم مقاتلون في سرايا السلام، بملابس مدنية.

دامت محاولات الاقتحام التي ردتها القوات الأمنية بحدود الساعتين بدأت في الساعة التاسعة صباحا واستمرت، دون جدوى، قبل ان توهن امام الإصرار والتحدي، اذ استخدمت القوات الأمنية خراطيم المياه والغازات المسيلة للدموع، حيث اصابت عددا من المقتحمين بجروح، نقل على اثرها الى المستشفيات، وعلى وفق بيان وزارة الصحة، أصيب نحو 100 من المحتجين، بالإضافة إلى 25 من أفراد الأمن، وقد استقبل مستشفى اليرموك في بغداد قرابة 20 مصابا من جرحى التظاهرات، وكانت الإصابات متفرقة بين منطقة الرأس والجسد جراء إلقاء القنابل الدخانية، كما أعلنت وزارة الصحة لاحقا عن استقبال 60 إصابة مختلفة من المتظاهرين، توزعوا على ثلاثة مستشفيات، مؤكدة استمرار استنفار مؤسساتها وملاكاتها لإسعاف وعلاج الجرحى[7].

تمكن المحتجون بعد اصرارهم، غير مكترثين للتضحيات، من عمل فتحة

صغيرة من بين الحواجز الإسمنتية، في تمام الساعة الحادية عشرة، سرعان ما دخلوا منها، وسهل عليهم اسقاط الحواجز الواحدة تلو الأخرى، حتى فتحت لهم بشكل مكن المجاميع من الانسياب بدون عوائق تذكر.

اطلق الصدر على هذه الاحتجاجات "ثورة عاشوراء"، مشيرا الى أنها "ثورة إصلاح في شهر الإصلاح وامتدادا لسيد الإصلاح الإمام الحسين"، ولفت الى "اشتراك بعض الأحبة من ثوار تشرين، ما جعلها ملحمة عراقية"، مقدما الشكر للمتظاهرين، كما وصفها من جهة أخرى بانتفاضة اذار عام 1990، الثورة الشعبانية، حيث قال "بالأمس ضد الدكتاتور واليوم ضد الفساد والتبعية لذا قد ذكرتنا بالثورة الشعبانية". اما الإطار التنسيقي فقد اصدر بيانا في نفس اليوم جاء فيه: (لقد رصدنا تحركات ودعوات مشبوهة تحث على الفوضى وإثارة الفتنة وضرب السلم الأهلي)[8]..

المحور الثاني
الأوضاع العامة ما بعد الانتخابات المبكرة وتداعياتها

المبحث الاول: البيئة السياسية العامة ما بعد الانتخابات المبكرة

1- الانتخابات المبكرة بين المقاطعة والتشكيك في نتائجها

أكدت نتائج الانتخابات المبكرة التي جرت يوم 10 /10 /2021، حقائق عديدة، أولاها عدم ثقة المواطنين في النظام السياسي، اذ عكست ارقام المقاطعة اتساع الفجوة بين الشعب والقوى الماسكة بالسلطة. وتحدثت لغة الأرقام ليس فقط عن تراجع واضح في حجم المشاركة، انما كذلك عن تراجع كبير للقوى التصويتية لكل الأطراف المتنفذة وحتى الفائزين منها، حيث لم يحصل أي منهم على ما حصل عليه من الأصوات في انتخابات 2018. وبهذا المعنى فقد لحقت بجميعهم خسائر تصويتية فادحة، عكست تراجع ثقة ناخبيهم التقليديين بهم. كما يعني تراجع اعداد المشاركة في نهاية المطاف، ان المواطنين فقدوا ثقتهم تماما بإمكانية التغيير عبر آلية الانتخابات، فالشعور بلا جدوى المشاركة كانت له الغلبة في هذه الانتخابات. كما تجدر الإشارة الى التصويت العقابي الذي جرى لبعض القوى التقليدية، حيث منّيت بخسائر تصويتية لافتة وغير متوقعة، ما اصابها بخيبة سترافقها وستنعكس على ادائها السياسي، الى فترة غير قصيرة.

تصاعدت نبرة التشكيك في نزاهة الانتخابات، من قبل القوى الخاسرة، بالرغم انهم اشادوا بها في يوم الاقتراع، وأصدرت بيانات تطعن بالنتائج الأولية التي أعلنتها المفوضية يوم 11 / 10 /2021، ورفضتها بشدة، واكدت عدم القبول او الاعتراف بالنتائج. جاء ذلك بلغة تصعيدية خطيرة وغير مألوفة. رفضوا نتائج الانتخابات، ولجأوا الى الاحتجاج والتهديد وتنظيم اعتصام امام احد بوابات المنطقة الخضراء، وطالبوا بإعادة الانتخابات[9]. أصبح الحديث عن تزوير انتخابات 10 /10 /2021، أوسع من كل ما قيل عن التزوير عقب جميع

الانتخابات. لقد كانت نتائج الانتخابات بمثابة كاشف جديد لأزمة نظام الحكم الذي يتصارع المتنفذون على مركز القرار فيه، وتأكد للمواطنين ان الانتخابات في نظر الطغمة ليست الا صراع على كراسي تؤمن لهم التمترس في مواقع السلطة، وليس في وارد أي منهم إحداث التغيير المنشود.

2- الصراع ضمن منهج الحكم وعليه

لم تنفع احتجاجات الخاسرين في الانتخابات على نتائجها في إلغائها، واصبح التعامل على أساسها تحصيل حاصل، ولأجل ترتيب حصة كل طرف في تشكيلة الحكومة الجديدة، رفعوا خيم الاعتصام، وتوالت الاجتماعات واللقاءات الكثيرة بهدف التفاهمات على ما تمت تسميته التوافق السياسي، الاسم الحركي للمحاصصة الطائفية. وبهدف تشكيل حكومة تشترك فيها كل الأطراف. وهذا ما أكد حقيقة عدم وجود أية نية لمغادرة طريقة الحكم المبنية على الاستقطابات الطائفية، وتمسكهم بنهج المحاصصة المقيت برغم كل نتائجه الكارثية. لاقت العودة الى المحاصصة الطائفية الاستهجان والرفض الشعبي، وعند هذه اللحظة حدث استقطاب مجموعة السبعة بعد خروج التيار الصدري منها، وهي القوى الشيعية التي تطالب بحكومة توافق، التي اتخذت مسمى آخر، هو الإطار التنسيقي. اما التيار الصدري، الفائز الأكبر بعدد مقاعد بلغ 72 مقعدا، فقد رفض فكرة المحاصصة، وتبنى حكومة الأغلبية الوطنية، عاقدا تحالفا جديدا مع تحالف تقدم برئاسة محمد الحلبوسي، والحزب الديمقراطي الكردستاني. برهن المتنفذون مجددا على انهم يستخدمون الانتخابات ليس كآلية ديمقراطية لتمثيل الشعب، ثم السهر على تنفيذ مطالبه وتلبية حاجاته، انما كأداة حساب لنفوذهم في السلطة وطريقة لتوزيع الحصص في ما بينهم. فعائد المقاعد التي يحصلون عليها، يسمونه استحقاقات انتخابية، فهي ارقام تترجم كحصص في السلطة التنفيذية، حيث يتم تصنيف الوزارات الى سيادية وأخرى خدمية وثالثة وزارات دولة، وتحدد قيمة كل وزارة وفق معيارين؛ الأول بما يقابلها من مقاعد برلمانية، والثاني بحجم الأموال المخصصة للوزارة في الميزانية. وتغدو الوزارة إقطاعية لهذا الحزب او ذاك، فيستغل مواقعها لمحازبيه وتابعيه، فيما تفتح ميزانيتها له كمصدر مدرار لمال الفساد، حيث تعقد الصفقات في اروقتها لصالح حزب الوزارة!

3- الانسداد السياسي نتيجة متوقعة للصراع

يمكن تعريف الانسداد السياسي الذي انتهت إليه منظومة الحكم في العراق، بانه عجز هذه المنظومة عن المضي في نفس طريقة ادارة الحكم، وفي المنهج عينه، الذي سارت عليه وتقاسمت الوزارات كغنائم. والانسداد هو إحدى النتائج المتوقعة لأزمة المنظومة الحاكمة. عندما توقفت القوى المتنفذة أمام خيارين: خيار تشكيل حكومة الأغلبية الوطنية، التي يتبناها الصدر ومعه حليفاه في التحالف الثلاثي. يقابله خيار تشكيل حكومة توافقية، يصرّ عليها الإطار التنسيقي وحلفاؤه. وكان من

المفترض حسب رأي قادة كلا الطرفين، ان يكون يوم 26 آذار 2022 هو اليوم الحاسم في اختيار احد الاحتمالين؛ إذ سيتقرر السير بالعملية السياسية في اتجاه أحدهما. لكن الذي حصل وكما كان متوقعا، لم يكتمل النصاب القانوني للجلسة البرلمانية حيث شكل الإطار التنسيقي "الثلث المعطل"، وسمي لاحقا "الثلث الضامن" بعد استهجان التسمية الأولى من الرأي العام.

لا عجب في الاصرار على التوافق والتحاصص، ولا غرابة في رفض أية صيغة للحكم غير ما درجت طغمة الحكم عليه. لهذا فعلوا المستحيل كي لا تمرر حكومة الأغلبية. لقد كانت شعاراتهم بتشكيل حكومة الأكثرية مجرد شعار صدعوا الرؤوس به في الحملات الانتخابية. وما ان انتهت الانتخابات حتى اتضح زيف ادعائهم. فعادوا يزوّقون خطابهم الطائفي بمسميات مداهنة، مثل الاستحقاقات الانتخابية، والمشاركة، والحفاظ على السلم الأهلي. وكل هذا لاخفاء منهجهم الذي لن يغادروه، منهج المحاصصة المنتج للفساد، والذي سبق لزعمائهم ان اعترفوا بفشله وفشلهم في إدارة الدولة.

لقد سبق لنا القول ان نتائج الانتخابات ستكون كاشفا جديدا لأزمة النظام السياسي، وتعكس صراع المتنفذين على السلطة، نتائج الانتخابات هي مقياس لتوزيع الحقائب الوزارية بينهم وليس شيئا اخر، وبهذا المعنى لا يعني عدد المقاعد التي يحصلون عليها لهم شيئا، زاد ام نقص، فمنهجهم في كل الاحوال هو مسك السلطة وعدم مغادرتها. لذا لم يهتموا بمغزى مقاطعة اكثر من 75 في المائة من الناخبين للتصويت، اذ (كلما زاد نفور الناس من النظام وكلما عبروا عن رفضهم له بعدم المشاركة في الانتخابات، زاد احتمال استمرار النظام في ايدي أولئك الذين يريدون الحفاظ على الوضع الراهن) [9].

لم يفكروا برهة امام هذا الانسداد بالعودة الى المواطنين والاصغاء الى آرائهم، فهم أصحاب الحق الوحيدون في تحديد مصيرهم، بعد عجز الطغمة عن تقديم اية حلول، لم يلامس عقولهم الحل في حل مجلس النواب والتحضير لانتخابات مبكرة أخرى، وفقا للفقرة أولا من المادة 64 من الدستور العراقي، التي تنصّ على (اولاً: يُحل مجلس النواب بالأغلبية المطلقة لعدد اعضائه، بناءً على طلبٍ من ثلث الاعضاء، او طلبٍ من رئيس مجلس الوزراء وبموافقة رئيس الجمهورية، ولا يجوز حل المجلس في اثناء مدة استجواب رئيس مجلس الوزراء) [10].

المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية بعد الانتخابات المبكرة

(ألقت مفارز مديرية شرطة محافظة ميسان المتمثلة بقسم مكافحة المخدرات القبض على (9) متهمين بتجارة وتعاطي المخدرات وضبطت بحوزتهم مادة الكريستال المخدرة، وأدوات تستخدم للتعاطي. وبينت المديرية أنه تم اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة بحقهم وفق أحكام المادتين (28 / 32) مخدرات، لينالوا جزاءهم العادل) [11].

لم يعد هذا البيان غريبا، بل تتداوله ومثيله من البيانات جميع وكالات الانباء، ويصدر غالبا أكثر من بيان في اليوم الواحد، ما يؤشر على فداحة هذه الكارثة التي انتشرت واتسعت وتكاد تقتحم كل بيت، وإذ لا يتسع مجال البحث للتوسع في ابعاد وخطورة المخدرات على الصحة الجسدية والنفسية للشباب، وكسبب للجرائم الهائلة والغريبة على المجتمع العراقي، حيث سجلت وثائق وزارة الداخلية والقضاء فظائع لا تصدق. ما يهمني هنا نفوذ العصابات التي تتاجر بالمخدرات، وامتدادهم في دوائر الدولة ومؤسساتها، وأصبحت هذه التجارة المدمرة واحدة من اهم اقتصاديات المليشيات والعصابات المسلحة، وقوى الفساد، التي لا تكف عن نهب المال العام، بكل الطرق والسبل، بل انها تبتكر اغرب الطرق لإبقاء الفساد، وربما لا تكون فضيحة عقد شركة عشتار (صفقة الفساد المبتكرة)، هي اخر فضيحة اقتصاديات الفساد، التي جاءت بمثابة عقد خدمات مصرفية وقعه مدير عام مصرف الرافدين مع شركة عشتار يوم 4 /3 /2021. وبموجبه ألزمت الشركة عراقنا المنهوب بتعويض لها يبلغ 600 مليون دولار، على وفق حكم قرار الحكم الابتدائي الصادر من محكمة البداءة المختصّة بالدعاوى التجارية في الرصافة، الذي حمل العدد (205 / تجارية / 2021) والصادر في 26 / 7 / 2022. وهو مبلغ يكفي لبناء وتجهيز الكثير مما يحتاجه العراق من مدراس ومستشفيات ودور عجزة ومصحات.. لم يتراجع الفساد، بل واصل معدلات ارتفاعه، وتمترسه في مفاصل الدولة فقد (كشف رئيس هيئة النزاهة القاضي علاء الساعدي في تغريدة اخيرا، ان الهيئة "سجلت نسبا متقدمة في ملف تضخم الأموال والكسب غير المشروع") [12]. ولا برهان على ذلك ابلغ مما جاء في رسالة استقالة علي عبد الأمير علاوي وزير المالية ونائب رئيس الوزراء، حيث جاء فيها (تعمل شبكات سرية وواسعة من كبار المسؤولين ورجال الاعمال والسياسيين وموظفي الدولة الفاسدين في ظل السيطرة على قطاعات كاملة من الاقتصاد وتسحب مليارات الدولارات من الخزينة العامة، هذه الشبكات محمية من قبل الاحزاب السياسية الكبرى والحصانة البرلمانية وتسليح القانون وحتى القوى الاجنبية، وإنها تحافظ على صمت المسؤولين الأمناء بسبب الخوف والتهديد بالقوة. لقد وصل هذا الأخطبوط الهائل من الفساد والخِداع الى كل قطاع من قطاعات اقتصاد الدولة ومؤسساتها ويجب تفكيكه بأي ثمن) [13].

ما تقدم يؤكد ان التخادم بين المتنفذين في السلطة السياسية والفاسدين وصل الى حد التحالف الوثيق، بين طغمة الحكم مع حيتان الفساد، وقد امتزجت السلطة السياسية عند البعض مع الوفرة المالية التي أمّنها لهم الفساد، وغدت اقلية حاكمة (أوليغارشية). فلا يمكن تصور مرور صفقات الفساد، من دون تخادم طغمة الحكم مع حيتان الفساد وتشاركهم في النهب. وقد تمت تهيئة ذلك عبر إجراءات طويلة ومعقدة بدأت بغلق مؤسسات الدولة من توظيف الكفاءات الوطنية النزيه، بل

وصل الامر الى خلق بيئة طاردة لمن استلم منهم مواقع مهمة في الدولة. ويمكن التذكير هنا بما حصل الى الدكتور سنان الشبيبي وغيره من الكفاءات، وتعيين الاتباع والحزبويين الفاشلين والفاسدين وضعاف النفوس، ما أدى الى إضعاف فاعلية الإدارة وخبرتها، وأتى على أداء المؤسسات، ووفروا بذلك الجو المناسب لحيتان الفساد كي تعبث بموارد العراق. لم يكن هذا التخريب دون قصد، بل انه كان جهدا طبقيا منطلقا من الوعي بمصالح النهابين، وهادفا الى تثبيت سلطة الفساد واستكمال ترصين مؤسساتها، التي لم تعد تناظر مؤسسات الدولة وتنافسها فقط، بل فاقتها قدرة وقوة وفعالية في نهب المال العام وتحطيم البنى الحكومية. فتحولت المنظومة السياسية والإدارية الى خدمة "مجموعات المصالح الخاصة" [14].

لقد تمكنت طغمة الحكم من بناء طبقة اجتماعية اغتنت من مال الفساد، وتعيش في مجتمع مخملي، حيث سيطرت على قطاع المال والخدمات، وتملكت البنوك والجامعات والمستشفيات وشبكات الاتصالات. تقابل هذه الطبقة طبقات اجتماعية مسحوقة من سكنة العشوائيات، الذين لا تتوفر لهم ابسط مستلزمات العيش الآدمي، ومن فقراء آخرين وعاطلين عن العمل ومحرومين. فطغمة الحكم والفساد لا تبالي أبدا بالأعباء الاجتماعية، للفقر والحرمان، ولا بالبطالة وآثارها الكارثية. ولا يعنيها نهائيا تداعيات تخفيض قيمة الدينار العراقي مقابل الدولار الأمريكي، التي فرضتها إملاءات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وما سبّبه ذلك من افقار قطاعات جديدة، حيث وصلت نسبة الفقر الى اكثر من 30 في المائة هذا العام، بعد ان كانت 20 بالمائة في 2019 حسب بيان رسمي من وزارة التخطيط. ولتضاف نتيجة لذلك أعباء جديدة للفئات محدودة الدخل وللمعوزين والمهمشين، فيما وصلت نسبة التضخم الى 8 في المائة، بعد ان كانت اقل من 1 في المائة في 2019. والدليل على ذلك هو الارتفاع المضطرد للأسعار، وقضم مدخرات المواطنين بنسبة تصل الى 25 في المائة، وقد نجمت عن ذلك تداعيات قاسية بالنسبة لمعيشة المواطنين وحياتهم، بجانب مشاكل وظواهر اجتماعية خطيرة، لم يألفها المجتمع العراقي. لقد تهاوت كل ذرائع تلاميذ مدرسة الرأسمال المتوحش، الذين طرحوا ورقتهم البيضاء وما رافقها من حملة تبشير بعهد اقتصادي فعال، وقطاع خاص نشيط يدعم الصناعة الوطنية ويهتم بالقطاع الزراعي وتطويره، والذين ادعوا ان مفتاح انفراج الازمة الاقتصادية وانعكاساتها الاجتماعية هو تخفيض قيمة الدينار العراقي امام الدولار. كما تبددت الآمال في تحسن النمو الاقتصادي العراقي، وتطبيق سياسات اقتصادية تنموية ناجحة، وتطور قطاعاته الانتاجية المتنوعة، بالرغم من التدفقات النقدية الكبيرة التي تعرضت الى عمليات استحواذ[15].

لقد بان فشل السياسة المالية لتلاميذ التوحش الرأسمالي، الذين أذعنوا لوصفات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي واشتراطاتهما، وزيّنوا الطريق الى اخطر هيمنة وتدخل امبرياليين. كثيرة هي علامات الفشل، تبدأ بمؤشرات الفقر والتضخم

وتنتهي بالكوارث الاجتماعية كالانتحار وتعاطي المخدرات وارتفاع نسبة البطالة، الى جانب الاتجار بالبشر، واتساع ظاهرة الطلاق وتفكك الاسر وضعف الخدمات، وكل هذا يعكس الخراب الذي وصل إليه الاقتصاد العراقي. قد وصلت اعداد من يعيشون تحت خط الفقر الى حوالي خمسة ملايين عراقي، فيما تخطى الدين الداخلي حدود 68 ترليون دينار، وتمت زيادة النقد المطبوع الى 78 ترليون دينار. وهذا دليل إضافي على فشل السياسة النقدية التحوطية في مواجهة نتائج تضخم العملة المحلية وتأثيرها على المجتمع.

المحور الثالث
وضع الاحتجاج الصدري بين الضد النوعي وأزمة العلاقة مع القوى المدنية

المبحث الأول: التيار والإطار الضد النوعي

اصرت قوى الإطار التنسيقي على تشكيل حكومة توافقية، والتي يفسرها القاموس السياسي العراقي، بانها حكومة محاصصة، في مقابل ذلك تمسك الصدر بحكومة الأغلبية الوطنية، وعد ذلك نقطة البداية في صراع الطرفين. وكشفت واقعة مقاطعة نواب الإطار التنسيقي وأكثر نواب عزم الذين انشقوا على خميس الخنجر رئيس التحالف، جو الفوضى والتدافع، وعدم احترام قبة مجلس النواب، وعدم الالتزام بالنظام الداخلي لمجلس النواب، وان الاستحقاقات الدستورية مادة للصراع والتسويف، وان مواد الدستور تتطوع كيف ما يراد لها، كما انها بينت عمق الازمة وحجم الخلافات بين الإطار والتيار، وكل هذا برهن على ان مسار تشكيل الحكومة لن يكون سلسا. وتصاعد منسوب التشاؤم بقدرة مجلس النواب على انجاز مهماته الدستورية، اذ اتضح ان الخلاف سيكون من السعة بحيث يستحيل حله، عندما تحين ساعة تسمية رئيس الحكومة والوزراء و(استحقاق) حصة كل كتلة فيها. سُجِّلتْ الكتلة الصدرية على أنها الكتلة الأكبر وحظيت بشرعيتها بعد تقديمها إلى الرئيس المنتخب، فيما لم تجد محاولات الإطار كي يسجل نوابه كتلة أكثر عددا. تسجيل الكتلة الأكبر لم يمنحها حرية تشكيل الحكومة، التي واجهتها عقبات، من بينها الخلاف بين الحزبين الكرديين المتنفذين على تسمية رئيس الجمهورية، الى جانب الخلاف الأساسي بين (الإطار) و (التيار).

دار الصراع السياسي بين محورين: محور الإطار التنسيقي الذي يجمع قواه ويحشدها لتبلغ 138 نائبا وربما أكثر، وهو العدد الذي يؤمن لهم ما يسمى بالثلث المعطل، الذي يتلخص هدفه في إعاقة مسعى التحالف الثلاثي لتشكيل حكومة الأغلبية الوطنية. من جهة أخرى لم تتبلور رصانة التحالف الثلاثي ومتانته، فهو لم يطرح برنامجه المعتمد بإجماع اطرافه، ولم يعلن آليات تنفيذ هذا البرنامج. لذلك لم يحظ بتأييد شعبي علني، بل ان التوجس والشك في جدية أطراف التحالف في تحقيق الإصلاحات هما السائدان.

اكثر ما استطاعه الإطار هو تشكيل ما سمي الثلث المعطل، الثلث الضامن، حيث

سارع لتغيير الصيغة الأولى، بعدما لاقت ما لاقت من استهجان. الصيغة التي وان تغيرت فقد أدت نفس المعنى، وسنلاحظ سرعان ما تم تناسيها من قوى الاطار، وابداء (حرصهم) على مجلس النواب عندما عطله الاعتصام.

حال الثلث المعطل دون سير الاستحقاقات الدستورية، باستكمال انتخاب رئيس الجمهورية، ما تعذر تسمية رئيس الوزراء. من جهة أخرى لم يتمكن الإطار من تشكيل الحكومة حينما أعطيت له فرصة، وذلك لاستحالة قدرته على جمع الثلثين. وهكذا حدث الفراغ الدستوري، الذي سرعان ما تحول الى انسداد سياسي ومأزق كشف عجز عقلية المتنفذين عن إيجاد حل للازمة. أصبح الاستقطاب واضحا وكبيرا، شمل اغلب المستقلين الذين انقسموا بين الجهتين، كما لم يسلم حليفا الصدر من كيل التهم عليهما، مرة بالمطبّعين، وأخرى عبر استهداف مقراتهما في أربيل والانبار بالقصف الصاروخي. عدّ الإطار بان استقالة نواب التيار الصدري هي فرصة نادرة ونعمة غير متوقعة، وُهبت لهم كي يمرروا حكومة المحاصصة التي يتشبثون بها. لكن اتضح وكما سارت الاحداث ان خلوّ قبة مجلس النواب لهم، لم يسهّل عليهم ذلك. الى جانب كل ذلك كان لتخلف عدد من مواد الدستور عن مواكبة التطورات التي يفترض التجاوب معها، حيث غدت تلك المواد عائقا ومصدا وعامل تعطيل للنظام، بل زادت من حدة الازمة، وأصبحت معضلة لا يرتجى لها حل من دون تعديلات جوهرية. كشفت هذه الازمة المركبة عجز النظام عن تأمين الاستحقاقات الدستورية، ووقوعه تحت تأثير عصف الازمات، وانغلاق الطريق امام قدرته على توفير العيش الكريم، وتزايد الضعف في ثقة المواطنين به، واتساع الفجوة باضطراد بين الماسكين بالسلطة وبين المواطنين، بعد هذا وذاك ثبت بالدليل القاطع فقدان النظام السياسي لمشروعيته، وان من غير المعقول منحه فرصة أخرى. فمدخلات الفشل لا تنتج الا الفشل. لكن رغم كل الازمات التي تعصف بالنظام وفشله التام في تحقيق منجز ما، نرى تمسك طغمة الحكم بذات المنهج المنتج للازمات، غير آبهة بانكشاف عورات نهجها وعيوبه في كل يوم. وليس آخر ذلك استقالة الكتلة الصدرية لتسجل مفارقة استقالة اكبر كتلة برلمانية في تاريخ النظام البرلماني في العالم، وما نتج عن الاستقالات من تداعيات، وقطعا سوف تطرح أسئلة تفتح نقاشا واسعا حول شرعية النظام ومشروعيته، بعد ان بلغت نسبة المقاطعين للعملية الانتخابية قرابة ثلثي عدد الناخبين. وتزداد الشرعية تداعيا حينما تستقيل الكتلة التي تشكل بالحساب الدقيق أكثر من 22 بالمئة من مجموع أعضاء مجلس النواب.

دخل الصراع بين التيار والإطار طورا جديدا، بعد ان أعلن الاطار التنسيقي، مساء يوم 15 آب 2022، البدء باعتصام مفتوح لأنصاره، عند بوابة المنطقة الخضراء من جهة الجسر المعلق، فيما قاربت اعتصامات الصدريين الشهر الكامل، وسط تزايد الدعم العشائري والشعبي، الذي حجّم من فرص "الإطار" في تشكيل

الحكومة، ما دفعه إلى استخدام ورقة الشارع. تنتصب عقد ومطبات عديدة امام التوصل الى حلول عبر الحوار، الى جانب أجواء عدم الثقة بين الطرفين، وبات الطريق امام المبادرات العديدة التي طرحت، مغلقا، وآخرها مبادرة مصطفى الكاظمي رئيس الحكومة، وهي لا تساعد في إيجاد مخرج، حيث إن الإطار التنسيقي يرفض استمرار حكومة الكاظمي في تصريف الأعمال مدة أطول مما هي عليه الآن، كما يرفض بشدة إشرافها على الانتخابات المبكرة، فيما يرفض التيار الصدري تولي أي شخصية محسوبة على الإطار التنسيقي الحكومة.

المبحث الثاني: أزمة الثقة بين التيار والقوى المدنية

ليس هناك اختلاف في المطالب التي رفعتها القوى والشخصيات المدنية، والأحزاب التشرينية، وتنسيقيات الاحتجاجات، عن المطالب التي يرفعها التيار الصدري في اعتصامه، والتي يمكن تلخيصها بحل مجلس النواب وإجراء انتخابات جديدة وفتح ملفات الفساد ومحاكمة الفاسدين، لكن من المستبعد انضمامهم الى الاعتصام. حيث تنظر القوى المدنية الى التيار الصدري واحتجاجاته بعين الشك والريبة. وقد حملت بيانات عدد من بيانات وتصريحات القوى المدنية والأحزاب التشرينية عددا من الاطروحات تعكس مواقفهم من التنسيق مع التيار الصدري والاسهام معهم في الاعتصام:

الاطروحة الأولى: انها خصومة بين المالكي والصدر ولا شأن لنا بها.

الاطروحة الثانية: انه صراع مصالح بين الطرفين لا مصلحة عامة فيه.

الاطروحة الثالثة: أزمة ثقة حصلت بعد ان كان هناك تعاون وتنسيق ابان أعوام 2015 لغاية 2018، ثم تحولت العلاقة الى خصام بعد ان كان وئاما، وذلك لموقف التيار من الانتفاضة الذي وقف بالضد منها بعد أن كان في البداية مشاركا وسندا لها.

الاطروحة الرابعة: يطالب أصحابها بضمانات من السيد مقتدى الصدر، تمهد للاشتراك مع أنصاره في الاحتجاجات.

الاطروحة الخامسة: ترى ضرورة ان يوجه الصدر دعوة للقاء القوى المدنية والتباحث معها قبل الاسهام بالاعتصام.

الاطروحة السادسة: المطالبة من التيار بموقف صريح من التعديلات الدستورية، والتي تطال شكل النظام وتحويله الى رئاسي، كشرط للانضمام معه في الاعتصام.

الاطروحة السابعة: لا تعامل بالمطلق مع جماعات الإسلام السياسي التي تتقاطع رؤاها مع الاتجاهات العلمانية والمدنية بالنسبة للحريات والحقوق.

الاطروحة الثامنة: المركزية التي يدير بها الصدر أنصاره في الاحتجاجات، وطاعتهم له، لا تسري على القوى المدنية والتشرينية، ما يتطلب التباحث حول الطريقة التي تناسب الأطراف.

الاطروحة التاسعة: ترى انه من الخطأ الدخول مع التيار الصدري، وتقويته على خصومه، لأنه في حالة انتصاره، سيستأثر بالسلطة ويتفرد لها.

الاطروحة العاشرة: هدف التيار

الصدري تقليص دور خصومه وليس التغيير الشامل.

الاطروحة الحادية عشرة: سرعان ما يقف التيار الصدري مع النظام مدافعا عنه إذا استشعر انهياره.

الاطروحة الثانية عشرة: التعامل بوسطية، لا نقد ولا تأييد، رغم الاتفاق مع المطالب والاهداف التي يطرحها الصدر.

الاطروحة الثالثة عشرة: التريث والانتظار، لحين التأكد من استمرار الاعتصام وجدية الأهداف.

عند النظر الى ما تقدم نجد انه ليس هناك رؤية موحدة للقوى المدنية في شأن تعاملها مع التيار الصدري، لذا هم لم يساندوا الاعتصام المستمر لغاية كتابة هذا المادة. يعود هذا الى طبيعة القوى المدنية ذات الرؤى المتعددة، حيث لم توحد موقفها، كما انه ليس هناك إطار جامع يلزمها باتخاذ الموقف المشترك. ومن خصائصها تستند على مبدأ توفير القناعة لكل أعضائها ومناصريها، ما يتطلب وقتا طويلا وجهدا كبيرا. وهناك أحزاب تشرينية انقسمت قياداتها على عدد من وجهات النظر بحيث يصعب عليها اتخاذ موقف موحد، وليس لها خبرة في إدارة الصراع الداخلي، على عكس البنية التنظيمية للتيار الصدري التي تستند في تحشيدها على الطاعة. كما ان ''التشارنة'' ليس بناء تنظيميا واحدا، وليس حزبا واحدا ولا تنسيقية واحدة، بل الاغلب الاعم منهم مستقلون لم ينتموا للأحزاب والتنسيقيات. كما لا يمكن اهمال الاختراقات التي تعرضت لها بعض الأحزاب من قبل طغمة الحكم، الى جانب ضغط بعض المسؤولين في الحكومة والأجهزة الاستخبارية على بعض الشخصيات القيادية، وكذلك خضوع البعض لقرار ممول الحركة او الحزب، من جانب آخر، تأثير مرارات الخسائر البشرية وحملات التشويه والارهاق واوجاع الانتفاضة وتشرد البعض والملاحقات التي تعرضوا لها، كل ذلك وغيره تستحضره ذاكرتهم وتمنعهم من خوض احتجاجات غير واثقين من مآلها. مع كل ذلك هناك شخصيات قد اشتركت فعلا بالاحتجاجات الصدرية، لكنها لا تشكل نسبة كبيرة، ولم يكن حضورها لافتا ومؤثرا.

وبالعودة لمناقشة الاطروحات سالفة الذكر، يمكننا القول: لا تستطيع أي منظومة سياسية النأي بنفسها عن الصراع، فصراع بهذا الحجم والكيفية التي يجرى بها، حيث امتد من الانتخابات الى قبة مجلس النواب وصولا الى الشارع، ولفترة تجاوزت العام، لا يمكن لاحد ان يتجنبه، سيؤثر على القوى المدنية، بشكل مباشر او غير مباشر. اما حول طلب الضمانات، فيبدو كأنه هو طلب الطرف الضعيف، الضمانة هي الاعتماد على الذات، وتنسيق مواقف وجهود القوى المدنية، والتواجد في ساحات الكفاح ومواصلته، ورفع المطالب بشكل واضح والتمسك بالمشروع. اما حول موضوع المصالح، الصراع السياسي فهو صراع على المصالح، وهذا ليس اكتشافا جديدا؛ القوى المدنية تنطلق في نشاطها لتمثيل مصالح عامة، وواجبها خوض الصراع وتعميقه، وتحويله الى صراع لمصلحة الشعب وتطلعه بالعيش الامن والكريم. اما في ما يخص تصنيف

التيار الصدري، كإحدى جماعات الإسلام السياسي، ويهدف الى إقامة نظام إسلامي على غرار النموذج الإيراني، فيبدو هذا الموضوع مستبعدا على المدى المنظور، وغير ممكن تحقيقه، لعدة أسباب، لا مجال للإحاطة بها هنا بشكل واسع، إذ يتطلب فحص النظام الإيراني إثبات مدى مواكبته لروح العصر، غير انه يتعرض لاهتزازات واضحة، منها الاحتجاجات الشعبية التي تنطلق بين فترة وأخرى، الى جانب الأزمة الاقتصادية والمعيشية التي أرهقت الشعب الإيراني وأنهكت النظام، غير صراعه الإقليمي والدولي وكلفة ذلك على الميزانية. كما تجدر الإشارة إلى اختلاف بنى وطبيعة الشعبين وتاريخهما، والقوى السياسية الفاعلة، واختلاف شكل النظامين السياسيين وفلسفتهما.

من جهة أخرى، أن الوقوف على التل والوسطية في ظل احتدام الصراع هو موقف انتهازي، لا يليق بالقوى التي تدعي امتلاك رؤية واضحة ومشروع متكامل، ولا يعني هذا الانضمام للتيار الصدري، وإنما الكفاح بالطريقة تبرز أهدافها، وتؤكد على مطالبها، مع وضوح لونها. ان ساحة الاحتجاج غير محصورة في قاعة مجلس النواب وحولها في مقتربات المنطقة الخضراء، ولا يقتصر أسلوب الاحتجاج على الاعتصام، يمكن للتيار المدني ومعه تنسيقيات الاحتجاجات، ان تجد ساحتها وتختار اسلوبها، وتتمسك بمشروعها، وترفع مطالبها (16).

مع كل ذلك لم تقف القوى المدنية مكتوفة الايدي، بل قامت بعدد من الأنشطة النوعية منها الدعوى القضائية التي اقامها المنسق العام للتيار الديمقراطي العراقي زهير ضياء الدين، يوم الثلاثاء 19 نيسان 2022، أمام المحكمة الاتحادية ضد رئيس مجلس النواب اضافة لوظيفته، لعدم تطبيق المجلس المادة الدستورية، التي تلزمه انتخاب رئيس الجمهورية خلال ثلاثين يوما من تاريخ اول جلسة يعقدها، كي يقوم هذا الرئيس بتسمية رئيس الوزراء الجديد وتكليفه تشكيل الحكومة، جاءت كمبادرة في سياق جهود القوى المدنية للخروج بالبلاد من الانسداد السياسي والقانوني، الذي ادخلت طغمة الحكم المنظومة السياسية فيه. وسبق للقاضي هادي عزيز علي ان دعا المحكمة الاتحادية العليا الى المبادرة لاعتماد الفقرة (اولا) من المادة (59) من الدستور لتحقيق نصاب مجلس النواب. حيث ان المادة تنص على انه (يتحقق نصاب انعقاد جلسات مجلس النواب بحضور الاغلبية المطلقة لعدد أعضائه)، كذلك تفعيل الفقرة (2) من المادة (70) التي تقول: (اذا لم يحصل اي من المرشحين على الاغلبية المطلوبة يتم التنافس بين المرشحين الحاصلين على اعلى الاصوات ويعلن رئيساً من يحصل على اكثرية الاصوات في الاقتراع الثاني). كما نظمت اللجنة المركزية للاحتجاجات، وقفة احتجاجية يوم الجمعة 5 آب 2022، في ساحة النسور، طالبت بتغيير شكل النظام السياسي لرئاسي أو شبه رئاسي، واسترجاع أموال العراق المنهوبة ومحاسبة الفاسدين ومحاكمة المتورطين بسفك الدم العراقي [17].

وسبق للجنة ان أصدرت بيانا في 3 آب 2022، طالبت زعيم التيار الصدري

مقتدى الصدر بتقديم ضمانات مقابل الانضمام الى الاعتصام. فيما نظمت قوى التغيير تظاهرة يوم 12 آب، وقد جاء في بيان التظاهرة (ضرورة حل مجلس النواب العاجز، واجراء انتخابات حرة ونزيهة في ظرف عام واحد، بشرطها وشروطها "قانون انتخابي عادل، مفوضية مستقلة، تطبيق قانون الأحزاب".. انتخابات تعكس التمثيل الحقيقي لإرادة العراقيين. وان اي عودة الى النهج الفاشل في الحكم.. فأن العراقيين المكتوين بنار الازمات.. لهم القول الفصل وإليهم يعود القرار) [18].

وقد سبق لقوى التغيير المكونة من 12 حزبا وحركة مدنية، ان اصدرت بيانا في 2 آب 2022، تضمن الدعوة الى حل مجلس النواب، وتشكيل حكومة تحظى بقبول سياسي وشعبي، ومحاسبة قتلة المتظاهرين والكشف عن مصير الناشطين المغيبين، وتحريك ملفات الفساد الكبرى وتقديم الفاسدين للعدالة واتخاذ اجراءات ملموسة لحصر السلاح بيد الدولة، والاستفادة من الفائض المالي في تحسين معيشة العراقيين [19].

الاستنتاجات

ما تقدم يتيح لنا تقديم عدد من الاستنتاجات وهي:

1. يكشف الصراع الجاري ان الديمقراطية وتبني آلياتها هما آخر ما يخطر على بال طغمة الحكم، السلطة وامتيازاتها هي ما يشغل بالها.

2. وصل مسار العملية السياسية، إلى طريق مسدود، يستحيل إصلاح النظام المتهالك، بمنهج المحاصصة ذات الذي تنتهجه طغمة الحكم، لذا لا بد من عملية جديدة تعتمد المواطنة أساسا، وان تطلب ذلك إجراءات استثنائية، حتى وان لم تجد غطاءً دستوريا كافيا، فبعض مواد الدستور اصبحت معرقلة واسهمت في الانسداد السياسي.

3. للصراع بعد طبقي واضح، إذ تمكنت طغمة الحكم من بناء طبقة اجتماعية مترفة اغتنت من مال الفساد، وتعيش في مجتمع مخملي، حيث سيطرت على قطاع المال والخدمات، اغتنت على حساب طبقات وشرائح اجتماعية مسحوقة من سكنة العشوائيات وعاطلين عن العمل ومحرومين، وفقراء آخرين من بينهم منتسبو الدرجة السابعة في المؤسسات الحكومية، الذين صاروا ضمن الفئات الاجتماعية التي تعيش على حافة خط الفقر.

4. الكف عن الرهان على اصلاح الأوضاع من قبل طغمة الحكم، ووهم التغيير في هرم السلطة وتوازنات ركائزها، انما الرهان على تغيير موازين القوى لصالح الإصلاح والتغيير.

5. حلّ مجلس النواب ليس هو الهدف، بل انه ضرورة كمدخل لحل ازمة الحكم التي تشكل مفتتح تغيير بنية النظام السياسي وإصلاح وظائفه.

6. تشكيل حكومة مؤقتة بمهمات وصلاحيات استثنائية، بعيداً عن نهج الطائفية السياسية ونظام المحاصصة المقيت وان لا تتسرب لها منظومة الفساد، تستند على القرار الوطني العراقي المستقل، تؤسس للعدالة الاجتماعية وتبني مسارها وترسخ نهجها الوطني.

7. امام الحكومة، مهمتان اساسيتان، واجبتا التنفيذ دون ابطاء، وعلى وجه السرعة؛ الأولى هي اجراء التعديلات الدستورية، والأخرى هي الانتخابات المبكرة. وسنة واحدة كافية لتنفيذ هاتين المهمتين الأساسيتين.

8. المحاكمة العلنية للفاسدين ومن بددوا ثروات العراق، ومحاكمة القتلة، وحصر السلاح بيد الدولة، وانهاء هيمنة المليشيات والعصابات المسلحة، هي أولويات غير قابلة للتأجيل.

9. لم يعد مفهوما بقاء قوى التغيير مشتتة، وهي المتصدية لمطالب الشعب العامة البعيدة عن المصالح الشخصية وعن الانانية والحزبوية الضيّقة.

10. الوضع المعيشي وتحسينه مطلب ملح والعدالة الاجتماعية هي العنوان الاساسي لكفاح الحركة الاجتماعية، في ظل اتساع الفجوة الطبقية بين تحالف طغمة الحكم وحيتان الفساد من جهة، والطبقات الاجتماعية التي يحاصرها الفقر والعوز.

11. المتوقع هو اندلاع الفعل الاجتماعي، بانطلاق احتجاجات جديدة، حيث ان العوامل التي أدت الى اندلاع الانتفاضة قبل سنتين ما زالت قائمة بل وأضيفت اليها عوامل أخرى، مثل تصاعد مؤشرات الفقر والبطالة وغلاء الأسعار وتفاقم الأوضاع المعيشية الذي اشتد بعد رفع سعر صرف الدولار على حساب الدينار.

(بغداد في 20 - 8 - 2022)

هوامش

1. بيان وزارة التخطيط، في 6 تموز 2022.
2. ينظر الى تقرير البنك الدولي، https://www.albankaldawli.org/ar/country/iraq/overview
3. جاسم الحلفي، الحركة المطلبية.. قول بليغ وفعل غاضب، جريدة طريق الشعب، العدد 48، 12 أيار 2022، ص 2.
4. مقتدى الصدر، تغريدة في 27 تموز 2022
5. صالح محمد العراقي في 28 تموز 2022
6. ازمر احمد مراسل العراق الحر، لقاء مع الباحث في 5 اب 2022
7. بيان وزارة الصحة العراقية في 30 تموز 2022
8. بيان الإطار التنسيقي في 30 تموز 2022
9. علي عبد الأمير علاوي وزير المالية، خطاب استقالة وزير المالية في 16 أب 2022.
10. الدستور العراقي، المادة 64.
11. وكالة انباء المدى يوم 16 اب 2022
12. جريدة طريق الشعب، راصد الطريق، العدد 855 في 17 شباط/فبراير 2022
13. علي عبد الأمير علاوي، مصدر سبق ذكره.
14. علي عبد الأمير علاوي، مصدر سبق ذكره.
15. ابراهيم المشهداني، الاقتصاد العراقي بين فكي كماشة، جريدة طريق الشعب، العدد 47، الاثنين 24 كانون2/ يناير 2022، ص 6
16. رائد فهمي في 10 اب 2022، تصريح عبر قناة الشرقية
17. بيان اللجنة المركزية للاحتجاجات.
18. بيان تظاهرة ساحة الفردوس في 12 اب 2022
19. بيان قوى التغيير في يوم 2 اب 2022

الزراعة المحمية في محافظة الأنبار

هندي حامد الهيتي

المقدمة:

إنّ ازدياد عدد سكان الكرة الأرضية ومحدودية الأراضي الصالحة للزراعة وفي احيان كثيرة تناقص هذه الاراضي لأسباب عديدة جعل الانسان يلجأ الى ايجاد حلول وبدائل علمية تحقق وفرة في الانتاج الزراعي لإعادة التوازن وسد النقص في الموارد الغذائية التي يحتاجها في ديمومة حياته على هذا الكوكب. لقد تطورت وسائل زيادة انتاجية المحاصيل الزراعية مع ازديادة الحاجة للغذاء باستخدام تقنيات التطور العلمي والتي بدأت بتقنيات استصلاح الاراضي ومنع تدهورها واستخدام الاسمدة لسد النقص الحاصل في نسبة العناصر الغذائية نتيجة الاستخدام المستمر للأرض، واخيرا ادخل الانسان تقنية الهندسة الوراثية لغرض زيادة انتاجية المحصول واستنباط محاصيل معدلة وراثيا تعطي انتاجا عاليا وتقاوم الظروف الجوية والبيئية مثل محاصيل مقاومة للجفاف لسد النقص في مياه الري ومحاصيل تتحمل ملوحة التربة المتزايدة بسبب سوء ادارة التربة وبسبب التغيرات المناخية وغيرها من التقنيات التي يحتاجها الانسان لغرض الحفاظ على امنه الغذائي. واخيرا ابتكر الانسان تقنية جديدة لانتاج المحاصيل الزراعية، بعيدا عن الظروف الجوية

المناسبة التي تحتاجها تلك النباتات من درجة حرارة واشعة الشمس والرطوبة وغيرها من عوامل الانبات حيث بدأ يستخدم وسائل وتقنيات توفر الظروف البيئية التي يحتاجها المحصول لغرض الانبات والانتاج فكانت تقنية الزراعة المحمية التي هي من التقنيات الحديثة في التكثيف الزراعي لإنتاج المحاصيل الزراعية في غير موعدها واوقات انباتها ونموها من خلال تغطية سطح التربة والنبات لحمايتها من العوامل المناخية غير الملائمة مثل درجة الحرارة والضوء ونسبة غاز ثاني أوكسيد الكاربون والرطوبة النسبية وغيرها. وتطبيق هذه التقنية باستخدام الوسائل العلمية الصحيحة يحقق عائدا اقتصاديا للمنتجين. ويزيد إنتاج المتر المربع الواحد من الزراعة المحمية 3 – 4 مرات عن الزراعة المكشوفة. وتعتبر نباتات الخضر التابعة للعوائل الباذنجانية والقرعية مثل الخيار والطماطة والباذنجان

والفلفل من اكثر النباتات التي تزرع في البيوت البلاستيكية. بدأ استخدام هذا النوع من الزراعة في عام 1945 - 1955 في الولايات المتحدة ثم تطورت حتى بلغت مساحة الاراضي المزروعة بالبيوت والانفاق البلاستيكية في العالم حوالي 251 ألف هكتار أي ما يعادل مليون دونم وقد احتلت اليابان الدرجة الاولى على دول العالم في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي بمساحة 370 ألف دونم، وجاءت ايطاليا بالدرجة الثانية بمساحة أكثر من 121 ألف دونم، وتأتي فرنسا بالدرجة الثالثة 103 آلاف دونم ثم تأتي بلغاريا واليونان بالدرجتين الرابعة والخامسة بمساحة 53 و43 ألف دونم على التوالي ثم تأتي الدول الاخرى بعده[1]. اما في العراق فقد بدأ استخدام الزراعة المحمية في سبعينات القرن الماضي لكنها فشلت بعد انسحاب الشركات الاجنبية التي كانت تدير تلك المزارع. وبعد ازدياد الطلب على الخضراوات وزيادة الوعي لدى المزارع العراقي عادت الزراعة المحمية الى الواجهة وبدأت بالانتشار والتوسع خاصة بعد المبادرة الزراعية التي اطلقتها الحكومة العراقية لدعم القطاع الزراعي بفتح باب تقديم القروض لتشجيع الفلاحين على انشاء المشاريع الزراعية المختلفة والتي بدأت في عام 2008 وبمبلغ اولي قدره خمسائة مليون دولار. والان تلعب الزراعة المحمية دورا كبيرا في توفير الخضراوات لسد حاجة السوق وتشغيل الايدي العاملة ودعم الايرادات الوطنية لرفد الاقتصاد الوطني الذي يحتاج الى زيادة الانتاج المحلي وتقليل استيراد المحاصيل الخضرية.

الزراعة المحمية في محافظة الانبار:

لقد عرف الفلاح الانباري الزراعة المحمية بأبسط صورها ومارسها في انتاج محاصيل الخضر قبل مواعيدها المعروفة وذلك باستخدام ما يسمى زراعة "الداية المغطاة" حيث تزرع بذور بعض الخضراوات مثل الطماطة والباذنجان والفلفل قبل انتهاء فصل الشتاء في احواض من التربة تغطى بالقش او السماد الحيواني او بأغطية بلاستيكية لحماية التربة والبذور والبادرات (النباتات الصغيرة بعد الانبات مباشرة) من الصقيع واجواء البرد الليلية ثم تنقل النباتات الى مكانها الثابت بعد نموها لعمر يمكنها من النمو بشكل طبيعي، وعادة يكون النبات ذا ورقتين كاملتين وتكون درجات حرارة الجو قد اصبحت ملائمة لإكمال النبات دورة حياته، بعد ذلك استخدمت المظلات الخشبية والبيوت الزجاجية لإنتاج نباتات الزينة وبعض بادرات الخضر، ثم انتقل المزارعون الانباريون لاستخدام ما يسمى "الزراعة المغطاة" وهي شكل بدائي للأنفاق البلاستيكية حيث تزرع بذور النباتات قبل موعدها وقبل توفر الاجواء المناسبة للزراعة تحت غطاء من القش او سعف النخيل او الاغطية البلاستيكية ترفع بواسطة اغصان الاشجار ليلا لتكشف في النهار لغرض تعرضها لأشعة الشمس انتشر استخدامها في تسعينات القرن الماضي بعد توفر النايلون البلاستيكي في الاسواق المحلية بأسعار مناسبة الى ان وصلت الى استخدام الانفاق البلاستيكية الحديثة والبيوت البلاستيكية المتطورة تكنولوجيا بمساحات واسعة ذات انتاجية

عالية. والبيت البلاستيكي هو عبارة عن أقواس إما حديدية أو من القصب يوضع عليها غطاء من النايلون ويحكم بحيث لا يسمح بدخول الهواء داخل البيت ويتم توفير درجة حرارة مناسبة باستخدام وسائل تكيف مناسبة واغلب هذه البيوت تستخدم الري بالتنقيط وتختلف البيوت البلاستيكية بإبعادها حسب نوع المحصول أو حسب إمكانية صاحب المزرعة. إما الانفاق البلاستيكية فهي عبارة عن مروز (كتف بين صفوف المحاصيل تليه ساقية ينساب منها الماء) تغطى بأقواس من الحديد ويوضع عليها النايلون كغطاء لمنع دخول الهواء.

انتشرت الزراعة المحمية في المحافظة بشكلها الانتاجي الواسع بعد 2003 بتشجيع من منظمات المجتمع المدني متخصصة بالجانب الزراعي وتشغيل الايدي العاملة في قرى المحافظة حيث قامت هذه المنظمات بتوزيع ونصب بيوت بلاستيكية وتدريب المزارعين وخاصة الشباب منهم في مناطق مختلفة من مدن وقصبات المحافظة ثم توسع استخدام الزراعة المحمية بعد اطلاق المبادرة الزراعية من قبل الحكومة الاتحادية بعد عام 2007 وتقديم القروض الميسرة للفلاحين الراغبين في إقامة مشاريع زراعية بكل انواعها ومنها اقامة البيوت البلاستيكية. وبعد ان عرف الفلاح الانباري جدوى العمل والاستثمار في هذا المجال وزادت خبرته في ادارة الزراعة المحمية، اقدم العديد منهم على اقامة بيوت بلاستيكية استخدمت لإنتاج المحاصيل الصيفية في اوقاتها المعتادة وفي غير اوقات زراعتها. وتشكل الخضر الصيفية مثل الطماطة والخيار والفلفل والقرع والفاصوليا اهم المحاصيل الخضرية التي تزرع في البيوت والانفاق البلاستيكية وهذه الانواع من الخضر يحتاجها الانسان بغذائه اليومي وعلى مدار السنة، ويستهلك منها كميات كبيرة بأشكالها الطازجة او المصنعة، الامر الذي شجع المزارع والفلاح الانباري على زراعة وانتاج هذه المحاصيل باستخدام الزراعة المحمية التي تتميز عن الزراعة الطبيعية بالعوامل الاتية:

1- توفير الجو المناسب لانتاج المحاصيل طوال العام وامكانية الانتاج وتسويق المحاصيل في غير مواسم انتاجها المتعارف عليه حيث يكون التسويق باسعار مشجعة وتحقق ارباح مادية عالية.

2- توفير في المساحة المزروعة

3- انتاج شتلات ومحصول عالي الجودة خال من الاتربة والامراض.

4- توفير في الايدي العاملة وفي المياه باستخدام الري بالتنقيط.

5- رغم ارتفاع تكلفة انتاج المحاصيل الزراعية في البيوت المحمية عموما والتي تزيد على مثيلتها في الزراعة المكشوفة لكنها تحقق عائدا اقتصاديا مجديا للمستثمرين وذلك لارتفاع كمية الانتاج في الزراعة المحمية عن مثيلتها في الزراعة المكشوفة بنسب مشجعة تصل بمقدار 7 - 10 مرات عن مثيلتها في الزراعة المكشوفة حسب دراسات قامت بها جامعة الانبار، وندرج في ادناه جدولا يوضح الفروقات في الانتاج بين الزراعة المحمية والزراعة المكشوفة في محافظة الانبار لاهم المحاصيل المنتشرة زراعتها في كلا الاسلوبين:

جدول رقم (1) الفرق بين انتاج المتر المربع لبعض المحاصيل باستخدام الزراعة المحمية والمكشوفة

المحصول	الزراعة المحمية /م2	الزراعة المكشوفة/م2
الطماطة	18 كغم	2 – 3 كغم
الخيار	17 كغم	3 كغم
الباذنجان	3 – 6 كغم	2 كغم
الفلفل الأخضر	4 – 6 كغم	2 كغم

الجدول من اعداد معاذ محي العبدلي، كلية الزراعة جامعة الانبار [2]

ورغم الميزات الايجابية للزراعة المحمية الا اننا نلاحظ محدودية انتشارها وعزوف الكثير من الفلاحين عن ممارستها وقد بقيت محصورة في مجموعة صغيرة منهم حيث تشير الاحصائيات الى ان اجمالي المساحة المزروعة بالبيوت البلاستيكية في المحافظة بلغ (281.5) دونم، واجمالي المساحة المزروعة بالانفاق البلاستيكية كان (2482) دونما لعام 2020 حسب احصائيات وزارة الزراعة وهي مساحة صغيرة لا تشكل اكثر من (0.4 %) من مجموع المساحة المزروعة في المحافظة لنفس السنة والبالغة (664840) دونما حسب نفس المصدر .علما ان المساحة المستخدمة في الزراعة المحمية لعام 2013 كانت (630 دونما) من مجموع المساحة المزروعة فعلا في المحافظة. وان عدد البيوت ومالكيها غير مستقر ومتذبذب من سنة الى اخرى لاسباب سنذكرها لاحقا كما يتبين من الجدول رقم (2).

جدول رقم (2) اجمالي الانفاق والبيوت البلاستيكية وعدد مالكيها من عام 2011 لغاية 2020

السنة	اعداد مالكي البيوت البلاستيكية	اجمالي اعداد البيوت البلاستيكية	اعداد مالكي الانفاق الزراعية	اجمالي اعداد الانفاق الزراعية
2011	1729	3128	1345	372260
2012	453	1195	1580	238767
2013	1318	2914	2809	378930
2016	680	1210	1321	275249
2018	182	522	1446	8771
2019	328	933	698	201286
2020	535	1228	1166	119032

الجدول من اعداد الباحث استنادا إلى احصائيات قسم الاحصاء في وزارة الزراعة [3].

وقد انتشرت البيوت والأنفاق البلاستيكية في جميع اقضية المحافظة بأعداد مختلفة كما تظهر بالجدول رقم (3). الذي يظهر تباينا كبيرا في عدد البيوت المقامة حسب اقضية وقصبات المحافظة.

جدول رقم (3) توزيع البيوت البلاستيكية حسب اقضية المحافظة

القضاء	عدد البيوت	النسبة المئوية
الرمادي	896	30.7
هيت	531	18.2
الفلوجة	467	16
حديثة	387	13.2
الرطبة	278	9.5
القائم	256	8.7
عنه	63	2.1
راوة	36	1.2
المجموع	2914	100

المصدر: وزارة الزراعة، مديرية زراعة محافظة الانبار، التخطيط والمتابعة، بيانات غير منشورة، 2014.

وتعود أسباب هذا الاختلاف الى عوامل عدة اهمها توفر الاراضي الملائمة للزراعة المحمية ونوع التربة الصالحة وتوفر الايدي العاملة وحاجة الاسواق القريبة لمثل هذه الخضر والبيئة الاجتماعية لمدن المحافظة. وقد اختلفت المساحات المستخدمة في الزراعة المحمية من منطقة الى اخرى في المحافظة. اما مساحات البيوت البلاستيكية ومساحة الاراضي المقامة عليها هذه البيوت فكانت كما يلي:

جدول رقم (4) مجموع البيوت البلاستيكية ومعدل مساحة البيت الواحد حسب اقضية المحافظة [4]

القضاء	معدل مساحة البيت الواحد	مجموع مساحة البيوت/بالدونم	النسبة المئوية
الفلوجة	537.5	135	21.4
الرمادي	478.5	206	32.6
هيت	509.5	88	13.9
حديثة	501.5	79	12.5
عنه	500	13	2
راوه	500	3	0.4
القائم	498.5	51	8
الرطبة	476.5	55	8.7
المجموع	500.2	630	100

وتتوزع الزراعة المحمية في محافظة الانبار تبعا للجهة المنفذة والداعمة لها حيث يتضح ان الزراعة المحمية المدعومة من قبل القطاع الحكومي هي الاعلى من الزراعة المحمية المقامة بالدعم الذاتي للمزارعين او المستثمرين عن طريق تقديم القروض الزراعية للمزارعين حيث بلغ عدد البيوت البلاستيكية المدعومة من قبل المصرف الزراعي (2336) بيتا، اي بنسبة 86 % وبلغ عدد البيوت البلاستيكية المقامة على النفقة الخاصة للمزارعين (560) بيتا، وهناك بيوت اقيمت بمشاركة اخرين بلغ عددها (18) بيتا.

وقد استخدمت هذه البيوت في زراعة وانتاج محاصيل مختلفة وعلى مدار السنة، يحتاجها المستهلك الانباري والعراقي بكميات تسد حاجة السوق المحلية وتفيض عن حاجة سوق المحافظة في بعض المواسم، واهم الخضر والمحاصيل التي تزرع في البيوت والانفاق البلاستيكية في المحافظة هي الخيار والطماطة والشجر والباذنجان والفلفل والباميا والباقلاء والفاصوليا. والجدول الاتي يوضح انواع الخضر المزروعة باسلوب الزراعة المحمية في محافظة الانبار لعام 2012:

جدول رقم (5) المحاصيل المزروعة تحت البيوت البلاستيكية والانفاق في محافظة الانبار وعدد البيوت والانفاق وكمية الانتاج لعام 2012

اسم المحصول	اعداد البيوت	المساحة الاجمالية (دونم)	الغلة كغم/دونم	الانتاج بالطن	اعداد الانفاق	المساحة الاجمالية (بالدونم)	الغلة كغم /دونم	الانتاج بالطن
الخيار	1829	330	13733	4532	31345	808	4040	3264
الطماطة	342	62	13258	822	1788	80	5350	428
الباذنجان	194	35	13457	471	16783	420	3214	1350
الشجر	24	4	7250	29	17378	441	2601	1147
الفلفل	35	6	1000	6	125	6	3167	19
الباميا	2	0.4	1000	0.4	50	1	700	0.7
الباقلاء	0	0	0	0	0	0		0
فراولة	9	1.6	875	1.4	0	0	0	0

الجدول من اعداد الباحث استنادا إلى وزارة الزراعة ومديرية زراعة الانبار.

ان هذا التوسع في الزراعة المحمية الذي جاء على خلفية الدعم الحكومي واطلاق المصرف الزراعي قروضا مالية ميسرة استغلها المزارعون في انشاء مشاريع زراعية واسعة منها الزراعة المحمية وقد وفرت لاسواق المحافظة في سنوات (2010 الى 2013) وفرة في كثير من المحاصيل زادت عن حاجة السوق المحلية، مما ادى الى انخفاض اسعار كثير من الخضر ما تسبب في خسائر مادية لاصحاب البيوت والانفاق البلاستيكية، نتيجة لعدم وجود خطط تسويقية معدة سلفا، ما سبب هذا العامل وعوامل اخرى تراجعا في عدد البيوت والانفاق البلاستيكية في السنوات اللاحقة. وندرج ادناه جدولا يوضح عدد البيوت والانفاق المستخدمة في زراعة المحاصيل المختلفة لعام 2020 في المحافظة.

جدول (6) المحاصيل المزروعة تحت البيوت البلاستيكية والانفاق في محافظة الانبار وعدد البيوت والانفاق وكمية الانتاج لعام 2020

اسم المحصول	اعداد البيوت	المساحة الاجمالية (دونم)	الغلة كغم/دونم	الانتاج بالطن	اعداد الانفاق	المساحة الاجمالية (بالدونم)	الغلة كغم /دونم	الانتاج بالطن
الخيار	851	190.4	6717.4	1279	39745	989	2498.5	2471
الطماطة	141	29.8	7483.2	223	32872	940	2420.2	2275
الباذنجان	122	28	7321	205	23964	313	1996.8	7092
الشجر	42	12.3	8640	54	19882	151	2009.9	303.5
الفلفل	60	17	3118	53	1610	57	2284.2	130.2
الباميا	7	2	1667	2.5	912	29	758.6	22
الباقلاء	4	1.3	16279	21	20	1	2000	100
الفاصوليا	1	1.5	1000	0.5	27	2	1250	2.5

الجدول من إعداد الباحث استنادا إلى وزارة الزراعة ومديرية زراعة الانبار.

تشير الاحصائيات الواردة في الجدولين اعلاه الى تدهور كبير وتراجع في عدد البيوت والانفاق لاغلب المحاصيل خلال العشر سنوات الأخيرة، ما يستدعي الوقوف على اسبابها ودراستها ووضع الحلول لها خاصة ونحن مقبلون على سنوات عجاف، ستنخفض فيها المنتوجات الزراعية على المستوى العالمي لاسباب سياسية وبيئية ومناخية. ان مساهمة الزراعة في محافظة الانبار لاغلب المحاصيل تشكل نسبة اقل من 10 % من الناتج الاجمالي

على مستوى العراق في احسن الاحوال ويعود السبب الى ان اغلب اراضي المحافظة هي عبارة عن صحراء ممتدة على مساحات واسعة تفتقر الى مصادر المياه الكافية للزراعة، وان مناخها غير مناسب لزراعة الكثير من المحاصيل فهو بارد الى تحت درجة الانجماد في اغلب فصول الشتاء وقليل الامطار لسنوات متتالية، وصيفها حار جدا تتجاوز فيه درجة الحرارة 50 مئوية او تزيد، مما يجعل انشاء مزارع على الطرق التقليدية المكشوفة شيئا من المحال، لذا يستوجب ايجاد بدائل زراعية وطرق ري حديثة تكون حلا لمشكلة شحة المياه في المناطق الصحراوية وفي عموم المحافظة بسبب التغيرات المناخية المقبلة. ان الزراعة المحمية التي تستخدم الري بالتنقيط والانبات خارج الظروف المناخية ومتطلبات الانبات المعروفة حيث تتحكم بدرجة الحرارة هي الاسلوب الامثل لتوسيع الزراعة في محافظة الانبار لما تمتلكه من اراض وترب زراعية خصبة تكون مناسبة لهذا النوع من الزراعة. لهذه الاسباب وغيرها يجعلنا مجبرين على الذهاب الى توسيع الزراعة المحمية في المحافظة وتكثيف الدراسات العلمية للوقوف على اسباب عدم انتشار هذا النوع من الزراعة ووضع الحلول اللازمة لها. ورغم قيام الكثير من الباحثين من جامعة الانبار وخاصة كلية الزراعة بدراسة واقع الزراعة المحمية في المحافظة وتحديد بعض معوقاتها وتراجعها وعدم انتشارها بالشكل الذي يمكن الاعتماد عليها في توفير السلة الزراعية للسوق المحلية، الا ان هذه الدراسات ما زالت محدودة واغلبها بحوث تجرى لاغراض الشهادة والترقية العلمية دون قيام الجهات ذات العلاقة في المحافظة بالاستفادة من هذه البحوث وتحويلها الى واقع يقدم حلولا لمشكلات زراعية تواجه الفلاح الانباري المتروك وحده في ميدان التجربة والفشل دون إسناد ودعم علمي وتقديم المشورات والحلول.

ان اسباب محدودية انتشار الزراعة المحمية وتراجعها في المحافظة والتذبذب الحاصل في عدد البيوت البلاستيكية ومالكيها يعود الى جملة اسباب منها:

• الخراب والدمار الذي تعرضت له مدن المحافظة بعد احتلال العصابات الارهابية الذي ادى الى ترك اغلب المزارعين لمزارعهم التي هي الاخرى تعرضت للتدمير والخراب والسرقة وعدم توفر الامكانية المالية لأغلب الفلاحين في اعادة ما كانوا يملكون من بيوت وانفاق بلاستيكية، واغلب هؤلاء ما زالوا مديونين للمصرف الزراعي عن السلف التي سحبت من اجل اقامة هذه البيوت البلاستيكية، وما زال مصير التعويضات التي وعدوا بها من قبل الحكومة مجهول المصير، ما يجعل الاغلبية من الفلاحين غير مستعدين للتقديم على قروض زراعية جديدة، تمكنهم من اعادة نشاطهم باستخدام الزراعة المحمية.

• ارتفاع اسعار البيوت البلاستيكية وارتفاع التكاليف في الزراعة المحمية مقارنة بالزراعة المكشوفة، وهذا يمنع الكثير من المزارعين من الإقدام على خوض هذه التجربة وعدم توفر مستلزمات الزراعة المحمية مثل الاغطية البلاستيكية واجهزة التدفئة والتبريد واجهزة الري الحديثة وان توفرت فتكون بنوعيات رديئة واسعار مرتفعة.

• قلة توفير انواع الطاقة التي تحتاجها الزراعة المحمية وارتفاع اسعارها مثل النفط الابيض والكهرباء التي يحتاجها الفلاح لأغراض التدفئة والتبريد لهذه البيوت.

• قلة البذور والمبيدات التي تستخدم في الزراعة المحمية وارتفاع اسعارها تجاريا وعدم

توفر الاسمدة والمبيدات الخاصة بالزراعة المحمية.

• طبيعة المجتمع الريفي المحافظ الذي لا يتقبل التجارب الجديدة الا بعد فترة من الزمن قد تطول لجيل كامل. فقد تعود الفلاح الانباري ان ينتج في حقله معتمدا على المستلزمات المحلية التي تنتجها مزرعته من بذور واسمدة، وبجهوده الذاتية لهذا فهو لا يكترث كثيرا لكساد المحصول وعدم تسويقه لاي سبب كان.

• عدم استقرار اسعار الخضر بين المواسم بسبب عدم وجود تخطيط علمي في مديرية زراعة الانبار وفروعها حيث نجد اقبالا على زراعة محصول معين في موسم، وارتفاع اسعاره في السوق لينخفض السعر في موسم اخر بسبب زيادة المعروض، ما يؤدي الى خسائر مالية ويجعل الفلاح متخوفا من الخوض بتجربة الزراعة المحمية التي تتطلب استثمارا ماليا غير قليل لتجنب الخسائر المالية الكبيرة وعدم قدرته على استعادة ما صرف من اموال.

• فتح الاستيراد للخضر مما يقلل من الطلب على المنتوجات المحلية وهبوط اسعارها وعدم امكانية اعادة رأس المال المصروف.

• قلة الخبرة في ممارسة الزراعة المحمية واحتمالية عدم الوصول الى انتاجية عالية تضمن الربح المتوقع حيث تشير بعض الدراسات التي اعدت من قبل دوائر الارشاد الزراعي وجامعة الانبار الى ان نسبة الحاصلين على شهادات جامعية من العاملين في الزراعة المحمية لا تزيد على 2.7 % وهي ذات النسبة من خريجي المعاهد الفنية، و14.87 من حملة الشهادة الاعدادية. 18.92 % حاصلون على شهادة المتوسطة و32.43 % ابتدائية وما تبقى ونسبتهم 28.38 % ممن يقرأ ويكتب، وهذا مؤشر خطير لما هو معروف ان الزراعة المحمية تتطلب معرفة باستخدام التكنولوجيا الحديثة من ري واسمدة واختيار البذور وغيرها من الامور التي تتطلب معرفة علمية نوعا ما[5].

إن هذه الاسباب وغيرها تجعل الكثير من المزارعين يبتعد عن استخدام الزراعة المحمية التي لو شاء لها وتوسعت بشكل كبير لاستطاعت سد حاجة السوق المحلية للمحافظة والسوق العراقية وهنا تقع مسؤولية كبيرة على عاتق الحكومة الاتحادية والحكومة المحلية والدوائر المعنية في المحافظة في دعم الفلاحين الذين يمارسون هذا النوع من الزراعة وتشجيع بقية المزارعين على استخدام الزراعة المحمية عبر حزمة من الاجراءات واهمها:

* منع استيراد المحاصيل الزراعية التي تنتشر زراعتها في المحافظة والعراق.

* تقديم القروض الميسرة من قبل الدولة والدخول كشريك ضامن مع المزارعين ليطمئنوا على نجاح تجربتهم.

* انشاء بيوت بلاستيكية تدار من قبل الدوائر الزراعية باشراف المختصين في كل دائرة زراعية في مدن المحافظة، تكون نموذجية وتستقطب الفلاحين والمزارعين للاطلاع عليها وتلمس الفروقات بين الزراعة المكشوفة التي تمارس من قبل الفلاح وهذه الزراعة الحديثة التي تدر انتاجا وفيرا يزيد ثلاثة او اربعة اضعاف انتاج الطريقة التقليدية وانشاء البيوت والانفاق البلاستيكية من قبل الدوائر الزراعية في اراضي الفلاحين المترددين في الاقدام على اعتماد الزراعة المحمية كوسيلة للتدريب ولاقناع الفلاح بالجدوى الاقتصادية للزراعة المحمية. وكذلك تشجيع الباحثين وطلاب الدراسات الاولية والعليا على اجراء بحوثهم في مزارع الفلاحين كل حسب منطقة سكناه

لتدريب الفلاحين وتقديم حلول للمشاكل التي تواجههم. وان يكون هناك تنسيق بين مديريات الزراعة في الاقضية والنواحي وبين الكليات ذات العلاقة ومراكز البحث العلمي في جامعة الانبار والفلوجة لاعداد بحوث تعالج المشاكل الفعلية التي تواجه الفلاح، وليس كما هو الان في اختيار موضوع البحث اختيارا يعتمد على امور كثيرة منها تخصص الاستاذ المشرف وتوفر المصادر وغيرها.

* توفير العدد والمستلزمات التي تتطلبها الزراعة المحمية من اغطية البلاستك وهياكل البيوت وانظمة الري بالتنقيط او الري بالرش والبذور المحسنة والاسمدة والمبيدات التي يحتاجها الفلاح باسعار مدعومة وبقروض مؤجلة تدفع لحين تسويق المحصول.

* اقامة الجمعيات الفلاحية التي تتولى تدريب الفلاحين وتساعدهم في عمليات التدريب والاستزراع والتسويق.

* ضرورة تفعيل التخطيط الزراعي في مديرية زراعة المحافظة لمعرفة حاجة السوق من محصول معين وتحديد المساحات التي ستزرع من هذا المحصول في الموسم القادم وعدم ترك اختيار نوع المحصول والمساحات التي ستزرع للفلاح وحده دون تنسيق مع بقية الفلاحين في مختلف المدن، كي نتجنب الوقوع في فائض الانتاج لمحصول وشحة في محصول اخر، وتبعات هذا الارباك في احتمالية تعرض الفلاحين لخسارة مالية وحدوث شحة في محصول يجبر الدولة على فتح باب الاستيراد.

* تشجيع الاستثمار في الصناعة التحويلية لغرض سحب المحاصيل الفائضة عن حاجة السوق وادخالها كمواد اولية في الصناعة لتجنب هبوط اسعارها وتجنيب الفلاح خسائر مالية، مثل معامل صناعة معجون الطماطة ومعامل صناعة المخللات وصناعة المربى وغيرها من الصناعات التي تحمي المزارع من التخوف من عدم قدرته على تسويق محصوله وكذلك تشغيل الايدي العاملة.

* اننا في محافظة الانبار والعراق وربما المنطقة كلها معرضون الى شحة حقيقية في الغذاء قد لا تكفي مردودات تصدير النفط من توفير جزء يسير من حاجة المواطن، وعليه يتطلب وقفة جادة من كل الاطراف ـ حكومة محلية ودوائر زراعية وفلاحين ومستثمرين ـ من اجل وضع الخطط والبرامج العلمية التي تمكننا من انتاج محاصيل زراعية تكفي لسد حاجة البلد وتصدير الفائض الى الخارج، وهذا ليس مستحيلا ولا امنيات غير قابلة التحقيق، اذا ما توفرت شروط النجاح من تخطيط علمي ودعم مالي.

الهوامش:

1. قصي قاسم الكليدار "قياس الجدوى الاقتصادية للزراعة المحمية للخضر في الانفاق البلاستيكية ومقارنتها مع الزراعة الموسمية لنفس الخضر"، مجلة القادسية للعلوم الادارية والاقتصادية ،المجلد 14، العدد 2، 2012.
2. معاذ محي العبدلي، محاضرة مطبوعة حول هندسة الحدائق والخضر في جامعة الانبار.
3. قسم الاحصاء والقوى العاملة في وزارة الزراعة العراقية.
http://zeraa.gov.iq/index.php?name=Pages&op=page&pid=241
4. خالد اكبر عبدالله الحمداني، "التوزيع الجغرافي للزراعة المحمية في محافظة الانبار"، مجلة جامعة الانبار للعلوم الانسانية العدد 1، ايلول 2015.
5. اديب عبدالجبار الحديثي، "دراسة معرفة مزارعي البيوت البلاستيكية باساسيات الزراعة المحمية في قضاء هيت"، بحوث المؤتمر العلمي الرابع، مجلة الانبار للعلوم الزراعية، المجلد 12 عدد خاص.
https://www.iasj.net/iasj/download/011d99964c4bb904

الاشتراكية أو الانقراض
أزمة المناخ العالمية: وجهة نظر ماركسية

ثامر الصفار

منذ أن أطلق جيمس هانسن، مدير معهد غودارد لدراسات الفضاء التابع لوكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) وواحد من ابرز علماء المناخ في العالم، دراسته الموسومة «نقاط التحول» عام 2007، لم يكن ليمر يوم دون أن تتصدر موضوعتا الانحباس الحراري العالمي وأزمة المناخ العالمي عناوين الصحف. وحينها انتج آل غور فيلما وثائقيا عن تغير المناخ، شاهده مئات الآلاف في دور السينما في جميع أنحاء العالم. واضطرت حتى بعض الأحزاب المحافظة اليمينية الى رفع شعار انتخابي لها «انتخبوا الأزرق لتصلوا الى الأخضر».

ولكن مع حلول عام 2008 بأزمته الاقتصادية العالمية وانهيار الأسواق العالمية، عادت الموضوعتان الى سابق عهدهما لتحتلا المقعد الخلفي من الاهتمام العالمي، وكأن أزمة المناخ والاحتباس الحراري قد اختفت تماما، وباستثناء مرة أو مرتين فقط في السنة، عندما يحدث مؤتمر دولي أو كارثة بيئية، تعود لتتصدر عناوين الصحف. وقد اقترنت هذه الفترة بعودة التشكيك في أزمة المناخ، وإنكار حقيقة الاحتباس الحراري باعتبارها تستند إلى علم رديء، أو كجزء من مؤامرة.

قضية التشكيك التي ترتبط عادة بالسياسات اليمينية، وصلت أيضا الى البعض من اليسار، خصوصا من يبشر منهم بفضائل العودة الى العصور الذهبية لما قبل الثورة الصناعية، بحجة أنها ذريعة للحكومات لزيادة الضرائب وخفض مستويات المعيشة. إلا إن الأدلة العلمية وراء ظاهرة الاحتباس الحراري وأزمة المناخ قوية، وآثارها واضحة في جميع أنحاء الكوكب. فقد كانت السنوات الست الأولى من القرن الحادي والعشرين هي الأكثر دفئا على الإطلاق، وربما أكثر دفئا من أي سنوات أخرى منذ ألف عام. وتشير التقديرات الأكثر تحفظا التي وضعها العلماء إلى أن متوسط الزيادة في درجة حرارة الهواء يبلغ 0.7 درجة مئوية خلال

العقد الماضي، وبعضها يضع أرقاما أعلى بكثير.

لا بد من الإشارة هنا الى أن تغير المناخ هو واحد من تسعة محددات بيئية (خطوط حمراء) تجعل من عالمنا سائرا باتجاه الانهيار والزوال في حال تجاوزها، وهي: التغير المناخي، حامضية المحيطات، اختفاء طبقة الأوزون، دورتا حياة النيتروجين والفسفور، الاستهلاك العالمي لمياه الشرب، التغيير الحاصل في استخدام الأراضي، فقدان التنوع البايولوجي، تلوث الهواء، والتلوث الكيميائي. إلا إن ما يميز التغير المناخي هو وقوع آثاره بشكل غير عادل على الفقراء. حيث تعلن عن نفسها بعدة طرق: زيادة في أسعار المواد الغذائية، وشح في المياه العذبة، وتربة أقل خصوبة، وطقس أكثر تطرفا. أولئك الذين سيعانون، وهم يعانون الآن حقا، نتيجة لذلك هم أشخاص عاديون من الطبقة العاملة والمتوسطة، ومزارعون - باختصار، الجميع باستثناء فاحشي الثراء. وعلى الرغم من أن الآثار تقتصر في الوقت الحالي إلى حد كبير على ما يسمى بالعالم الثالث، إلا أنها بدأت بالفعل تؤثر على البلدان الأكثر ثراء (موجة الحر غير الطبيعية التي تجتاح أوروبا حاليا)، وهذا يعني أن الانحباس الحراري وأزمة المناخ لم تعد مجرد قضية علمية، بل هي قضية طبقية. حيث يمكن أن تعزى موجات الجفاف والمجاعات التي تجتاح أفريقيا وآسيا بشكل دوري جزئيا إلى الاحتباس الحراري، ويمكننا أن نتوقع حدوث المزيد في المستقبل، فضلا عن زيادة الطقس المتطرف مثل الأعاصير والعواصف الرملية.

مثل جميع الظواهر الطبيعية، لا يحدث تغير المناخ بشكل منعزل، بل كجزء من العالم الرحب. والاحتباس الحراري العالمي لا يحدث في عملية خطية بسيطة، بل يحدث على مراحل. تتراكم الظروف حتى تكون هناك نقطة معينة يحدث فيها تغير أساسي في مناخ الأرض. وبعبارة أخرى، هناك تحول في الكمية إلى النوعية. وهو ما يشير إليه علماء المناخ باسم «نقاط التحول» - بعد فترة طويلة من الزمن حيث يتراكم التلوث والغازات الدفيئة (غاز ثاني أوكسيد الكاربون، غاز الميثان، محلول الفلوروكاربون، أوكسيد النيتروز، البيروفلوركاربون، هكسافلورايد الكبريت) في الغلاف الجوي، يمكن أن يفسح هذا المجال لتغير سريع للغاية في المناخ. وفي مرحلة معينة، قد يؤدي هذا إلى الاحتباس الحراري الجامح، حيث ترتفع درجات الحرارة بسرعة خارج نطاق السيطرة. إن ظاهرة تحول الكم إلى نوع (والعكس صحيح) موجودة في جميع جوانب العلم والمجتمع، ويلخصها المثل المعروف "القشة التي قصمت ظهر البعير". وهو أحد قوانين الفلسفة الماركسية. (انظر عمل انجلز غير المكتمل "ديالكتيك الطبيعة").

السؤال الذي نطرحه هنا: هل يجد الماركسيون غرابة في عدم تمكن الرأسمالية من وضع حلول لأزمة المناخ وللاحتباس الحراري؟ الجواب هو كلا بالطبع: إذ أن حل المشاكل البيئية ليس مربحا للغاية. ففي حين كان للرأسمالية قبل ما يزيد على قرن ونصف بعض الجوانب التقدمية (انظر البيان الشيوعي)، حيث استثمرت في الإنتاج والصناعات المفيدة

حقا، إلا أنها وصلت في القرن الحالي الى مرحلة من الشيخوخة، وأصبح ما يغريها فقط تنمية أرباحها من خلال الاستثمار في القطاعات الطفيلية للتمويل والمضاربة أو ما يعرف بأمولة التراكم.

إن حل القضايا البيئية يتطلب الاستثمار في البحوث والصناعة والتقنيات الجديدة، وهو ما لا تستطيع الطبقة الرأسمالية القيام به. وحتى في الفترة السابقة من النمو الاقتصادي قبل جائحة كورونا، كان استثمار القطاع الخاص في التكنولوجيا النظيفة مثل الألواح الشمسية أو توربينات الرياح ضئيلا. واتخذ ما يعرف بالاستثمار الأخضر، في الغالب، شكل إعانات حكومية ضخمة، أي بمعنى آخر تحويل مباشر لأموال الخزانة العامة إلى جيوب القطاع الخاص.

أما السياسيون فقد كان "الحل" الذي توصلوا إليه هو ترك مصير البيئة في أيدي السوق الحرة. وتمثلت إحدى الطرق للقيام بذلك في إنشاء ما يعرف بمخطط «تجارة الكربون» إثر انتهاء أعمال مؤتمر باريس حول المناخ (كانون الأول/ ديسمبر 2015)، وهو سوق مصطنعة حيث يجر السماح للبلدان والشركات بحصة معينة من التلوث وإذا ما استهلكت حصتها يمكنها أن تشتري حصة بلد أو شركة أخرى. وتمثلت طريقة أخرى في استبدال الوقود الأحفوري (الفحم والنفط والغاز) بالوقود الحيوي المصنع من النباتات. ويتم من خلال تحويل الأراضي الزراعية من المحاصيل الغذائية إلى المحاصيل التي تنفع لتصنيع الوقود الحيوي، ومن الواضح أن ذلك أدى الى خفض المعروض من المحاصيل، وزيادة تكلفة الغذاء؛ وكالعادة، يقع عبء ذلك على عاتق فقراء العالم.

طبعا هناك حلول تقنية يمكن لها أن تعالج ظاهرة الاحتباس الحراري وأزمة المناخ بشكل عام، ولسنا هنا في معرض ذكرها، ولكن لا بد أن نشير إلى أن استخدام التكنولوجيا في ظل الرأسمالية مدفوع فقط بالربح، مما سيكون له، بالتأكيد، آثار خطيرة للغاية. أولا، في سعيها الذي لا ينتهي الى تخفيض التكاليف، يمكن تجاهل إجراءات السلامة الأساسية لمثل هذه التكنولوجيا. وثانيا إن وفرة الطاقة البديلة ستؤدي إلى انخفاض أسعار الكهرباء مثلا، مع ما يترتب على ذلك من انخفاض في أرباح شركات الكهرباء. باختصار، لا تستطيع السوق الحرة أن تحل المشاكل البيئية.

إذا عدنا الى «نقاط التحول» لجيمس هانسن التي تعني، عند الوصول لها، أن كوكب الأرض سيمضي في التدهور البيئي بزخم ذاتي ولن تنفع جميع المحاولات لإيقافه. نقول انه قد ضاع عقد أو أكثر من الزمان، رغم "اتفاقية باريس للمناخ" التي لم تثبت فعاليتها. ونجد الجيولوجيون وعلماء المناخ يتحدثون اليوم عن عصر جديد خطير أطلقوا عليه: الأنثروبوسين – الإنسان الجديد"، وهو عصر غيّر فيه البشر الظروف الكوكبية بما في ذلك المناخ، وكسروا نمطا عمره 11700 عام من المناخ المستقر نسبيا المعروف باسم الهولوسين.

فإذا نظرنا إليها من منظور التاريخ الجيولوجي، فإن ظروفنا المناخية والاقتصادية الحالية غير عادية. وقد

أثبت العلم انه على مدى 60 مليون سنة الماضية، كان المناخ غير مستقر إلى حد كبير. ثم استقر قبل 10000 عام فقط ليظهر عصر الهولوسين، حيث غيرت المجتمعات البشرية علاقتها بالطبيعة من خلال الزراعة، ثم خلقت أشكالا اجتماعية واقتصادية مستقرة معقدة، بما في ذلك الرأسمالية. التي يقترب عمرها من 300 عاما وهي لحظة قصيرة، غمضة عين، بالمقارنة مع تاريخ الأرض البالغ 4.5 مليار سنة.

لكن هذه اللحظة القصيرة هي قوة عالمية. وهي من تحاول إخراجنا من عصر الهولوسين المستقر الى عصر الأنثروبوسين غير المستقر. وليس هناك ما يدعونا الى الاعتقاد بأن الظروف البيئية الجديدة ستوفر أرضا خصبة لتطوير نظام اجتماعي - اقتصادي أكثر تعاطفا أو إنسانية. خصوصا وإن الديناميكيات التي تدفع تغير المناخ هي جوهر الرأسمالية. وبالتالي فإن العمل الجاد لحل أزمة المناخ يجب أن يرقى بالضرورة إلى وضع الخطوات الأولى لبرنامج يهدف الى إنهاء الرأسمالية.

لقد تطور الاقتصاد ونظام الطاقة والبيئة معا. إنهم يعتمدون على بعضهم البعض، ويمررون المواد بينهم ويمتصون نفايات بعضهم البعض. فكل نشاط اقتصادي يعتمد، في نهاية المطاف، على تحويل الموارد المادية. ويجب أن تستمد هذه العناصر من البيئة ثم يبدأ العمل بتحويلها. ماركس يجعل هذا الاعتماد المتبادل واضحا:

"إن القيم الاستعمالية، .... نعني أجساد السلع، هي مركبّات من عنصرين: المادة والعمل. وإذا جرّدنا السلع من العمل النافع المبذول فيها، فأنه يبقى دائما بقية مادية قدمتها الطبيعة بدون معونة الإنسان"[1].

يستخدم ماركس مثال الكتان - الذي ينتجه العمال (العمل) الذين يحولون ألياف نبات الكتان (البيئة). ولكن هذا الاعتماد المتبادل ينطبق أيضا على السلع الأكثر حداثة. على سبيل المثال، تتكون الخوادم (Servers) التي تستضيف ملفات غوغل مثلا من معادن مختلفة تمت إعادة ترتيبها بواسطة العمالة.

يأتي الاعتماد المتبادل أيضا في شكل طاقة. في كل مرحلة من مراحل إنتاج سلعة ما، يتم استخدام الطاقة لتحويل المادة من شكل إلى آخر. وكل الطاقة المستخدمة في الاقتصاد هي إنتروبية (Entropic): بمعنى إنها تأتي من إعادة استخدام الطاقة الموجودة في نظام الأرض، وتوظيفها مقابل تكلفة. يتم حفر الفحم من الأرض وحرقه، ويتم التقاط الطاقة الشمسية بواسطة الخلايا الكهروضوئية، أو في النباتات التي نطبخها ونأكلها. وبالتالي فإن نظام الطاقة الذي يُمكّن النشاط الاقتصادي يعتمد اعتمادا كليا على البيئة.

نرى هنا كيف تؤثر البيئة على الاقتصاد. الاقتصاد هو عملية تحويل المواد المستخرجة من البيئة عن طريق إعادة توجيه تدفقات الطاقة من نظام الأرض. والنتيجة هي ما استشهد ماركس به من الاقتصادي وليام بيتي: «وهكذا نرى أن العمل ليس المنبع الوحيد للثروة المادية، ليس المنبع الوحيد للقيم الاستعمالية التي ينتجها. فالعمل أبوها والأرض أمها»[2]

بالمقابل، فإن البيئة ونظام الطاقة

يتشكلان من خلال الاقتصاد. إذ أن أولويات النظام الاقتصادي هي التي تحدد تقييم كل عنصر، وكذلك المواد التي يتم استخراجها، مما يغير تكوين البيئة ومظهرها وديناميكياتها.

وأزمة المناخ العالمية هي خير مثال على التطور المشترك للاقتصاد والبيئة، ولكن هذه المرة، مثال خاص بالرأسمالية. وكما سنرى، فإن الاثنين مرتبطان ارتباطا وثيقا. فبدون رواسب الوقود الأحفوري، لم تكن الرأسمالية لتصبح القوة المهيمنة التي هي عليها اليوم. وبالمثل، بدون الرأسمالية، ربما لم يصبح الوقود الأحفوري أبدا العمود الفقري للاقتصاد.

وبسبب الدوافع الهيكلية نحو النمو التي نراها في ظل الرأسمالية، فمن غير المرجح للغاية أن تتمكن الرأسمالية من تجنب تغير المناخ الكارثي. إن الدافع الهيكلي للنمو يعني أن الجهود الرامية إلى الحد من انبعاثات الكربون سوف تطغى عليها الرغبة في توسيع النشاط الاقتصادي، وتاريخ الرأسمالية يثبت ذلك.

ليس هناك نية في الحفاظ على الموارد في ظل الرأسمالية. فكلما أصبحنا أكثر كفاءة أو اكتشفنا موارد جديدة، فإن ذلك يزيد من شهية الآلة الرأسمالية لتراكم المزيد من الأرباح. وهذا يفسر لماذا لا تزال الطاقة المتجددة والطاقة النووية، على سبيل المثال، جزءا صغيرا فقط من نظام الطاقة العالمي. (أنظر الرسم البياني)[3].

إذن، إلى أين نذهب من هنا؟

يرتبط الاقتصاد، ونظام الطاقة، والبيئة، ارتباطا وثيقا. ومن خلال الجمع بين اقتصاد إيكولوجي والمنهج الماركسي، يمكن وضع إطار للنظر من خلاله إلى أزمة المناخ العالمية لا كنتيجة للرأسمالية فحسب، بل على إنها متأصلة فيه وأساسية له. بمعنى أن أزمة المناخ هي سمة وليست علة في الرأسمالية.

ولتجنب هذه الأزمة الكارثية، يتعين علينا أن نكسر الدورة التوسعية للاقتصاد. وإلا فإن التحسينات التكنولوجية، والطاقة المتجددة، لن تفعل شيئا سوى أن تضيف

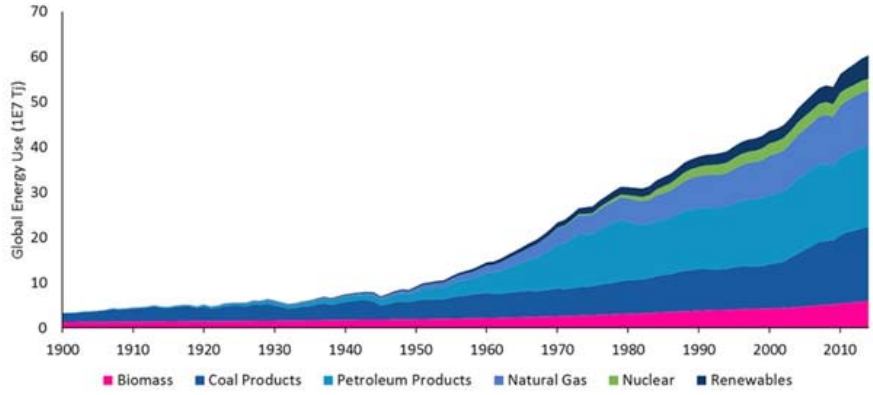

إلى مخزون الطرق التي ينمي بها الرأسماليون الاقتصاد وأرباحهم. وبالمثل، سيزيد النمو من استخدام الطاقة، بما في ذلك استخدام الوقود الأحفوري. هذا سوف يغرقنا في عالم لا نعرف كيف نعيش فيه. من المرجح أن "الأرض الساخنة" ستدمر الرأسمالية في نهاية المطاف. ولكن ليس قبل تدمير سبل عيش الملايين من خلال الطقس القاسي، وزيادة حالات الإصابة بالأمراض، والانهيار البيئي. ولا يوجد سبب للاعتقاد بأن هذا سيؤدي إلى مستقبل أفضل.

إن كسر الدورة التوسعية للاقتصاد بطريقة عادلة يتطلب التراجع عن الأسواق. وتبني سياسة الإنتاج القائم على الدولة كوسيلة رئيسية لتلبية الاحتياجات الجماعية للمجتمع. وبهذه الطريقة فقط يمكننا كسر الدافع المجتمعي لنمو الإنتاجية وتوسيعها. لا يوجد شيء أكثر استدامة بطبيعته من أشكال الإنتاج غير السوقية (كل النشاط الاقتصادي يستخدم الطاقة)، ولكن هذه الأنظمة تفتقر إلى الدافع التوسعي للأسواق. وبالتالي، يمكن استخدام مكاسب التقنيات الجديدة لتحل محل الوقود الأحفوري بدلا من الإضافة إليها.

إن اكتشاف "نقاط التحول" يضع حدا زمنيا للتحول الاشتراكي للمجتمع، من أجل منع الانحباس الحراري العالمي الجامح.

وإذا كان الماركسيون يرفعون أصواتهم، في الماضي، بأن المجتمع يقف عند مفترق طرق – الاشتراكية أو الهمجية -، فإن عليهم اليوم، مع التهديد الحقيقي للاحتباس الحراري والأزمة البيئية، أن يعلنوها صراحة، أن الخيار الحالي هو: الاشتراكية أو الانقراض. فالطبقة الرأسمالية والمصالح التي تدافع عنها غير قادرة على اتخاذ أي عمل جاد ضد تغير المناخ.

ولمعالجة القضايا البيئية، يجب التخطيط لتنمية المجتمع. ولكن لا يمكننا تخطيط ما لا نتحكم فيه، ولا يمكننا التحكم في ما لا نملكه. كيف يمكننا، مثلا، حتى أن نبدأ في بناء طاقة مستدامة عندما تكون صناعة الكهرباء والمناجم وشركات المياه مملوكة للقطاع الخاص، وتعمل فقط لتحقيق الربح؟ يجب، إذن، وضع هذه الشركات في الملكية العامة وتشغيلها بطريقة ديمقراطية. ولكن الملكية العامة لصناعات المرافق العامة في حد ذاتها لن تحل المشكلة، ففي نهاية المطاف، لا بد من القضاء على الملكية الخاصة في قطاعات البنوك والتأمين والمالية. وهذا من شأنه أن يسمح بالمستوى المناسب من الاستثمار في التكنولوجيا الجديدة، وتطوير الزراعة، وتطوير التخطيط الطويل الأجل. وعندئذ فقط يمكن تخطيط موارد المجتمع بوعي، لصالح الجميع.

المصادر:

1. كارل ماركس، رأس المال: نقد الاقتصاد السياسي، المجلد الأول، ص 78.
2. المصدر السابق.
3. De Stercke, S. (2014). Dynamics of Energy Systems: A Useful Perspective. IIASA Interim Report. IIASA, Luxemburg, Austria: IR-14-013

ماذا نعرف عن الخوارزميات المستخدمة في وسائل التواصل الاجتماعي؟

عادل كنيش مطلوب *

نشرت صحيفة الغارديان البريطانية في الأول من تموز 2013 مقالاً بعنوان "كيف تحكم الخوارزميات العالم؟" لـ ليو هيكمان والذي جاء فيه "تُسلط اكتشافات وكالة الأمن القومي الضوء على الدور الذي تلعبه الخوارزميات المعقدة في غربلة كتل البيانات. ... وبرز في هذا المقال تساؤل مهم "هل يجب أن نكون أكثر حذرا من قوة الخوارزميات؟".

في مقال لـ رودري مارسدن، في صحيفة الإنديبندت البريطانية، الأحد 08 مارس 2015، تحت عنوان "غزو الخوارزميات: معادلات العصر الحديث التي يمكن أن تحكم حياتنا"، أشار الى تساؤل آخر أكثر عمقا: "هذه المعادلات يمكنها، من خلال معالجة كميات هائلة من البيانات الدقيقة، التنبؤ بسلوكنا - لكن هل هي نحو الأفضل أم للأسوأ؟.

في سلسلة محاضرات قدمتها جامعة كاليفورنيا، قدم المؤرخ يوفال هراري محاضرة بعنوان "تاريخ موجز للغد" في 24 أبريل 2017، أكدت المحاضرة على إن "الكائنات الحية هي خوارزميات"، وهناك اندماج بين علوم الحياة، وعلوم الكمبيوتر، وأن المشاعر البشرية ومشاعر وأحاسيس وعواطف الشمبانزي والفيل والدلفين، كلها مجرد عمليات كيميائية حيوية للحساب، وحساب الاحتمالات من أجل اتخاذ القرارات. مستندا الى إن "العلم على دراية بنوعين فقط من العمليات في الطبيعة. لدينا عمليات حتمية، وعمليات عشوائية"، وبالطبع لدينا مزيج من العشوائية والحتمية، مما يؤدي إلى نتيجة من الاحتمالات.

هذه التساؤلات والطروحات تدفع نحو تفكيك ما يجري الى عناصره الأولية لفهم اثاره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما يجري لنا ولمستقبل اجيالنا. فكيف تتم تغذية هذه الخوارزميات، المستخدمة في وسائل التواصل الاجتماعي، بموادها الخام؟ وكيف تعالج البيانات لتتحول الى معلومات؟ كيف يتم الحصول عليها؟ ما حجمها؟ وماهي مواصفات الآلات التي تنفذ هذه الخوارزميات؟ ...الخ.

يهدف هذا المقال، كمحاولة متواضعة، الى جمع بعض ما متوفر من بيانات منشورة حول هذا الموضوع وعرضها ضمن سياقاتها التي تساعدنا في فهم هذا الواقع وتلمس ما هو إيجابي لتبنيه، والتصدي الى الطروحات السيئة.

نظرة تاريخية

منذ تأسيس البريد الالكتروني Hotmail من قبل الطالبين صابر بهاتيا وجاك سميث Sabeer Bhatia و Jack Smith في عام 1996 في كاليفورنيا، والذي كان من أوائل خدمات بريد الويب في العالم. جرى السعي حثيثا لإغراء الناس للتواصل باشتراكات في خدمات بريد الكتروني مجاني. أثناء عملية التسجيل وفر المسجلون معلومات أولية عنهم؛ منها نوع الجنس، تاريخ الميلاد ... الخ. هذا البريد الالكتروني أوجد رابطا وثيقا للاتصال ومتابعة المشتركين، وفتح نافذة جديدة غير معهودة لأغراض الشركات في كل نشاطاتها الحالية والمستقبلية؛ أولها هو تسويق سلعها. هذا ما دفع M-crosoft في عام 1997، للاستحواذ على Hotmail مقابل 400 مليون دولار تقريبًا وأعيد إطلاقها باسم MSN Hotmail. لم تتوقف عملية تغيير العلامة التجارية عند هذا الحد، فقد تم تغييرهـا لاحقًا إلى Windows Live Hotmail قبل أن يطلق عليها اسمها الاخير .Outlook com في عام 2013.

في 4 سبتمبر 1998 تأسست Google من قبل الطالبين لاري بيج وسيرجي برين Larry Page وSergey Brin عندما كانا طالبي دكتوراه في جامعة ستانفورد في كاليفورنيا، مستخدمين عدة تطبيقات؛ رابطها الأساس بريد الكتروني يحمل معلومات شخصية عن المستخدمين.

يمتلك هذان الشخصان معًا حوالي 14 ٪ من أسهم Google المدرجة في البورصة، ويسيطرون على 56 ٪ من قوة تصويت المساهمين من خلال الأسهم ذات التصويت الفائق. إن ذلك يعكس "ديمقراطية" اتخاذ القرارات لمؤسسة مثل Google التي تمتلك أضخم بيانات في العالم حول مجريات حياتنا اليومية.

أما Facebook فقد تم تأسيسها في عام 2004 على يد أربعة طلاب من جامعة هارفارد. أصبحت Facebook أكبر شبكة تواصل اجتماعي في العالم، مع ما يقرب من ثلاثة مليارات مستخدم في عام 2021، ونحو نصف هذا العدد يستخدمون Facebook يوميًا (تصور المقدار الهائل من المعلومات التي تحتفظ بها هذه الشركة عن مشتركيها).

إن الوصول إلى Facebook مجاني، وتكسب الشركة معظم أموالها من الإعلانات على الموقع. يمكن للمستخدمين الإشارة إلى تقييمهم للمحتوى، من الاعجاب الى الغضب، باستخدام واحد من سبعة ازرار مخصصة لذلك. هذا التقييم هو المصدر الرئيسي لجمع البيانات الضخمة عن المستخدمين والتي تخزنها خوادم المنصات لـ Facebook وهي الزيت والوقود لتشغيل ماكينتها الضخمة. أما الخدمات الأخرى التي تعد جزءًا من Meta Pla-forms، الاسم الجديد للشركة، والتي تشكل المصادر الأخرى لجمع المعلومات عن المشتركين هي Instagram وهي شبكة اجتماعية لمشاركة الصور والفيديو، الـ Messenger تطبيق لمراسلات فورية، وWhatsApp خدمة الرسائل النصية والصور باستخدام تقنية تعرف بـ VoIP.

Facebook لديها تاريخ معقد منذ نشأتها. بدأت في جامعة هارفارد في

2003 باسم Facemash، وهي خدمة عبر الإنترنت للعلاقات بين الطلاب والحكم على تقاربهم من بعضهم البعض. نظرًا لأن المطور الأساسي، للخدمة، انتهك سياسة خصوصية الجامعة في الحصول على معلومات، فقد تم إغلاقها بعد يومين. على الرغم من وجودها الذي يشبه الذبابة، فقد توافد عليها 450 شخصًا. دفع هذا النجاح إلى تسجيل اسم موقع انترنت بعنوان http://www.thefacebook.com في يناير 2004. ثم أنشأ شبكة تواصل اجتماعية جديدة تحت هذا العنوان.

تم إطلاق الشبكة الاجتماعية TheFacebook.com في فبراير 2004. وشارك طلاب جامعة هارفارد في الخدمة بنشر صور لأنفسهم ومعلومات شخصية عن حياتهم، مثل جداول فصولهم الدراسية والنوادي التي ينتمون إليها. زادت شعبيتها، وسرعان ما سُمح لطلاب من مدارس مرموقة أخرى، مثل جامعتي ييل وستانفورد، بالانضمام. بحلول يونيو 2004، كان أكثر من 250000 طالب من 34 مدرسة قد اشتركوا، في نفس العام بدأت الشركات الكبرى مثل شركة بطاقات الائتمان MasterCard في الدفع مقابل ظهورها على الموقع.

بحلول نهاية عام 2004، حصلت Th-Facebook على مليون مستخدم نشط. ومع ذلك، لا تزال الشركة تتخلف عن الشبكة الاجتماعية عبر الإنترنت الرائدة في ذلك الوقت التي تحمل اسم Myspace، والتي كانت تضم خمسة ملايين عضو.

عام 2005 كان محوريا للشركة؛ اختصر الاسم الى Facebook وقدمت فكرة "وضع علامات" على الأشخاص في الصور التي يتم نشرها على الموقع (وضح استخدام خوارزميات الذكاء الاصطناعي للمشتركين). سمح Facebook للمستخدمين بتحميل عدد غير محدود من الصور. في عام 2005 سُمح لطلاب المدارس الثانوية وطلاب جامعات خارج الولايات المتحدة بالانضمام إلى الخدمة. بحلول نهاية العام، كان هناك ستة ملايين مستخدم نشط شهريًا.

في عام 2006، فتح Facebook عضويته لتتجاوز الطلاب لأي شخص يزيد عمره عن 13 عاما. تمكن المعلنون من إنشاء علاقات عملاء جديدة وفعالة. على سبيل المثال، في ذلك العام، جذبت شركة Procter & Gamble المصنعة للمنتجات المنزلية، 14000 شخص إلى جهدها الترويجي من خلال "التعبير عن تقاربهم" مع أحد منتجات تبييض الأسنان. لم يكن هذا النوع من المشاركة المباشرة للمستهلكين على هذا النطاق الواسع ممكنًا قبل Facebook، وبدأت المزيد من الشركات في استخدام الشبكة الاجتماعية للتسويق والإعلان.

تظل الخصوصية مشكلة مستمرة في Facebook، أصبح الأمر أول مرة يمثل مشكلة خطيرة للشركة في عام 2006، عندما قدمت الشركة خدمة الـ News Feed، والتي تتكون من كل تغيير يقوم به أصدقاء المستخدم على صفحاتهم. بعد احتجاجات من

المستخدمين، نفذ Facebook بسرعة عناصر التحكم في الخصوصية التي يمكن للمستخدمين من خلالها التحكم في المحتوى الذي يظهر في موجز الأخبار. في عام 2007، أطلقت Facebook خدمة قصيرة العمر سميت Beacon دعت أصدقاء الأعضاء لأن يروا المنتجات التي اشتروها من الشركات المشاركة. لقد فشلت لأن الأعضاء شعروا بأنها تتعدى على خصوصيتهم (personal privacy). في الواقع، وضع استطلاع رأي للمستهلكين، في عام 2010، Facebook في أدنى خمسة في المائة من الشركات، من حيث رضا العملاء إلى حد كبير، بسبب مخاوف الخصوصية، ولا تزال الشركة تتعرض لانتقادات بسبب تعقيد عناصر التحكم في خصوصية المستخدم وللتغييرات المتكررة التي تجريها، منها التحذيرات التي أطلقتها "كيلي بيرنز"، بروفسور الاتصال الجماهيري في جامعة جنوب فلوريدا حول التنصت على محادثات الناس بشكل مستمر.

أصبحت شركة Facebook أداة قوية للحركات السياسية، بدءًا من الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام 2008، عندما تم تشكيل أكثر من 1000 مجموعة على Facebook لدعم المرشح الديمقراطي باراك أوباما أو المرشح الجمهوري جون ماكين. هذه الأداة أصبحت مصدرا مهما للغاية لتلاعب شركة "كامبريدج أناليتيكا" بالمعلومات واستغلالها سياسيا، خصوصا مع بدء عصر البيانات الضخمة المخيف. جنبا إلى جنب مع التقدم في علم اللغة المعرفي وعلم الأعصاب، يمكن لهذه البيانات أن تصبح أداة قوية لتغيير القرارات الانتخابية التي نتخذها.

من ناحية أخرى، تم استخدام الخدمة، في كولومبيا، لحشد مئات الآلاف في احتجاجات ضد حرب العصابات المناهضة للحكومة. وفي مصر، نظم النشطاء المحتجون على حكومة الرئيس حسني مبارك أثناء انتفاضة 2011 أنفسهم من خلال تشكيل مجموعات على Facebook. كما استخدمت بشكل واسع في انتفاضة تشرين في 2019 في العراق.

كذلك شجعت شركة Facebook مطوري البرامج الخارجيين على استخدام الخدمة. في عام 2006، أصدرت واجهة برمجة التطبيقات الخاصة بها (API) بحيث يمكن للمبرمجين كتابة البرامج التي يمكن لمشتركي Facebook استخدامها مباشرة من خلال الخدمة؛ وبذلك فتحت مصدرا آخر متخصصا لجمع المعلومات.

بحلول عام 2009، حقق المطورون حوالي 500 مليون دولار من العائدات لأنفسهم من خلال Facebook. تربح Facebook أيضاً من عائدات المطورين من خلال مدفوعات للمنتجات الافتراضية أو الرقمية التي يتم بيعها من خلال تطبيقات الطرف الثالث. بحلول عام 2011، شكلت المدفوعات من إحدى هذه الشركات، Zynga Inc.، مطور ألعاب عبر الإنترنت، 12 بالمائة من عائدات الشركة.

المواد الخام للخوارزميات - البيانات.

منذ آلاف السنين، كانت هناك محاولات لاختراق البشر، ولفهم ما يدور في أذهاننا؛ ماذا نفكر؟ بماذا نشعر؟ لكن لا أحد كان قادرا حقا على فعل ذلك. لم تكن القدرة الحاسوبية اللازمة لفهم ما يحدث داخل دماغ أو داخل جسم الإنسان؛ متوفرة آنذاك.

إن الابتكار الكبير الذي غير وسيغير العالم أكثر من أي شيء آخر هو: القدرة على اختراق البشر، وفك رموزهم. إن البشر معقدون للغاية وعلى مر التاريخ لم يكن لدينا الأدوات اللازمة لفهم كيفية عمل البشر، وكيفية اتخاذهم القرارات وما إلى ذلك. لاختراق الإنسان، نحتاج الى كميات هائلة من البيانات؛ خاصة البيانات البيولوجية؛ كوننا كيانات بيولوجية، ونحتاج إلى كميات هائلة من القدرة الحاسوبية لفهمها. في السابق، في التاريخ، لم يكن لدينا هذا، كان فهمنا للبيولوجيا محدودًا للغاية. كانت القدرة على جمع البيانات عن البشر محدودة للغاية أيضًا، ولم تكن لدينا القوة الحاسوبية، وكانت تطورات التكنولوجيا الحيوية وتقنية المعلومات منفصلة، لكنهما الآن يجتمعان معًا.

إحدى الاطروحات، من خلال الدراسات التاريخية، تشير الى إن مشاعرنا الإنسانية هي خوارزميات تشكلت عبر ملايين السنين من الانتقاء الطبيعي، خوارزميات صمدت أمام أقسى اختبارات الجودة في العالم، اختبارات الجودة للانتقاء الطبيعي. لكن الأمور تتغير الآن. نحن الآن عند تقاطع أو عند نقطة الاصطدام بين موجتين علميتين هائلتين. من ناحية، منذ أكثر من قرن، على الأقل منذ تشارلز داروين، اكتسبنا فهماً أفضل وأفضل لجسم الإنسان، والدماغ البشري، ولاتخاذ القرارات البشرية والعواطف والأحاسيس البشرية وما إلى ذلك. وفي الوقت نفسه، مع صعود وتطور علوم الكمبيوتر، تعلمنا كيفية هندسة خوارزميات إلكترونية وهي في تحسن مستمر، مع المزيد والمزيد من قوة الحوسبة.

حتى هذا اليوم، كان هذان النوعان من التطورات منفصلين، لكنهما الآن يجتمعان معًا. أن الشيء الحاسم الذي يحدث الآن في العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين، هو اندماج هاتين الموجتين. ينهار الجدار الذي يفصل بين التكنولوجيا الحيوية وتقنية المعلومات، وهو ما يمكنك رؤيته أيضًا في السوق، أن شركات مثل Apple أو Amazon أو Google أوFacebook، التي بدأت كشركات تقنية معلومات بشكل صارم، أصبحت على نحو متزايد في مجال التكنولوجيا الحيوية. لأنه في الحقيقة، لم يعد هناك فرق جوهري بين الاثنين.

نحن قريبون جدًا من النقطة التي عندها سيكون بإمكان Facebook أو Google فهمك بشكل أفضل مما تفهمه عن نفسك نظرًا لأنها ستحصل على البيانات عبر خوارزمياتها، فسيكون لديها المعرفة البيولوجية عبر خوارزمياتها أيضاً، وسيكون لديها القوة الحاسوبية اللازمة لتنفيذ تلك الخوارزميات، لفهم ما تشعر به بالضبط، ولماذا تشعر بالطريقة التي تشعر بها.

فمنذ متى جرى العمل بهذا النحو؟ وهل كان المشتركون في هذه الخدمات الالكترونية واعين لذلك أو إنهم استُغلوا تحت يافطة "أحكام شروط المشاركة"، التي تستخدم اللغة القانونية المعقدة والطويلة؟ إن المشتركين يقبلون بهذه الشروط دون قراءتها نتيجة حاجتهم لهذه الخدمات.

المعلومات هي سلع

هناك دراسة تشير إلى أن الرياضيات هي في الواقع ما يتكون منه العالم؛ تلك إن الطبيعة تتبع نفس القواعد البسيطة ("عمليات حتمية")، مرارًا وتكرارًا، لأن الرياضيات تدعم القوانين الأساسية للعالم المادي[8]، وغالبًا ما توصف الرياضيات بهذه الطريقة، كلغة أو أداة ابتكرها البشر لوصف العالم من حولهم بدقة. أن الرياضيات كانت موجودة في الطبيعة قبل وقت طويل من اختراعها، وإن الرياضيات باعتبارها مكونًا أساسيًا من مكونات الطبيعة التي تعطي بنية للعالم المادي.

بعد أكثر من ألفي عام، لا يزال العلماء يبذلون جهودًا كبيرة للكشف عن مكان وكيفية ظهور الأنماط الرياضية في الطبيعة وتفكيكها الى أبسط عناصرها؛ لوضعها في خوارزميات تنفذ على الحواسيب المتطورة التي تفوق في عملها قدرات الانسان الطبيعي في الكثير من نشاطاته اليومية.

هنا نقترح علاقة رياضية بين المعلومات وقيمتها المادية، التي تتعامل مع المعلومات كسلع يتم التقايض بها في بداية ظهورها، بشكل مباشر او غير مباشر، ولتتحول الى معرفة عامة مشاعة في النهاية. لقد حدد امتلاك المعلومات مهن ومهارات ممتلكيها. بشكل عام تمر المعلومات بدورة حياة يمكن تمثيلها بالعلاقة الرياضية التالية:

$V= (Vt=0)\ e^{(-t^2/2)}$

حيث V (Value) هي قيمة المعلومة، و Vt=0 هي قيمة المعلومة عند ولادتها و t (Time) هو عامل الزمن. يمكن تمثيل العلاقة بالخط البياني التالي:

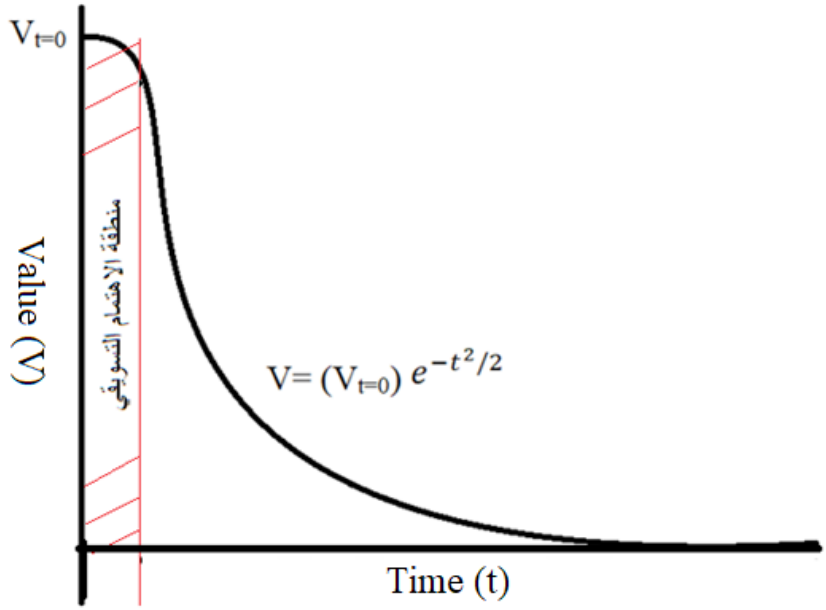

بوجود هذه العلاقة بين زمن المعلومة وقيمتها وتحديد زبائنها من الطرفين المنتجين والمستهلكين، فإن الشركات مثل Apple أو Amazon أو Google أو Facebook، قد صممت خوارزمياتها لتحقيق أرباح خيالية من معلومات مجانية؛ وأن هذه الخوارزميات تستخدم موادها الخام من المعلومات الثانوية الملازمة للمعلومات الرئيسية لتفادي المساءلة القانونية حول الخصوصية، مثال على ذلك، الازرار السبعة لـ Facebook.

الآن مع وجود الأدوات الخاصة لكل شخص، من هواتف ذكية وميكروفونات وكاميرات في كل مكان، ومع توسع ما يسمى "إنترنت الأشياء"، ستحيط بنا بلايين من أجهزة الاستشعار، كل منها نقطة بيانات مع إمكانيات خوارزمية. لذا أصبح من الممكن لأول مرة في التاريخ اختراق جميع الأشخاص، وتضيف إلى ذلك؛ زيادة المعرفة البيولوجية والتي تشكل الانفجار، لأنه ستتوفر قدرة إلى معرفة الناس بشكل أفضل مما يعرفون أنفسهم، وهذا هو العامل الأكبر في تغيير قواعد اللعبة في القرن الحادي والعشرين.

إن هذا الادراك لشركات التواصل الاجتماعي بـ القيمة التجارية الضخمة للكنز الذي جمعته من بيانات عن مشتركيها دفعها بدقة لتحدد القيمة الأعلى (المنطقة الحمراء في الرسم البياني) لها لتوظف تجاريا ووضعت الخوارزميات للتعامل معها. الخوارزميات شملت التنقيب عن المعطيات من البيانات الضخمة التي تجمعها لتستخدم هذه المعلومات في التعلم الآلي ضمن منظومات للذكاء الصناعي الذي تفوق قدراته القدرات البشرية.

الآن هذه القدرة الجديدة؛ لديها إمكانات إيجابية هائلة، ولها إمكانات سلبية هائلة أيضًا. إن إمكانيات اختراق البشر، اختراق بيولوجيا الأطفال، تغيير التركيب الجيني للأشخاص؛ خاصة ستكون متاحة لبعض الناس، وغير متاحة للآخرين، هناك إمكانية لتعزيز قدرات بعض من الناس حتى قبل أن يتم استبدالنا بالأدوات التكنولوجية.

هذه القدرات الهائلة لوسائل التواصل؛ هل هي حقا للتسويق بما يتماشى مع الاحتياجات الشخصية فقط؟!! أم لتحديد التوجهات السياسية لأجل توجيهها نحو مرشح معين أثناء الانتخابات؟!! أم لاستخدام التاريخ الاحصائي للأشخاص للتنبؤ بسلوكهم القادم؟!! أم.. أم.. أم ما خفي كان أعظم؟ للإجابة على هذه التساؤلات دعنا ننظر الى النظريات الرئيسية التي تفسر عمل هذه الشركات وأساليب تسويقها لمعلومات مشتركيها.

نظريات حول التواصل الاجتماعي

يشير سيلوين، نيل Selywn, Neil الى أن أحد الأدوار المعاصرة الرئيسية لأدب علم الاجتماع الرقمي هو الاعتراف بـ "الطبيعة المتشابكة للمادة والرقمية والأشخاص والآلات". وبشكل أكثر تحديدًا، يُقال إننا نعيش في مجتمع "منصات"، حيث تتغلغل المنصات في جميع مجالات الحياة العامة والخاصة بحسب فان دجك وجوز والأخرين Van Dijck, José وبالتالي، لكي نصف وضعنا المعاصر

بشكل معقول، يمكن للمرء أن يتوقع بعض النتائج الملموسة التي يمكن العثور عليها في العالم الرقمي.

أما كريستيان فوكس Christian Fuchs من معهد بحوث التواصل والإعلام، جامعة وستمنستر، المملكة المتحدة، فيتناول نظريات الاتصال الحديثة، وتحديداً الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، من منظور النظرية النقدية. يجادل بأن وسائل التواصل الاجتماعي تعمل على إخفاء الظروف الطبقية الموجودة مسبقًا من التبعية والهيمنة التي ينطوي عليها بالضرورة نمط الإنتاج الرأسمالي (Fuchs 2016, 121).

يناقش فوكس ما يسميه بجدلية الموضوع والهدف فيما يتعلق باتصالات الإنترنت. يجادل بأن البشر، كموضوعات تتفاعل مع أهداف وسائل التواصل الاجتماعي، يستخدمون تقنياتها للإنشاء والمشاركة والتواصل، وللمؤسسات التعاونية، وتعزيز المجتمعات عبر الإنترنت. من خلال هذه الممارسات التواصلية، يصبح عالم وسائل التواصل الاجتماعي الخاص بهم عالما "حقيقيا"، ليس فقط بالمعنى المادي للتخزين على خوادم الكمبيوتر، ويمكن الوصول إليه من خلال الأجهزة، ولكن أيضًا بمعنى أن يصبح أكثر واقعية وموضوعية على مستوى الجانب النفسي.

يسمح هذا العالم عبر الإنترنت للمجتمعات بالتوصل إلى مفاهيم جديدة (وسوء فهم) للعالم الاجتماعي الموجود مسبقًا وإنتاج خطابات حصرية لهذه المجتمعات الصغيرة، مما يؤدي إلى احتمالات تفاعلات هادفة لم يتم توضيحها من قبل. مع نمو ثقافات الإنترنت، فإنها تتسرب إلى العالم "الحقيقي"، وتصبح متداولة بقدر عدد المرات التي يستخدم بها المجتمع الإنترنت.

يرى فوكس بأنه لا يمكن أن توجد وسائل التواصل الاجتماعي إلا في سياق يكون فيه الأشخاص قادرين ومستعدين للمشاركة والتواصل والتعاون والتعرف إلى مجتمعات مختلفة، ولكن هذه الإجراءات، مع تشجيعها على الإنترنت من خلال وسائل التواصل الاجتماعي للشركات، هي بالضبط ما دفع الى واقع اجتماعي موضوعي تضاءلت فيه الثقافة الفردية التي ظهرت في الديمقراطيات الغربية. يستخدم الأفراد وسائل التواصل الاجتماعي الخاصة بالشركات كوسيلة للالتزام بـ "مبادئ الأداء النيو ليبرالي" كما يسميهم فوكس، ورعاية صورة الشخص نفسه لشبكاتهم الاجتماعية، والتفاعل مع الآخرين على هذه المنصات من خلال إضافة معلومات مختارة بعناية متاحة للآخرين للرؤية. إن وسائل التواصل الاجتماعي، بالمعنى الحقيقي للكلمة، هي تجربة مستخدم فردية شديدة العزلة ترتدي على أنها تجربة مجتمعية، وخلف ستار "الأداء" الذي يمثل الذات، يشير فوكس إلى "طابع الملكية الخاصة لوسائل التواصل الاجتماعي". يطور فوكس هذه الفكرة أكثر حيث يذكر:

بحقيقة، أن بيانات المستخدم تُباع كسلعة للمعلنين - مخفية خلف المظهر الاجتماعي لوسائل التواصل الاجتماعي: فأنت لا تدفع مقابل الوصول إلى Twitter أو Facebook

أو Google أو YouTube. يبدو أن قيمة الاستخدام التي تم الحصول عليها هي التجربة الاجتماعية الفورية التي تتيحها هذه المنصات. لا يتضح الطابع السلعي للبيانات الشخصية على الفور لأنه لا يوجد تبادل للأموال مقابل قيم الاستخدام التي يواجهها المستخدم.

لطرح الفكرة بشكل مختلف، خارج لغة الاقتصاد الماركسي، تقدم وسائل التواصل الاجتماعي نفسها كأداة مجانية الاستخدام لمشاركة الأشياء مع أصدقائك. بدلاً من ذلك، فهي عبارة عن منصة تحول فيها نفسك إلى سلعة من خلال تغذية المعلنين بمعلومات حول حياتك وقيمك وتفضيلاتك من خلال أعمال العرض الذاتي المنسق. إن المشاركة ليس فقط كموضوع حر في قواعد اللعبة، ولكن أيضًا كموضوع ممتع، يختبر الاستهلاك كشكل من أشكال المتعة الطقسية؛ نحن جميعًا متعه الآن. يقول فوكس:

عمل اللهو (Play labour) هو الأيديولوجية الجديدة للرأسمالية: يتم تقديم العمل المغترب موضوعيا؛ على أنه إبداع وحرية واستقلالية ممتعة للعمال. أصبحت الأفكار التي يجب أن يستمتع بها العمال ويحبون اغترابهم الموضوعي استراتيجية أيديولوجية جديدة لنظرية رأس المال والإدارة. "Facebook labour" هو تعبير عن أيديولوجية عمل اللهو كعنصر من عناصر الروح الجديدة للرأسمالية.

كمستهلك، يتم تقديم الموضوع تقليديًا على أنه حر ومستقل، ويمارس هذا الحق في الاختيار من خلال الوصول إلى اقتصاد السوق لشراء السلع حسب الرغبة، ضمن قيود الدخل التقديري للفرد. لإعادة إنتاج علاقات الإنتاج الرأسمالية، يجب أن يقدم النظام نفسه على أنه أفضل نظام ممكن، وأن تكون وسائل التواصل المشتركة متواطئة في الحفاظ على هذه الرسالة الضمنية لإبقاء موضوع المستهلك ممثلاً، وبالتالي، مهيمنًا. تقدم وسائل التواصل الاجتماعي منصاتها على الإنترنت لاستخدامنا وترفيهنا فقط، حتى وصولاً إلى تصريحات الشركات عن الإحسان؛ يستغل الـ Facebook "القدرة على المشاركة وجعل العالم أكثر انفتاحًا وترابطًا". ويريد موقع YouTube "التواصل مع الآخرين وإعلامهم وإلهامهم في جميع أنحاء العالم". أما Twitter فيريدك أن "تتواصل مع الأشخاص والتعبير عن نفسك واكتشاف ما يحدث".

تقدم جميع وسائل التواصل الاجتماعية للشركات الكبرى نفسها هنا للمساعدة، مثل البرامج مفتوحة المصدر المتاحة مجانًا من قبل حاضنات رقمية واعية اجتماعيًا، أو الأدوات المتاحة للآخرين مثل ويكيبيديا أو لينكس، فإن شركات التواصل الاجتماعي هذه تساوي المليارات في البورصة، على الرغم من شعاراتهم التي تدل على دعوة أعلى غير مرتبطة بمتطلبات السوق تمامًا.

ادعاء فوكس الأساسي هو أن هناك فرقًا ملحوظًا بين كيفية عمل وسائل التواصل الاجتماعي وكيف ترغب في الظهور للمستخدم النهائي. الغرض من وسائل التواصل الاجتماعي هو

تكوين المجموعات وتبادل المعلومات، لتوحيدنا. ومع ذلك، فإن الرأسمالية تدمر إمكانيات الاتصال الجديدة هذه، و"تعزز أشكالًا جديدة من الاستغلال، والتسليع، والفردية، والملكية الخاصة". بينما يقوم مستخدمو وسائل التواصل الاجتماعي بتحميل الصور وإرسال الرسائل إلى الأصدقاء والتعبير عن أنفسهم عبر الإنترنت، فإن الشركات تقوم بتوجيه البيانات إلى جهاز يعمل بشكل أساسي على نقل بصمة البيانات هذه إلى منتج تشتريه الشركة، والإعلان لك بطريقة تحول إحساسك من العودة إلى حد ذاتها، لتقديم مجموعة من مشتريات السلع المحتملة.

على الرغم من هذه الهواجس بشأن العلاقة بين وسائل التواصل الاجتماعي والاستغلال الرأسمالي، يجادل فوكس بأنه لا تزال هناك إمكانات تحررية داخل هذه التكنولوجيا: "تشير إلى، وتشكل جنبًا إلى جنب مع التقنيات الأخرى، أساسًا ماديًا لمجتمع اشتراكي ديمقراطي، حيث يتم التحكم بشكل جماعي في وسائل الإنتاج المادي والإعلامي". تكمن المشكلة في أن وسائل التواصل الاجتماعي للشركات تقوض إمكانياتها السياسية الخاصة من خلال خدمة الوضع الرأسمالي الراهن وتعمل على تقديم أشكال جديدة من "الاستغلال والأيديولوجية". تحول وسائل التواصل الاجتماعي المشتركين إلى مستهلكين، وأفراد مجبرين على العمل من أجل أرباح الشركات تحت ستار اللعب؛ يجادل بأنه "من الخطأ النظر إلى Facebook على أنه شركة اتصالات: فهي لا تبيع الاتصالات أو الوصول إلى الاتصالات، ولكن بيانات المستخدم ومساحة الإعلان المستهدفة". يُعد Facebook أحد أكبر وكالات الإعلان في العالم". على الرغم من أن منصات التواصل الاجتماعية توفر القدرة للمستخدمين على التواصل، إلا أنها تعمل بشكل أشبه بوكالة مواعدة عبر الإنترنت، حيث تربط شركاء الشركات بالمستهلكين المحتملين، تحت رعاية ربط البشر ببعضهم البعض: باستثناء أن المستخدمين لا يواجهون هذا التلاعب في بياناتهم الخاصة، ربما يكون التشابه أقرب إلى مواعدة غير معروفة حيث لا تعرف بأنه سيتم الإيقاع بك.

فهم أشكال تسليع التواصل الاجتماعي

يشير كريستيان فوكس الى إن السلع هي "الشكل الأولي" للرأسمالية (Marx, 1976, 125) يسمح لنا تحليل ونقد ماركس للسلع بفهم أشكال تسليع التواصل الاجتماعي. إن "المعلومات سلعة غريبة: لا يتم استخدامها في الاستهلاك، ويمكن نسخها وتوزيعها بسهولة وبسرعة، ولها تكاليف إنتاج أولية عالية وتكاليف نسخ منخفضة، وتنطوي على مخاطر عالية وعدم اليقين بشأن ما إذا كانت قابلة للبيع أم لا، فهي غير منافسة في الاستهلاك، وتتطلب تدابير وقائية خاصة ليتم تحويلها إلى سلعة نادرة يمكن استبعاد الآخرين من

استهلاكها" (Fuchs 2016, 59). ويضيف "لذلك، فإن تراكم رأس المال في اقتصاد المعلومات يتطلب استراتيجيات خاصة، مثل تسليع المحتوى إلى جانب حقوق الملكية الفكرية وحقوق التأليف والنشر، وتسليع الوصول إلى المحتوى (مثل الاشتراكات)، وتسليع تقنيات الإنتاج والتوزيع والاستهلاك".

ويذكر أنه "تؤكد فكرة ماركس، أيضا؛ بأن شكل السلع ليس مناسبا للجوانب الإنسانية الأساسية للمجتمع، مثل الحب والتعليم والمعرفة والتواصل. إذا كان شكل السلع يعني عدم المساواة، فعندئذٍ يجب أن يكون المجتمع العادل حقًا والديمقراطي مجتمعًا قائمًا على المشاعات". هذا يعني إن نظام التواصل كمشاعات تتوافق مع جوهر الإنسانية والمجتمع والديمقراطية. لا يتم إنتاج المشاعات مثل المعرفة من قبل أفراد لوحدهم، ولكن لها طابع اجتماعي وتاريخي وتعاوني. لقد تم إنتاجها من خلال العمل العالمي: "العمل الشامل هو كل عمل علمي، كل اكتشاف واختراع، نشأ جزئياً عن طريق تعاون الرجال الذين يعيشون الآن، وجزئياً أيضاً من خلال البناء على الاعمال السابقة Marx, 1981, 199"

في هوس السلع المنتظم، تحجب الأشياء (السلع، المال) العلاقات الاجتماعية. على وسائل التواصل الاجتماعي للشركات، "تعتبر العلاقات الاجتماعية هي التجربة الفورية والملموسة، في حين أن شكل السلعة لا يواجه المستخدمين إلا بشكل غير مباشر" (كريستيان فوكس،13). إن الطابع الاجتماعي لهذه المنصات يخفي الشكل السلعي لهذه المنصات.

ذكر ماركس أيضًا فهمًا ديالكتيكيا للتكنولوجيا في رأس المال وGrundrisse. حيث "توقع ماركس ظهور اقتصاد المعلومات من خلال القول: إنه مع تطور القوى المنتجة، يزداد دور المعرفة والتكنولوجيا والعلوم في الإنتاج. مفهومه عن الفهم العام له أهمية خاصة في هذا السياق. وجادل بأن التكنولوجيا تجعل العمل اجتماعيًا أيضًا" (ديمتريس بوكاس، 3)، مثال على ذلك أن الرقمنة يمكن أن تحول المعرفة إلى هدية يتم توزيعها عبر الإنترنت.

أبرز ماركس أهمية النضالات الاجتماعية من أجل مجتمع عادل ومنصف، أي ديمقراطية تشاركية. ما دامت المجتمعات الطبقية موجودة، تظل الصراعات الطبقية حقيقة واقعة. يتواصل النشطاء فيما بينهم ومع الجمهور. لذلك، تعد تقنيات الاتصال، مثل وسائل التواصل الاجتماعي أو الهاتف المحمول أو البريد الإلكتروني، أدوات تنظيمية رئيسية في الحركات الاجتماعية والأحزاب السياسية. يوفر لنا ماركس فهما أفضل لطبيعة النضالات الاجتماعية في المجتمع الحديث. أخيرًا وليس آخرًا، غالبًا ما يبدو اليوم أن الإنترنت أو وسائل التواصل الاجتماعي والإعلام هي الأفضل تنظيمًا كشركات. ومع ذلك،

هناك أيضًا تقاليد بديلة. على سبيل المثال انظر الى منتجي الخدمات العامة الذين لا يستخدمون الإعلانات ويتشاركون المعرفة؛ كمشتركي الويكيبيديا، ومنتجي البرمجيات الحرة، ومبادرات Wi-Fi العامة المجانية، ومنصات المشاركة عبر الإنترنت غير الهادفة للربح مثل Freecycle أو Street Bank.

*** مستشار علمي سابق في وزارة العلوم والتكنولوجيا.**

المراجع:

1. Leo Hickman, Mon 1 Jul 2013. How algorithms rule the world, The British Guardian Newspaper.
2. Rhodri Marsden , Sunday 08 March 2015. Invasion of the algorithms: The modern-day equations which can rule our lives, The British Independent Newspaper.
3. https://youtu.be/4ChHc5jhZxs.
4. Andrew Griffin, Friday, 22 July 2016. Facebook is using smartphones to listen to what people say, professor suggests. The British Independent Newspaper.
5. https://inews.co.uk/news/technology/social-media-political-manipulation-soared-disinformation-uk-us-russia-propaganda-826934.
6. George Monbiot, 7 March, 2017. Big data's power is terrifying. That could be good news for democracy, The British Guardian Newspaper.
7. Wu Youyou, Monday 12 January 2015. Facebook knows you better than your friends do - because Likes reveal so much about your character, Cambridge University Press.
8. https://www.sciencealert.com/the-exquisite-beauty-of-nature-reveals-a-world-of-math
9. Selywn, Neil, 2019. What is Digital Sociology? Cambridge: Polity Press.
10. Van Dijck, José, 2018. The Platform Society: Public Values in a Connected World. Cambridge: Polity Press.
11. Fuchs, Christian. 2016. Critical Theory of Communication: New Readings of Lukács, Adorno, Marcuse, Honneth and Habermas in the Age of the Internet. London: University of Westminster Press.
12. Marx, Karl. 1976. Capital: A Critique of Political Economy, Volume 1.
13. Fuchs, Christian. 2016. Reading Marx in the Information Age: A Media and Communication Studies Perspective on Capital Volume 1
14. Marx K (1981) Capital. A Critique of Political Economy. Volume 3. London: Penguin.
15. Marx's Capital in the Information Age, Christian Fuchs, 2016 University of Westminster, UK http://fuchs.uti.at, @fuchschristian.
16. Theory, Reality, and Possibilities for a Digital/Communicative Socialist Society, Dimitris Boucas, University of Westminster and LSE, London, UK, tripleC: Communication, Capitalism & Critique 18, 2020, pp. 48-66

موقف بعض القوى القومية من نقابات العمال في العراق 1958 الى 1963
في ضوء مؤلفات النقابي القومي هاشم علي محسن[1]

فيصل الفؤادي

فجرت ثورة تموز المجيدة طاقات الجماهير الشعبية، وفي مقدمتها الطبقة العاملة العراقية، فاندفع العمال الشيوعيون واصدقاؤهم الى تأليف النقابات بهمة وحماس اضيفت اليها خبرة القادة والعمال النقابيين، والذين أطلقوا سراحهم. فتشكلت هيئات مؤسسة لمختلف النقابات. وقدمت طلبات اجازتها الى وزارة الشؤون الاجتماعية. وشرعت بممارسة نشاطها دون انتظار الاجازات، وشكل مكتبا مركزيا لقيادة النقابات مارس عمله بنشاط في تهيئة انظمة داخلية لها وتوجيه نشاطها[2].

وأصدر التنظيم النقابي، بأسماء قادته، وشخصيات نقابية بارزة، بيانا، في اليوم الاول من الثورة، يعلنون عزمهم على حماية الثورة ودعمها، ودعوتهم الى تحقيق مطامح العمال والشعب، واطلاق الحريات الديمقراطية والوقوف بحزم ضد الاقطاع وكبار الملاكيين والرأسماليين الكبار (الكومبرادور)، وانتهاج سياسة حازمة ضد الامبريالية، وفك ارتباطات العراق بحلف بغداد ومناهضة شركات النفط الاحتكارية وتحرير العملة الوطنية من

الكتلة الإسترلينية[3] ..الخ.

ان صراع القوى السياسية في جبهة الاتحاد الوطني أثر بشكل كبير على القوى النقابية بعد قيام الثورة، وكان بإمكان تجميع هذه القوى النقابية لتعزيز وحدة الطبقة العاملة. وقد عمقت هذا الانقسام والصراع القوى المعادية للطبقة العاملة وحركتها النقابية. ويحمل النقابي هاشم علي محسن[4] المسؤولية ايضا على عاتق النقابيين، اذ كان عليهم ان يفهموا الاحزاب السياسية وان يتصرفوا بوعي ووفقا لمصلحة الطبقة العاملة التي تقتضي ضبط حركة الصراع النقابي. ويحدد بعض النقاط ومنها ان ثورة تموز كانت ثورة تحررية برجوازية وبالتالي مرحلة لم تخرج عن نطاق حدود التحرر

الوطني السياسي والاقتصادي ومعنى هذا ان طبيعة المرحلة ما زالت تتحمل التعايش لصالح وحدة الموقف النقابي.

موقف الحركة القومية

تأسس حزب الاستقلال في عام 1947 وهو تنظيم يهتم بالحركة القومية العربية في العراق. وهو يعتبر من النواة المنظمة لنشوء العمل القومي الذي مثله حزب البعث اوائل الخمسينيات. وكان منهاج الحزب حافلا بالمطاليب القومية، غير ان ابرز سمة رافقت تاريخ الحزب هي بعده وانعزاله عن الطبقة العاملة وحركتها النقابية، الذي سجل لها التاريخ مواقف بطولية ومعارك دامية[5]. اما بالنسبة لحزب البعث، فقد عمد الى تشكيل مكتب مهني للعمال، كان اعضاؤه من طلاب المدارس. وعندما بدأ ممارسة نشاطه بين صفوف العمال سارعت السلطات الى مطاردة اعضائه بعد ان كشفتهم، فلجا بعضهم الى سوريا، حيث احتضنهم الحزب هناك ونظم لهم مكتبا واوراقا رسمية كتب عليها باللغة العربية والانكليزية اسم (التنظيم النقابي السري في العراق) وفي 29 /3 /1958 بعث الحزب رسالة باسم تنظيمه الحزبي الى الامين العام للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب، أسهب فيها بشرح الكفاح الذي يخوضه جهازه الحزبي السري والمطاردة التي يتعرض الها أعضاؤه. وطلبت الرسالة من الامين العام ان يعمل شيئا من اجلهم وان ينتصر لهم. وفي اوائل نيسان من نفس السنة، تلقى الامين العام طلبا رسميا باسم هذا التنظيم السري، بالانتساب الى الاتحاد ويضيف النقابي محسن الى هذه الموضوعة وقد ارفقت مع الطلب مذكرة أطلق عليها اسم الاوراق الثبوتية تضمنت مغالطات كثيرة كان غرضها تصوير هذا التنظيم الحزبي السري تصويرا غير واقعي بقصد اظهاره بشكل يوحي لمن يطلع على المذكرة، بانه التنظيم المهيمن على حركة الطبقة العاملة النقابية في العراق، وبالتالي فان منحه العضوية يصبح ضرورة تقتضيها مصلحة الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب. وقد نجحت المحاولة ورد الامين العام للاتحاد على الطلب المذكور في 30 /4 /1958 بكتابه المرقم 799 /58 بالموافقة ومما جاء في كتابه قوله "... ويسعدني جدا ان احيطكم علما بان طلب انضمامكم قد أدرج في جدول اعمال الجلسة القادمة للمجلس التنفيذي ليأخذ صفته الرسمية مؤكدا لكم قبوله.." وهنا يعلق النقابي محسن على القبول المتسرع فيقول، ان المحاولة كلها كانت مرتجلة ومتسرعة، مما جعلها تعود على الحزب (البعث) والحركة القومية بالضرر والاساءة. وقد اضطر الحزب في ما بعد الى مقاومة عناصرها وكشف زيف علاقتهم بالطبقة العاملة. وقد اشار المسؤول الذي عينه الحزب رئيسا في عام 1963 للمكتب التنفيذي المؤقت للاتحاد العام لنقابات العمال الى الملابسات التي ادت الى تنصيب تلك العناصر لتنطق باسم العمال. كما قلنا كانت رغبة حزب البعث في سوريا ضمان صوت العراق الى جانبهم، وقدم طلب الانتماء الى الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب، وكان مدعما بكتاب من قبل نائب رئيس اتحاد عمال سوريا وامين سره بصفة خاصة. ومما

جاء في الرسالة "يسرنا ان نرسل طي هذا المستندات والخطاب المقدم من زملائنا عمال العراق الاوفياء بخصوص الانتساب الرسمي للاتحاد" .. الخ.

في جواب الاخ الامين العام للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب، لم يتورع من ابلاغ افراد التنظيم النقابي السري في العراق الذين يقيمون في دمشق بقبول طلبهم.. انه لأمر غريب حقا ان يتصرف امين عام الاتحاد دولي للعمال بهذا الشكل ويتساءل النقابي محسن: ماهي الاسس التي اعتمدها الامين العام بقبول التنظيم النقابي السري في العراق، هل عن جهل وعواطف شخصية ام يستند الى مبادئ ومفاهيم نقابية يفترض ان يكون الامين العام أكثر النقابيين حرصا على الالتزام بها والتقيد بمنطوقها والعمل على احترامها؟ لقد تجاوز الامين العام ابسط مفاهيم ومبادئ العمل النقابي، ولم يبدِ اهتماما للأسس التي اعتمدها في رسالته الجوابية "ولا يسعني في هذه المناسبة الا ان اهنئ نفسي وزملائي العمال العرب بانضمامكم الى الاتحاد" قبل ان ينظر المجلس في طلبهم. اغلب الظن ان الامين العام، قد صُور له وافهم بان هذا التنظيم هو الممثل والمعبر عن حركة الطبقة العاملة النقابية في العراق، ولم يكن يدري انه تنظيم وهمي لا يمثل العمال ولا يعبر عن ارادتهم ولا يمت لهم بعلاقة، وهو لذلك لا يتعدى حدود اسمه والاوراق المثبت عليها والاشخاص المنشدين للمكتب الموجود في دمشق وليس في العراق.

ولم يقف الامر عند هذا الحد، اي عند حد ابلاغهم بقبول طلبهم فحسب، بل راح يعامل هذا التنظيم الوهمي كما يعامل اي عضو من اعضائه ولا يستند الى اي قاعدة عمالية حقيقية، قبل ان يطلع عليه المجلس وقبل ان يقول رأيه. وكان طلبهم مثار خلاف في المؤتمر الثاني للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب الذي عقد في 24 نيسان 1959 في القاهرة. وقد علق الامين العام الجديد محمد اسعد راجح ان "هذا التنظيم عند قبوله كان مثار خلاف بين فريق يعارض قبوله اساسا وفريق يرى ادخاله فورا لأسباب سياسية". كما ان السيد فتحي كامل الامين العام قد اكتشف ذلك بعد فوات الاوان ان هذا التنظيم مزيّف ولا يمثل سوى افراده الذي لا يزيدون على عدد اصابع اليد، لذلك تخلى عنه ولم يعد يسأل عنه. والسبب ان الامين العام التقى بعد ثورة تموز مع ممثلي الطبقة العاملة الحقيقيين لذلك اعطى اهتمامه لنشاط صادق جعفر الفلاحي ورفاقه، وحاول ان يوفق بينهم وبين القومي حسن عباس وجماعته. اما افراد التنظيم السري (بدل اسمه الى اتحاد العمال الجمهوري في العراق)، فلم يسأل عنهم على الرغم من ان موقفه هذا ادى الى ابعاده عن الاتحاد. واصيب الامين العام بخيبة امل وتبددت جميع احلامه وامانيه، وهو يطالع النداء الذي وجهته الهيئات المؤسسة لنقابات العمال في العراق في 31 /8 /1958 المرسل الى الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب والاتحادات العمالية العربية والاتحاد الدولي بمناسبة اجتماع نصرة الجزائر والذي لم يكن بين الممثلين الموقعين عليه واحدا من اسماء الذين خدعوه فترة من الزمن. ويشير النقابي محسن الى انه ليس ادل على هذه الحقيقة المرة وصواب هذا الكلام من ان مجموعة

عماد نعمة العزيز التي يطلق عليها اتحاد نقابات العمال الجمهوري بالعراق ويمثله اربعة اشخاص، وأطلقوا على عماد الرئيس وغازي العبدلي النائب للرئيس ويحيى الشيباني ومحمود الغزالي أعضاء، وسمي بالمجلس التنفيذي لاتحادهم. وقد قاموا بمراسلة اتحاد نقابات العمال العرب وقام المدعو عماد بترشيح نفسه لعضوية المجلس التنفيذي للاتحاد الدولي لنقابات العمال – "سيادة الامين العام للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب ، تحية عربية – تقرر تسمية عماد العزيز لعضوية اللجنة التنفيذية، كما ان الاتحاد له الرغبة في ارسال من ينوب عنه بضمن وفد الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب لحضور دورة منظمة العمل الدولية بصفة مستشار...وتفضلوا بقبول احترامنا –العنوان المؤقت دمشق الاتحاد العام لنقابات العمال الجمهوري عن المجلس التنفيذي لاتحاد نقابات العمال الجمهوري بالعراق"[6].

ان هؤلاء ومنهم السيد عماد نعمه العزيز يعتبر من وجهة نظر التاريخ منتحلا لصفات تمثل مراكز لا يجوز تبوأها، الا عن طريق الانتخاب الذي تجلى عبره ارادة العمال بمنح ثقتهم للمرشحين الذين ترى فيهم جماهير العمال المؤهلات التي تمكنهم من اداء المهام والواجبات النقابية التي تناط بهم. وبما ان عمادا والاشخاص الثلاثة الاخرين، قد أطلقوا على أنفسهم صفات نقابية يحملها اشخاص اخرون اكتسبوا الصفات ذاتها عن طريق شرعي فانهم ـ اي مجموعة عماد ـ يعتبرون منتحلين لصفات غيرهم، لذلك فانهم لا يعدون عن كونهم مزيفين، الامر الذي يصبح معه انتسابهم للاتحاد خطأ يتحمله الامين العام واتحاد عمال الجمهورية العربية المتحدة وهو خطأ تاريخي، خاصة فيما يتعلق بتعيين عماد العزيز امينا عاما مساعدا. وهو بهذه الصفة التي انتحلها باسم عمال العراق الذين كان لهم اتحاد اخر وله رئيس ونائب للرئيس واعضاء. هذا ما يقوله النقابي محسن.

في رسالة من السيد عماد العزيز بتاريخ 30 /6 /1959 الى الامين العام للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب، طلب فيها معلومات عن اجتماع منظمة العمل الدولية بجنيف لكي يرسل هذه الاخبار الى العراق. وهو يوهم اعضاء المجلس التنفيذي للاتحاد بأن اتحاد عمال العراق الجمهوري، اتحاد قائم وله وجود فعلي وقواعد تمثله في العراق، وهذه طريقة بارعة لقلب الحقائق وتطوير الاوهام لتظهر على غير حقيقتها، ومن المؤسف ان يشارك الامين العام نفسه فيها. فشيء اسمه اتحاد عمال العراق الجمهوري غير موجود في العراق اطلاقا. وبهذه الطريقة نجحت اللعبة التي انخدعت فيها الاتحادات العمالية العربية وانقل جزءا من هذه الرسالة: "سيادة الامين العام للاتحاد الدولي للعمال العرب.. تحية عربية – 1 - الرجاء تزويدنا من سيادتكم بمعلومات كافية عما دار اخيرا لمنظمة العمل الدولية بجنيف ... لغرض القيام بإرسالها الى العراق. 2 - نرجو ارسال خطاب الينا تذكرون فيه قبول انتساب عضوية العراق في الاتحاد الدولي للعمال العرب. 3 - نعتقد انكم اطلعتم على نشاط عمالنا في مناهضة الشيوعية في العراق والذي قامت بنشره الصحف والاصطدامات التي حصلت بينهم وكثرة الاعتقالات التي جرت على عمالنا في العراق... وان عوائل

العمال الشهداء والمعتقلين بحاجة الى المساعدات المالية ونرجو تحديد يوم العراق وقد اقره المؤتمر الثاني للعمال العرب. 4 - نطلب من سيادتكم عرض قضية العمال في جامعة الدول العربية. 5 - يعلم سيادتكم بان اتحادنا قد حصل على موافقة فتح مكتب له في دمشق نرجو مؤازرتكم ومديد به المساعدات المالية. 30 حزيران 1959"[7].

ويعلق النقابي محسن، ان هذا الاسم الوهمي غير موجود حتى على مستوى الورق. ويضيف في تعليقه على هذه الرسالة، ان المساعدات المالية بيت القصيد.. اعطوني جنيهات ونعطيكم نقابات ..! ويسأل اين المبالغ التي استلموها من جمع التبرعات وقبض الرواتب والمخصصات والمنح ولا يعرف عمال العراق مصيرها. اما فقرة فتح مكتب لها، فنحن نعلم ان هذه الجهة هي المكتب الثاني وعماد يريد المساعدة باسم العمال والعروبة. وهو يكتب التقارير الى الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب بعدة صفحات وفي ضوء عدد الصفحات يستلم مكافأة نقدية لكافة ما يكتب لأغراضه.

الموقف من مؤتمرات الاتحاد العام لنقابات عمال العراق

عقد المؤتمر الاول في 8 تموز 1959 في سينما الخيام في الباب الشرقي في بغداد وكانت مجموعة من اليافطات معلقة في داخل السينما وشارع الرشيد وشارع الخيام – افتتح المؤتمر رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم وحضور عدد كبير من الوفود الاجنبية كذلك ممثل الاتحاد العالمي للنقابات ابراهيم زكريا وكذلك ممثل الصين، وكاظم فرهود رئيس اتحاد الجمعيات الفلاحية وصفاء الحافظ باسم المنظمات الجماهيرية والمهنية وبعض من ممثلي النقابات في البلدان العربية وممثلي النقابات العراقية اضافة الى اعضاء المجلس التنفيذي للاتحاد العام. وبعد الكلمات والمناقشات العديدة تم انتخاب مجلس تنفيذي من 25 عضوا فاز فيها صادق جعفر الفلاحي رئيس الاتحاد وعلي شكر نائب الرئيس وطالب عبد الجبار سكرتير الاتحاد، اضافة الى هادي علوان لشؤون التنظيم وعبد القادر عياش للثقافة والتوجيه وارا خاجادور للشؤون الاقتصادية وكاظم الدجيلي للشؤون الدولية وكليبان صالح للعلاقات الوطنية وحكمت كوتاني محاسبا. وكان صدى المؤتمر كبيرا في اجواء من الحماس وانطلاقة الى العمل حيث خرجت مجموعة من القرارات والنداءات من المؤتمر من اجل الوحدة العمالية والمحافظة على الحريات النقابية والسلام العالمي والقضاء على التبعية والعنصرية والنعرات القومية وان النضال في معركة الامة العربية ضد الاستعمار وهي مساهمة عظمى في خدمة النضال العالمي، والقضاء على الرجعية في البلاد العربية. ونداء الى اتحاد النقابات العمال العرب في 19 تموز[8].

وكان موقف الزمرة (واتحادهم الوهمي) من المؤتمر التأسيسي في تموز 1959 والمؤتمر الاول شباط 1960 انهم اتهموا المؤتمر بأنه مؤتمر للعمال الشيوعيين وان الصحف الشيوعية تطبل وتزمر لسحب او لجر العمال وتوجيههم بالوجهة الاممية وتناسوا قضاياهم الاقتصادية المتأخرة

والبطالة المنتشرة. فافتتاح المؤتمر "ياعمال العراق اتحدوا" كان الغرض منه افهام نقابات العمال العالمي وممثلي وفود العالم المدعوين سيطرة الحزب الشيوعي على النقابات في العراق.

لم ينجح المؤتمر في جذب وفود من اتحاد النقابات العمال العربية

-ان الشيوعيين يريدون تحقيق الانضمام الى الاتحاد الدولي في براغ وابعاد عمال العراق عن الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب، ومحاولة جر بعض الاتحادات العربية للابتعاد عن اتحاد العمال العرب ولم يقف عند ذلك فهو يؤيد خطاب سكرتير اتحاد نقابات العمال العالمي الذي القاه بالنيابة ابراهيم زكريا السوداني. من جانب اخر ان خطاب زكريا معظمه سند لاتحاد عمال العراق وابداء كل مرونة ومساعدة في سبيل ان يسير في النهج الشيوعي الاممي وابعاده عن النشاط القومي وادخال الصبغة الشيوعية على عمال العراق... كما ان سياسة الحكومة تقف الى جانبهم ويختتم مصدرهم، هذا ما تمكنا من جمعه للاطلاع عليه. ويضيف عاشت وحدة النضال العربي. التوقيع، اتحاد نقابات العمال الجمهوري في العراق.

وهنا يعلق النقابي محسن فيقول – يذكر في التقرير اعلاه ان المؤتمر لم ينجح في جذب وفود من اتحادات نقابات العمال العربية للاشتراك فيه، بينما الحقيقة عكس ذلك اذ ان عددا من ممثلي النقابات العربية قد اشتركوا في المؤتمر، نذكر منهم ابراهيم زكريا عن اتحاد عمال السودان والاتحاد العالمي والمحجوب بن صديق عن الاتحاد المغربي للشغل. كما يشير التقرير الى ان احتجاجات ووقعت ضد المؤتمر واذيعت في بغداد، في وقت كانت فيه الاذاعة مجندة للمؤتمر وليس العكس. ويذكر ان المؤتمر قوطع من الاتحادات العمالية في العالم والعكس هو الصحيح لانه المؤتمر الوحيد الذي عقده عمال العراق وحظي بتأييد عالمي واسع التمثيل في حضور عدد كبير من الوفود الاجنبية، اضافة الى ذلك ان التقرير يوجه نقدا للمؤتمر لان الصيغة السياسية طغت على الصيغة النقابية. ويضيف مع ان عمادا وزمرته كان عملهم كله سياسيا، وليست له صلة بالصيغة النقابية لا من بعيد ولا من قريب. ولعله من المضحك حقا ان ياخذ عماد العزيز على المؤتمر التأسيسي لاتحاد عمال العراق، طغيان الصبغة السياسية في اعماله كما يشير، ولكن بعد 16 يوما اي في 6 /8 /1959 يخاطب الامين العام بقوله، نرجو تسهيل مهمته اي مهمة شاكر حليوه ما مكن. وشاكر هذا ليس نقابيا، بل هو سياسي من اقطاب حزب البعث.

اساليب مغلوطة ضد الاتحاد العام لنقابات عمال العراق – حيث اصدر اتحاد نقابات العمال الجمهوري في العراق بيانا ضد عقد المؤتمر التأسيسي الذي عقد في 8 تموز 1959 وجاء في تعليق النقابي محسن، الغرض من هذا البيان هو الضحك على الامين العام، اذا انهم لا يمثلون اية نقابة على الاطلاق، وقد شاركت كافة النقابات في المؤتمر ولم يسمع احد باتحاد الابطال الاربعة (مجموعة عماد العزيز) القائم على اساس اخذ الجنيهات والحديث باسم النقابات على مستوى الورق والكلام

اللامسؤول. وفي ما يأتي مختطف من البيان "بيان اتحاد نقابات العمال الجمهوري في العراق – يستعد الشيوعيون في عراقنا الحبيب لعقد ما يسمونه (المؤتمر التأسيسي لاتحاد نقابات العمال في العراق) في الثامن من تموز الجاري فأخذت الصحف الشيوعية تطبل وتزمر الى هذا المؤتمر لإعطائه الصيغة القانونية لهذا الاتجاه الشيوعي، وقد وجهت الدعوة الى عدد من الدول بغية ضم عمالنا الى نقابات العمال الشيوعي في براغ بتشيكوسلوفاكية..... وسوف يناضل عمالنا مع كافة عمال العالم من اجل قضايا العمال العادلة وارجاع العراق وعمال العراق الى الوجه العربي الاصيل. وبهذا البيان اراد هؤلاء ان يلتفت لهم الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب من انهم يعملون من اجل خير العمال". ويشير النقابي محسن الى ان هذه المهزلة التي مثلتها هذه الزمرة لم تقف عند حد السماح لنفسها لتمثيل العراق، بل المهزلة سحبت ذاتها على كيان الهيئة الدولية، اي الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب الذي بدا اسمه يعرف في الاوساط الدولية على انه اتحاد للمنظمات العمالية وليس اتحادا للعناصر الطفيلية التي اتيحت لها الفرصة لان تمارس عملية تشويه كبرى باسم عمال العراق الذين لم يكن لهم علم ولا يتحملون مسؤولية ما. ويضيف فاذا كان لا بد من تحديد تبعة مثل هذه الاعمال امام التاريخ، فان حزب البعث وبعض النقابيين وبعض الاجهزة الرسمية في مصر وسوريا انذاك تتحمل المسؤولية كاملة. فالمهزلة لم تقف عند حد السماح لنفر يبلغ عددهم في يوم من ايام تلك الفترة عدد اصابع اليد الواحدة، بان ينصبوا من انفسهم ناطقين باسم عمال العراق مقابل رواتب ومخصصات ومنح ومبالغ جمعت باسم عمال العراق دون ان يكون لهم علم بجمعها او صرفها. ان المهزلة لم تقف عند هذا الحد بل سحبت نفسها على الحركة النقابية العربية، اذ رشح عماد نفسه الى عضوية المجلس التنفيذي للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب، وبعدها عين امينا عاما مساعدا في الاتحاد واصبح لا ينطق باسم عمال العراق فحسب بل ينطق باسم العمال العرب ايضا. فاية مهزلة هذه التي كانت تمثل على مسرح مكتب الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب في شارع قصر النيل؟[9].

ومما جاء في تقرير مكتب دمشق، الامين العام المساعد عماد العزيز وهو مرسل الى الامين العام للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب، بعد عقد المؤتمر الاول في 9 /2 /1960 (ان صادق جعفر الفلاحي انتخب عضوا للعلاقات الخارجية وكان سابقا رئيس اتحاد عمال العراق وهو عامل نسيج ولكنه لم يعمل بهذه المهنة من قبل 12 سنة وهو شيوعي وعضو مكتب سياسي للحزب الشيوعي العراقي) .ان هذا الكلام غير صحيح، ذلك ان صادق نقابي قديم ومعروف بين اوساط عمال الغزل والنسيج وعمال العراق ايضا، وقد قاد نقابة عمال الغزل والنسيج في العهد الملكي البائد ونجح في قيادة كثير من الاضرابات لدرجة ازعجت العهد المباد، وبعد هذا التاريخ ظل صادق يمارس عمله النقابي والمهني لذلك كله، فان القول بانه لم يمارس مهنته منذ 12 سنة قول كذب. ووجود صادق على راس نقابة النسيج يفنده ويفضح حقيقته.

ومما هو جدير بالذكر ان عمادا في تقريره الذي رفعه في 28 /7 /1959 لم يذكر هذه المعلومات عن الفلاحي بل اكتفى بوصفه شيوعيا وعضو اللجنة المركزية للحزب لشيوعي فقط، بينما اصبح الان عضوا في المكتب السياسي وعاطلا عن العمل ومعينا من قبل الحزب.. الى اخر الكلام الذي لا يراعى ذمة ولا يخشى تأنيب ضمير.

الدخلاء على الحركة النقابية

هذه العبارة وردت ضمن نص البيان الذي اصدرته زمرة اتحاد اعطونا جنيهات ونعطيكم نقابات في 11 /2 /1960، والمقصود فيها أعضاء المؤتمر الاول للاتحاد العام لنقابات العمال في العراق اي الشيوعيين والمؤيدين لهم. يذكر هنا النقابي القومي محسن - للمنطق حدود اذا خرج عنها فقد معناه، وعجز عن تحقيق غرضه. واتهام الشيوعيين بانهم دخلاء على الحركة النقابية، اتهام لا يستند على اي اساس معقول. هذا قول مغلوط ولا ينطبق الا على قائليه ومرددية. وعلى سبيل المثال فيمكن ان يقال عن الذين لا يلتزمون الصدق فيما يكتبون ويقولون انهم دجالون، وعن الذين ينتحلونها انهم منتحلون، وعن الذين يجمعون الاموال باسم عمال العراق دون ان يخولهم العمال القيام بهذا العمل، اضافة الى انهم لم يقوموا بتقسيم الاموال التي جمعوها الى العمال الذين جمعت باسمهم هم محتالون.

بداية النهاية

بدأت هذه الزمرة عملها بدفع وتشجيع ودعم من حزب البعث وانتهت الى موقف وصف افرادها مسؤول كبير بحزب البعث بأنهم "...لا يمتون للحركة النقابية في العراق بصلة". اضافة الى ان عمادا كتب بخط يده في عام 1961 بانه ليست له صفة نقابية تخوله تمثيل عمال العراق لدى الامانة الامة.. ويضف النقابي محسن، لنتابع الزمن جريا وراء مسيرة هذه الزمرة. ولنقف عند كتاب عماد المرقم 403 والمرسل الى الامين العام في 19 /6 /1960 والذي وقعه هذه المرة عماد بصفته رئيسا لاتحاد نقابات العمال الجمهوري وليس بصفته امينا عاما مساعدا. سيادة الامين العام لاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب.. تحية عربية ..اذاع راديو بغداد في نشرته الاخبارية مساء الاحد 19 /6 /1960 في الساعة الثانية بيان التضامن العربي في ضوء اتصالات في جنيف بمناسبة انعقاد الدورة 44 لمؤتمر العمال الدولي وحضور ممثلي النقابات العمالية العربية. وعلى اثره صدر بيان يوم 10 /6 /1960 جاء فيه "يعلن الموقعون عن عزمهم المشترك للدفاع عن الكيان النقابي العربي ..وقد وقعه من العراق الشيوعي الارمني ارا خاجادور الذي ادعى تمثيله لعمال العراق وادعى انه السكرتير العام لاتحاد نقابات العمال في العراق. نرجو تزويدنا بمعلومات وتفسير ذلك البيان ..عاشت وحدة العمال العرب.. عماد العزيز رئيس اتحاد نقابات العمال الجمهوري في العراق". ويعلق النقابي محسن: "يستغرب عماد ان يقوم الامين العام للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب بالاتصال بممثلي الحركة النقابية في العراق، ويعتبر مثل هذا الاتصال عملا معاديا يتم من وراء ظهر

اتحاده المؤلف منه ومن نائبه والمكتب في دمشق".

اولا – ان التضامن مع امثاله (عماد العزيز ومجموعته) امر غير مجد، وبالتالي فالامانة العامة للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب قررت ان تسعى لايجاد تضامن فعلي وحقيقي بين الممثلين الشرعيين والفعليين للطبقة العاملة في كافة ارجاء الوطن العربي. ولابد ان نسجل لاسعد راجح الامين العام السابق للاتحاد نجاح جهوده في هذا المجال. وان سياسته هذه، وان جاءت متأخرة الا انها افضت الى تحقيق التضامن بين جميع المنظمات العمالية النقابية في الوطن العربي. وكان من الطبيعي جدا ان يتحقق طالما ان السير نحوه قد اعتمد الاتصال المباشر والمخاطبة الموضوعية مع الممثلين الذين يعيشون مع طبقتهم والمستوعبين للمعاناة اليومية لجماهير العمال. وفي اقرار هذه الحقيقة تكمن مخاوف من اعتاد على الجلوس وراء طاولة مكتب دمشق ليكتب التقارير.

ثانيا- انكشاف وافتضاح النوعية التي مثلتها زمرة طيلة ما يزيد على السنتين. كانت خلالها تبدد الاموال والجهود فيما لا طائل من ورائه. لذلك فان الامين العام بدا يضيق بهذه الزمرة ذرعا ورغب في اجراء اتصال مباشر مع الاتحاد العام لنقابات العمال القائم والمنبثق عن الانتخابات التي جرت تموز 1959.

ثالثا- يرد في كتابه عن السكرتير العام للنقابات قوله (..وقد وقعه عن العراق الشيوعي الارمني ارا خاجادور الذي ادعى تمثيله لعمال العراق، وادعى انه السكرتير العام للاتحاد نقابات العمال في العراق... ان الانسان مهما كان مستواه ومعتقده لا يمكن ان تبلغ به المغالطة حدا لهذا الحد. ذلك ان عمادا وهو يكتب هذه العبارة التي جاءت في آخر الكتاب، لا يخجل من بصم توقيعه على الكتاب بصفته رئيسا لاتحاد نقابات العمال في العراق. مع انه عمره لم يكتسب الصفة النقابية ولم يمنحه عمال العراق ثقتهم لا بالتصويت ولا بالمراسلة. ليس في هذا الوقت فحسب، بل وبعد ذلك في الاعوام التالية اذ اضطر ابراهيم جواد ـ يمثل اتحاد عمال العراق ـ الى ابداء استغرابه من وجود شخص يمثل اتحاد عمال العراق، وكان هذا في عام 1961[10].

ولكيلا نظلم الامين العام وحتى العمال العرب، لا بد ان نشير الى هذا النفر حيث نجح في تضليل اعضاء المؤتمر الثاني للاتحاد والمجلس التنفيذي للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب الذين لم يكونوا يعلمون ماهية ادعاءات هذه الزمرة، وبتعبير ادق غلبوا على امرهم.

انضمام الاتحاد العام لنقابات العمال في العراق الى اتحاد نقابات العمال العرب

منذ اجتماع المجلس التنفيذي للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب الذي انعقد في 23 /4/ 1960 بدأت الامور والتطورات تسير باتجاه لم تعد تجدي معه احتجاجات عماد ومذكراته الى الامين العام الذي اتصل بالسكرتير العام لاتحاد عمال العراق في حزيران من عام 1960، ولم يهتم كثيرا لاحتجاج عماد على توقيع رئيس الاتحاد بيانا مع رئيس اتحاد عمال العراق. وهكذا كانت الوقائع تتعاقب لغاية 15 /6 /1961 يوم اتخذت قيادة الاتحاد العام لنقابات

العمال في العراق قرارا بالانضمام الى الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب. وبلغ القرار برقيا الى رئيس الاتحاد عبد السلام الارغا[11].

ثم بعث عبد السلام الارغا بالرسالة التالية ردا على برقية السكرتير العام لاتحاد عمال العراق، نقتطف منها: تحية عربية نقابية وبعد، فقد تلقينا بكل تقدير واعتزاز برقيتكم المتضمنة طلبكم الانضمام للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب، واننا نبارك فيكم هذه الخطوة الجبارة نحو توحيد نضال وكفاح العمال العرب في جميع الاقطار العربية، نرجو ان يكون هذا الانضمام فاتحة خير لما فيه رفع شأن الامة العربية المظفرة. وقد كنا على يقين تام بأن اشقاءنا مهما اختلفوا وابتعدوا لا بد ان يعودوا الى الاخاء والتعاون، طالما ان هذا الدم العربي الزكي يجري في دمائنا حرا شريفا. اننا نحارب الاستعمار والصهيونية والاستغلال والاقطاع كما تحاربونه، بالامس القريب استطعنا في اتحاد كلمتنا من النصر في قضية الباخرة كليوباترا وسننتصر في كل المعارك هذا ايماننا. ...ويضيف لقد ابرقنا الى الامين العام للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب طلبكم بالانضمام والله اكبر والعزة للقومية العربية الظافرة ..التوقيع رئيس الاتحاد عبد السلام الارغا[12]. وهكذا تم انتساب الاتحاد العام لنقابات العمال في العراق الى الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب لاول مرة.

الهوامش:

1. اصدر خمسة اجزاء من (تطورالحركة النقابية في العراق) وهي مجموعة كراريس على شكل ملحق لجريدة صوت العمال كما اصدر كتابا اخر بعنوان (دور النقابات في بناء الحركة الشعبية) اصدار تموز 1965 وله مقالات كثيرة منشورة في الصحف والمجلات وهي تتحدث عن تاريخ الطبقة العاملة العراقية منذ نشؤءها حتى عام 1969.وتم طبع بعضها في مطبعة الشعب ومطبعة الثورة في بغداد وبسنوات مختلفة.
2. ارا خاجادور، من تجارب شخصية في العمل النقابي العمالي في العراق المطبعة بلا ايار 1984 ص33
3. الثقافة الجديدة الدور المجيد لحركة العمال النقابية في ثورة 14 تموز 1958 عدد145 لسنة 1983 اب ص 110
4. كان النقابي هاشم علي محسن (1928 - 1989) رئيسا لاتحاد نقابات العمال في العراق ورئيسا للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب بعد انقلاب تشرين الثاني 1963. وكان عضوا في تنظيم الحركة الاشتراكية العربية لاحقا.انفصل عن الحركة واسس حزب العمل الاشتراكي العربي في العراق. انتقل الى لبنان واستقر فيها وتعرض تنظيمه الى ضربة قاضية عام 1978 بعد كشف خلاياه من قبل مديرية الامن العامة.
5. هاشم علي محسن تطور الحركة النقابية في العراق ج4 ص 57
6. هاشم علي محسن، المصدر ذاته، ص 62
7. المصدر ذاته، ص 73و 74
8. ايها الاخوان الاعزاء،....ان مؤتمرنا يحيي كافة الاتحادات العمالية في الاقطار العربية ويعمل في سبيل الحريات الديمقراطية والنضال المشترك ضد اساليب الحكم الدكتاتوري الى حياة حرة كريمة.
9. محسن علي هاشم، ص72
10. المصدر نفسه، ص 74
11. هاشم علي محسن تطور الحركة النقابية في العراق الجزء الخامس ص12 .
12. المصدر السابق ج 5 ص 13 . الباخرة كليوباترا من البواخر التابعة لمصر والتي تضامن معها الاتحاد العام لنقابات العمال في العراق.

قراءة في مفهوم العدالة الاجتماعية عند سيد قطب

د .مجيد إبراهيم خليل

شهدت مصر وأغلب البلدان العربية، منذ أوائل القرن الماضي، حركات وطنية تحررية تسعى إلى التخلص من هيمنة الأجنبي ونيل الاستقلال وبناء دولة يسودها السلام والعدل والأمان. وكانت وراء هذا الطموح النبيل قوى وطنية متنوعة المشارب والاتجاهات قدمت التضحيات الكبرى من أجل حرية الوطن وسعادته. وكانت المرجعيات الفكرية لهذه القوى الوطنية متنوعة ما بين نموذج يستند إلى تراث الماضي، ونموذج آخر يسعى إلى التحديث والاستجابة لمتغيرات ومعطيات العصر، وآخر يسعى إلى التوفيق بين الإثنين. وفي خضم الصراع الجاري على السلطة يمكن التمييز بين تيارين: تيار يستلهم الماضي ويسعى إلى إقامة ما يسميه الدولة الدينية، وتيار آخر يسعى إلى بناء دولة المواطنة، الدولة المدنية التي يمكن أن تحقق قدرا معقولا من متطلبات العدالة الاجتماعية لمواطنيها.

ومنذ ثلاثينات القرن الماضي نشطت في مصر حركة الإخوان المسلمين، وكان سيد قطب 1906 – 1966 وهو عضو سابق في مكتب إرشاد الجماعة قد ألف كتابا بعنوان "العدالة الاجتماعية في الإسلام" وقد توالت مؤلفات كثيرة تعالج موضوع العدالة الاجتماعية، وغدت مطلبا لكثير من القوى السياسية المتنوعة في أيديولوجيتها وطرحته في برامجها كما هو الحال في مصر والعراق وغيرها من البلدان. ونود في قراءتنا لهذا الكتاب أن نتبين الظروف التي دعت لظهوره، ومفهوم قطب للعدالة الاجتماعية، كيف يراها، وما وسائل تحقيقها، مدى قابليتها للتطبيق، ومن له مصلحة بتطبيقها، وغيرها من الأسئلة.

يقع الكتاب في 216 صفحة من القطع المتوسط، ويتضمن مجموعة من العناوين، عددها تسعة، وبعضها له عناوين فرعية، صدر الكتاب عن دار الشروق بالقاهرة، ط 13 1993. وأدناه عرض لمضمون الكتاب:

في العنوان الأول: الدين والمجتمع بين المسيحية والإسلام: عرض للفضاء الذي يود التحدث فيه أو هو تصوره لواقع الحال، فهو يرى أننا نستورد المبادئ والنظم والقوانين من الخارج، ويقف بالضد من يقول بفكرة أن الدين صلة بين العبد وربه، وأن الدين مخدر لاستغلال الكادحين، ومن وجهة نظره أن هذه نظريات غريبة على الإسلام

ومستوردة أيضا. أما المسيحية فإنها نشأت في وقت "تحجرت فيه الديانة اليهودية واستحالت طقوسا جامدة لا حياة فيها ومظاهر خاوية لا روح فيها" ص 8 انصرفت المسيحية إلى التهذيب الروحي والتطهير الوجداني، وتركت المجتمع للدولة تنظمه بقوانينها، ومن هذا المنطلق يفسر الكاتب العزلة بين الدين والدنيا في حياة الأوربيين منذ القدم الى يومنا هذا.

تطورت الصناعة ونشأ عنها قطبان: العمال وأصحاب رؤوس الأموال، الذين انتقلت الهم السلطة الحقيقية من الدولة، وقد انضمت الكنيسة اليهم. ووجدت الطبقات الكادحة أن الكنيسة تتخذ من الدين مخدرا للكادحين، يمنيها العوض عن الدنيا في الآخرة لهذا أعلنت الثورة على الدين وقالت أنه مخدر الملايين، وبهذا التحليل يصل الكاتب الى الاستنتاج الآتي "ومن هنا كان العداء الجاهر الصريح بين الشيوعية والدين" ص 11 ويضيف الكاتب على هذا الاستنتاج هامشا هذا نصه "لا ينبغي أن ننسى -مع ذلك- أن الشيوعية مؤسسة يهودية كالماسونية، وأن أولى ركائز الخطة في تدمير العالم -غير اليهودي- هي سلب الدين منه وإبعاده عن هذا المقوم الأساسي للحياة" بهذا الحكم القاطع يقيم الكاتب الشيوعية، وقد أشار قبلا الى صراع المصالح وتناساها بعد أسطر.

ويرى المؤلف أن الإسلام هو العبودية لله وحده وإفراده بخصائص الألوهية وفي أولها "الحاكمية"ص 12 ولا عزلة بين الدين والدنيا ولا بين العقيدة والاجتماع كما كان الحال في المسيحية التي صاغتها المجاميع المقدسة.ص 14 وفي الإسلام بحسب رأيه علماء بالدين وليس رجال دين، ولهذا يتوصل الى أنه لا صراع بين علماء الدين والسلطان على مصالح اقتصادية أو معنوية يتنازعانها، فليست هناك سلطة روحية وأخرى زمنية في الإسلام. ولا توجد أسباب لعزل الدنيا عن الدين -كما حصل في أوربا- ولا أسباب كذلك للعداوة بين الإسلام والكفاح لتحقيق العدالة كالعداوة بين المسيحية والشيوعية، "فالإسلام يفرض قواعد العدالة الاجتماعية ويضمن حقوق الفقراء في أموال الأغنياء ويضع للحكم وللمال سياسة عادلة" ص 16 - 17

ثم يتساءل الكاتب عن مدى صلاحية تطبيق النظام الإسلامي الذي كان مطبقا في عصر تاريخي خاص، ويجيب أن الله كان في علمه التطور التاريخي وما يترتب عليه من تطور اجتماعي واقتصادي وفكري عام، ولهذا وضع المبادئ العامة والقواعد الشاملة وترك التطبيقات لتطور الزمان. ص 18-17 وأشار الى جهد الفقهاء في التطبيق والقياس عندما كان المجتمع محكوما بشريعة الإسلام ثم توقف هذا الجهد عندما تخلى المجتمع عن الإسلام منذ أن تغلب الاستعمار الصليبي على دار الإسلام! ولم يسأل المؤلف نفسه: متى وأين كان المجتمع محكوما بالشريعة؟ ومتى تخلى عنها؟ ولأي سبب؟

أما عن طبيعة العدالة الاجتماعية في الإسلام، فإن قطب يعتبر العدالة الاجتماعية فرعا من التصور الإسلامي عن الألوهية والكون والحياة، وللإسلام

تصوره الكامل في القرآن والسنة. ص 20 الإسلام يعرض صورة كاملة متناسقة، وهو يتولى تنظيم الحياة الإنسانية، وقد جاء ليوحد القوى والطاقات ويمزج الأشواق والنزعات وينسق بين اتجاهاتها جميعا ويعترف بها وحدة متكاملة في الكون والحياة والإنسان. ص 24 وعن تلك الوحدة الكبرى تصدر تشريعاته وقواعده في سياسة الحكم وسياسة المال.

ويخلص المؤلف الى أن إدراك الشمول في طبيعة النظرة الإسلامية للإلوهية والكون والحياة والإنسان، يؤدي الى إدراك الخطوط الأساسية للعدالة الاجتماعية في الإسلام. ص 26 وعلى خطين كبيرين هما: "الوحدة المطلقة المتبادلة المتناسقة، والتكافل العام بين الأفراد والجماعات يسير الإسلام في تحقيق العدالة الاجتماعية" ص 27 هكذا وبأسلوب إنشائي يفترض الكاتب أو يتخيل صورة مثالية نموذجية للإسلام ويضفي نظرة غير واقعية، ليقرر أن الحياة في نظر الإسلام تراحم وتعاون وتكافل بين المسلمين خصوصا وبين جميع أبناء الإنسان عموما.

ويضع المؤلف ثلاثة أسس للعدالة الاجتماعية:

1- **التحرر الوجداني**: تستند العدالة الاجتماعية الى شعور نفسي وعقيدة من الداخل، ويرى أن المسيحية والشيوعية لا تكفل العدالة لغياب التحرر الوجداني من داخل الضمير، وأن الإسلام بدأ تحرير الوجدان البشري من عبادة أحد غير الله فلا عبادة لسواه ولا حاكمية لغيره. وكل فرد صلته مباشرة بالله دون وساطة، وبهذه الصلة لا يتأثر بشعور الخوف على الحياة أو الرزق أو المكانة، لأن الحياة بيد الله وليس لمخلوق قدرة على أن ينقص هذه الحياة ساعة. "ويقرر القرآن أن خوف الفقر إنما هو من إيحاء الشيطان" ص 37 والرزق بيد الله وحده ولن يملك أحد من عباده الضعفاء أن يقطع رزق إنسان، والإسلام يحرص على أن يتحرر الفرد من الخوف على المركز والمكانة. المؤلف لا يرد الفقر الى عوامل اجتماعية، ويغفل عن الظلم والاستغلال وملاحقات الأنظمة اللاديمقراطية التي تؤدي الى قطع الأرزاق وملاحقة وتغييب المعارضين للسلطة.

وبرأي المؤلف فإن عبودية القيم الاجتماعية: قيم المال والجاه والحسب والنسب يضعها الإسلام موضعها بردها الى اعتبارات ذاتية كامنة في نفس الفرد أو واضحة في عمله. ص 38 والمؤلف يغفل أنها لاتقتصر على الاعتبار الذاتي بل الموضوعي فالجاه والمنزلة تتأتى من المال والنفوذ الاقتصادي، وهناك ظروف تجعل المعني أقوى من غيره وأكثر تحكما. يقول المؤلف: وإذا كانت النفس مستذلة للذاتها وشهواتها ومطامعها وأهوائها فلا تبلغ التحرر الوجداني الكامل ليحقق لها العدالة الاجتماعية، فالحل في تحرر النفس بأن تضع اللذات والمطامح في كفة، وحب الله ورسوله في كفة أخرى. ص 41 - 42 بهكذا مقترحات أو حلول معتمدة على الشعور يطرحها خيال الكاتب.

2- **المساواة الإنسانية**: مبدأ نابع من

الضمير، مصون بالتشريع. ص 44 والإسلام يقرر وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير، في الحقوق والواجبات أمام القانون وأمام الله، لا فضل إلا للعمل الصالح ولا كرامة إلا للأتقى. ص 45 لم يذكر المؤلف أن المساواة الاجتماعية قائمة على تكافؤ الفرص، حق العمل، التعليم، الرعاية الصحية، وغيرها من الأمور.

ويرى الكاتب أن الإسلام كفل للمرأة المساواة التامة مع الرجل من حيث الجنس والحقوق الإنسانية، فهما يتساويان في الناحية الدينية والروحية، كذلك في الأهلية للتملك والتصرف الاقتصادي. ص 47 ويبرر إيثار الرجل بضعف نصيب المرأة في الميراث برده الى تحمل الرجل مسؤولية إعالة الأسرة. كما يبرر قوامة الرجل برده الى الاستعداد والمرانة، بينما تنشغل المرأة بتكاليف الأمومة التي تنمي عندها جانب العواطف بقدر ما ينمو عند الرجل التأمل والتفكير، وهذا التعليل نفسه يراه في الشهادة، فإذا نسيت المرأة أو جرفها انفعال ذكّرتها الثانية. ص 48. إن القوامة التي عللها الكاتب تعليلا غير مقنع، سببها اجتماعي يتعلق بمدى مشاركة المرأة في العمل، ومردوده المالي، كذلك موضوع الشهادة.

يقول الكاتب أن الغرب أخرج المرأة من البيت لتعمل لأن الرجل نكل عن إعالتها. ص 50 يغفل الكاتب الثورة الصناعية والحاجة الكبيرة الى الأيدي العاملة، وخروج المرأة للعمل لهذا السبب. ثم يقول: طالبت المرأة بالمساواة في الأجرة لتأكل وتعيش، وليس لأنها ند للرجل وتؤدي نفس العمل. ويرى المؤلف: أن الشيوعية ذات دعوى عريضة في مساواة المرأة بالرجل، ومتى استوى العمل والأجر فقد تحررت المرأة وأصبح لها حق الإباحية كما هو حق للرجل. ص 50 وحسب رأيه: المسألة في عرف الشيوعية لا تعدو الاقتصاد وأن الحقيقة كما يقول هي نكول الرجل عن إعالة المرأة. هكذا يقرن قطب عمل المرأة وتحررها ومطالبتها بحقوقها بالإباحية.

ومع ذلك يؤكد قطب أن الإسلام "قد منح المرأة من الحقوق منذ أربعة عشر قرنا ما لم تمنحه إياها الحضارة الغربية حتى اليوم" ص 51 وهو قد منحها عند الحاجة حق العمل وحق الكسب ولكنه أبقى على حق الرعاية في الأسرة. يشير الى العمل عند الحاجة وليس حقا لها كما اعتبر الرعاية وقفا على المرأة تكريسا لملازمتها البيت.

3- **التكافل الاجتماعي**: يقول قطب إن "الإسلام يقرر مبدأ التكافل في كل صوره وأشكاله. فهناك التكافل بين الفرد وذاته، وبين الفرد وأسرته القريبة، وبين الفرد والجماعة، وبين الأمة والأمم والأجيال المتعاقبة أيضا" ص 53 ويهاجم الشيوعية لأنها حسب رأيه حاولت أن تقضي على الأسرة "بحجة أنها تنمي أحاسيس الإثرة الذاتية وحب التملك وتمنع شيوعية الثروة وشيوعية ملكية الدولة للأفراد" وهذا محض ادعاء وافتراء من المؤلف لا أساس له ويناقض الواقع.

ومن مظاهر التكافل العائلي في الإسلام التوارث المادي للثروة. ويغفل أنه موجود أيضا عند غير المسلمين. ويفترض التكافل بين الفرد والجماعة وبين الجماعة والفرد فكل فرد مكلف أن يرعى مصالح الجماعة.

ويوضح المؤلف وسائل العدالة الاجتماعية في الإسلام، فيرى أن الإسلام أقام العدالة على ركنين قويين: ''الضمير البشري من داخل النفس والتكليف القانوني في محيط المجتمع'' ص 63 فهو لا يضع ضوابط قانونية وإنما رقابة الضمير التي يفترض فيها الإيجابية، ويغفل واقع الحياة وصراعاته وظلم واستغلال البشر بعضهم لبعض ودوافعه. ويدلل المؤلف على الفكرة بالقول أن الإسلام جعل الضمير البشري حارسا على التشريعات، مثال ''الشهادة'' باعتبار مردها الضمير الفردي وعليه رقيب هو خشية الله، وهو افتراض من المؤلف الذي يؤكد ''على هذا الضمير الذي رباه الإسلام، وعلى التشريع الذي جاءت به شريعته اعتمد في إرساء قواعد العدالة الاجتماعية وبهذه الوسيلة المزدوجة نجح في إنشاء مجتمع إنساني متوازن متناسق'' ص 64 واختار الكاتب نموذجا تطبيقيا هو الزكاة والصدقة.

يرى المؤلف أن الإسلام سار في تحقيق العدالة الاجتماعية معتمدا على وسيلتيه الأساسيتين: التشريع والتوجيه في تحقيق العدالة الكبرى في كل حقل من حقول الحياة ''ولقد آتى هذا النهج ثمراته في فجر الإسلام، وإنه لقادر على أن يعيدها في الحاضر والمستقبل''. ص 74 الكاتب يرسم صورة مثالية غير متطابقة مع الواقع الذي شهد منذ فجر الإسلام صراعات على المال والسلطة، ولا ينظر إلى الأحوال والظروف المتغيرة، وكأن الزمن ساكن ويمكن استعادته.

ويعالج المؤلف سياسة الحكم في الإسلام، حيث يرفض مقارنة نظام الحكم الإسلامي مع أي نظام آخر قبل الإسلام أو بعده لأن هذا يعبر عن إحساس داخلي بالهزيمة أمام النظم التي صاغها البشر. الإسلام متفرد وقد قدم للإنسانية علاجا كاملا لمشكلاتها جميعا. ص 75 نلاحظ الإطلاقية دون حسبان المتغيرات وتبدل الأحوال، وحكمه بالسلبية المطلقة على النظم غير الإسلامية يجافي الواقع.

ثم يقول: إن القاعدة التي يقوم عليها النظام الإسلامي هو أن الحاكمية لله وحده، فهو الذي يشرع وحده، وسائر الأنظمة تقوم على أساس أن الحاكمية للإنسان فهو الذي يشرع لنفسه. والنظام الإسلامي لا يتشابه أو يتوافق مع أي نظام آخر، فهو نظام مستقل بفكرته وبوسائله. نشأ مستقلا وسار في طريقه مستقلا. إن الكاتب ينكر التطور، والتأثير والتأثر، وهو مافعله الإسلام حيث أبقى على كثير من الأفكار والشعائر التي سبقت ظهوره. ولا يستسيغ قطب من يتحدثون عن ''اشتراكية الإسلام'' و''ديمقراطية الإسلام'' لأن هذا خلط بين نظام من صنع الله وأنظمة من صنع البشر. ثم يقول: يقوم النظام الإسلامي على فكرتين أساسيتين ''فكرة وحدة الإنسانية في الجنس والطبيعة والنشأة. وفكرة أن

الإسلام هو النظام العالمي العام الذي لا يقبل من أحد نظاما غيره لأنه لا يقبل من أحد دينا إلا الإسلام" ص 78 برأي المؤلف أن الله لا يقبل أصحاب الديانات الأخرى عدا الإسلام.

وبرأيه فإن نظرية الحكم في الإسلام تقوم على أساس أن الحاكمية في حياة البشر لله وحده، وفي هذه القاعدة يختلف نظام الحكم الإسلامي عن كل الأنظمة التي وضعها البشر. والخطوط الأساسية لها هي: أ-العدل من الحكام. ب-الطاعة من المحكومين. ج-الشورى بين الحاكم والمحكوم.

وعن رأيه في سياسة المال في الإسلام: يرى قطب أنه في سياسة المال يتحقق معنى العبودية لله وحده، بأن يخضع تداول المال لشرع الله الذي يحقق مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة. وهو يتبع في تحقيق هذه السياسة وسيلتيه الأساسيتين: التشريع والتوجيه، فيبلغ بالتشريع الأهداف العملية لتكوين مجتمع صالح، ويرمي بالتوجيه التسامي على الضرورات والتطلع الى حياة أرفع. ص 87 يفترض الكاتب تداول المال بشرع الله طبقا للأوامر والنواهي في القرآن. إن التشريع بحد ذاته لا يكون مجتمعا صالحا إلا بتطبيقه الذي يقوم به البشر، فهو يفترض فيهم الانصياع والمثالية ويتغاضى عن صراعات الواقع، وهذا النموذج في الخيال وعلى الورق لا في الحياة.

ينتقل المؤلف الى عنوان فرعي: الملكية الفردية، ثم عنوان جانبي آخر هو: حق الملكية الفردية، يقرر الإسلام حق الملكية الفردية للمال باعتباره قاعدة الحياة الإسلامية وقاعدة الاقتصاد الإسلامي. ص 88 ثم يشرح طبيعة الملكية الفردية، فإلى جانب إقرار حق الملكية الفردية يقرر الإسلام بجواره مبادئ أخرى، وأول هذه المبادئ: أن الفرد أشبه شيء بالوكيل عن الجماعة فحيازته للمال هي وظيفة لأن المال حق للجماعة، والملكية الفردية تنشأ من بذل الفرد جهدا خاصا لحيازة شيء معين من هذه الملكية العامة. ص 91-90 يواصل المؤلف افتراضاته وطرحه المثالي غير المستند الى الواقع. ويطرح مبدأ آخر هو كراهية الإسلام لأن يحبس المال في أيدي فئة خاصة من الناس يتداولونه ولا يجده الآخرون. وللتدليل على صحة هذا المبدأ، يستشهد بحكايات من التراث، وكأن المسألة عاطفية، الكره لا الحب. ثم يستعرض وسائل التملك الفردي، وهي عديدة، منها: الغزو وتنشأ عنه ملكية السلب وملكية الغنيمة، وإحياء الموات من الأرض التي لا مالك لها، وإقطاع السلطان بعض الأرض التي لا مالك لها، والكاتب مازال يعيش في الماضي، فهذا الإحياء حصل زمن الفتوحات عندما هرب أصحاب الأرض أو قتلوا، ولا زال يحلم بالغزو والفتوحات، في القرن العشرين.

ثم يتحدث عن حكمة نظام الإرث، فيقول بلغة عاطفية: إن الإسلام يكره تكدس الثروات، وكأن المسألة حب أو كراهية وليست مبدأ. ونظام الإرث أداة لتفتيت الثروات المتضخمة على توالي الأجيال، والكاتب يعترف أن هناك

ثروات متضخمة دائمة. ثم يقول: لكل فرد الحرية في تنمية أمواله ولكن ليس له أن يغش ولم يوضح المؤلف هل يتم بمواعظ أم بقانون ملزم، أو يحتكر أو يعطي أمواله بالربا أو أنه يظلم في أجور العمال فذلك كله حرام.

وبعد أن يسرد الكاتب ضوابط إنفاق المال، يتناول فريضة الزكاة "الزكاة حق المال، وهي عبادة من ناحية، وواجب اجتماعي من ناحية أخرى" ص 114 ثم يقول: يكره الإسلام الفقر والحاجة للناس، وكأن المسالة عاطفية وليس واقعا يجب معالجته، ويضيف: ويكره الإسلام الفوارق بحيث جماعة في مستوى الترف وأخرى في الشظف ويتجاوزه الى الجوع والعري، كما يكره الإسلام أن يكون المال دولة بين الأغنياء. ويخلص قطب الى القواعد الأساسية للنظام الاقتصادي الإسلامي:

1- قيام النظام على أساس استخلاف الإنسان في الأرض ليتصرف بشريعة الله.

2- الاستخلاف عام. الأفراد يحصلون على حق الملكية مقابل عمل.

3- الملكية الفردية قاعدة النظام مقيدة بشروط تتحقق بها مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة.

4- التكافل مع الاحتفاظ بقاعدة الملكية الفردية هو قاعدة الحياة في "الأمة المسلمة".

5- "إن العدالة الاجتماعية تتحقق عن طريق هذا النظام بأفضل مما تتحقق في أي نظام من صنع البشر فيه الخطأ والصواب" ص 124 - 125

ويسرد قطب شيئا من الواقع التاريخي في الإسلام: و"روح الإسلام" تعبير يطلقه الكاتب كشعور كامن وراء التشريعات والتوجيهات. ولتلك الروح أثر في واقع الإسلام التاريخي، فاستحال الإسلام وقائع عملية ونماذج إنسانية. يعرض نماذج من الواقع التاريخي للإسلام في العدالة الاجتماعية. " المساواة المطلقة بين بني الإنسان كانت رسالة الإسلام، والتحرر الوجداني المطلق من جميع القيم وجميع الاعتبارات التي تخدش هذه المساواة"، ص 137 لم يوضح كيف تكون المساواة مطلقة وكيف يتم التحرر من القيم والاعتبارات. ثم يوضح الكاتب نظرية الإسلام في المساواة والتحرر، فيستشهد بأحداث التاريخ، وهو يرسم صورة زاهية عن الإسلام في واقعه التاريخي في جميع العصور. ص 149 وفي رأيه "كان الإسلام قمة في العدل الاجتماعي الإنساني الشامل لم تبلغها بعد الحضارة الأوربية ولن تبلغها أبدا"، ص 150

يقول المؤلف إن سياسة المال تبعا لسياسة الحكم، ففي حياة محمد وصاحبيه وخلافة علي، النظرة السائدة هي النظرة الإسلامية: وهي أن المال العام مال الجماعة ولا حق للحاكم بنفسه أو بقرابته أن يأخذ منه شيئا إلا بحقه. انحرف التصور في عهد عثمان، وفي العهد الأموي انهارت الحدود والقيود، وأصبح الحاكم مطلق اليد في المنع والمنح. ص 168 عثمان "أنشأ الفوارق المالية والاجتماعية الضخمة في الجماعة الإسلامية، كما أنشأ طبقة تأتيها أرزاقها

من كل مكان دون كد أو تعب" ص 174 "وبقدر ما تكدست الثروات وتضخمت في جانب، كان الفقر والبؤس في الجانب الآخر حتما" ص 175 وفي أيام بني أمية ثم في أيام بني العباس من بعدهم كان بيت المال مباحا للملوك كأنه ملك لهم خاص. ص 177 وهنا نتساءل أين هي قمة العدل الاجتماعي الذي يتفاخر به المؤلف، لا شك أن سرد الواقع التاريخي بملابساته يكسر الصورة الزاهية التي رسمها خيال المؤلف.

وعن حاضر الإسلام ومستقبله : يقول قطب: "نحن ندعو الى استئناف حياة إسلامية، في مجتمع إسلامي تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي، كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي. ونحن نعلم أن الحياة الإسلامية-على هذا النحو- قد توقفت منذ فترة طويلة في جميع أنحاء الأرض، وأن "وجود" الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك" ص 182 ويصرح أن الجهر بهذه الحقيقة يولد صدمة وخيبة أمل للكثيرين ممن لايزالون يحبون أن يكونوا مسلمين، والجهر بهذه الحقيقة ضرورة من ضرورات الدعوة الى الإسلام ومحاولة استئناف حياة إسلامية، ويؤكد " لا إسلام ولا إيمان بغير الإقرار بالحاكمية لله وحده" ص 183.

ثم يقول: "وجود" الدين قد توقف " منذ أن تخلت آخر مجموعة مسلمة في الأرض عن تحكيم شريعة الله في أمرها كله، فتخلت بذلك عن إفراد الله سبحانه بالحاكمية" ص 184 لم يوضح المؤلف متى وأين وكيف تخلت المجموعة عن الشريعة وما الأسباب، ومن المقصود بآخر مجموعة مسلمة، إنه يكفر المجتمع لتخليه عن الحاكمية. ويؤمن قطب إيمانا مطلقا "بحتمية استئناف الحياة الإسلامية في العالم الإسلامي، وباستعداد الإسلام لأن يكون نظاما عالميا لا محليا في المستقبل" ص 191 واستئناف الحياة الإسلامية برأي المؤلف يتم بركنين: الحاكمية، ووضع تشريعات وقوانين ونظم مستمدة من الشريعة الإسلامية. والعدالة الاجتماعية جزء من الحياة الإسلامية لاتتحقق إلا بتحقق تلك الحياة. ص 196

ويدعو المؤلف الى عدم اتخاذ الفكرة الغربية وسيلة لإحياء الفكرة الإسلامية، كما يدعو الى التخلص من طريقة التفكير الغربية واتخاذ طريقة تفكير إسلامية، المؤلف ينكر التأثير والتأثر ويعادي قيم الحداثة. كذلك يدعو الى رجوع النشاط الفني والفكري والعلمي الى التصور الإسلامي والى مصدره الرباني. وفي رأيه هناك نوعان من الثقافة: الثقافة الإسلامية على قاعدة التصور الإسلامي، والثقافة الجاهلية القائمة على قاعدة إقامة الفكر البشري إلها لا يرجع الى الله في ميزانه. ص 202 ومثل هذا التقسيم للثقافة لا تزكيه الحياة ويرفضه الواقع. ويطرح الكاتب تصوره عن الأدب والتاريخ، كيف يدرس دراسة مأمونة لتنشئة المسلم وتنقية ضميره من شوائب الجاهلية التي تغمر وجه الأرض جميعا.

ويختتم قطب كتابه بالعنوان التاسع: في مفترق الطرق، فيرى أن الصراع الحقيقي هو بين الإسلام والكتلتين

الشرقية والغربية (خمسينات القرن الماضي) وليس فيما بين الكتلتين، حيث لا يوجد اختلاف برأيه في طبيعة التفكير الأمريكي والروسي، فكلتاهما لا تتنازعان على مبدأ أو فكرة إنما تتنازعان النفوذ في العالم. التفكير الروسي والأمريكي يقوم على تحكيم الفكرة المادية في الحياة، أما الإسلام فهو الذي يتضمن برأيه التصور الكلي الشامل المتناسق عن الوجود والحياة.

يرى أن المسيحية لا تحسب قوة إيجابية في مواجهة الأفكار المادية الجديدة فقد انتهت إلى أن تكون ديانة فردية انعزالية سلبية. ثم يقول: "وجود" الإسلام قد توقف ولهذا يدعو الى إعادة إنشاء الإسلام من جديد، ورده الى الوجود بعد أن توقف فترة. هذا طريق أول يختاره المؤلف، أما الطريق الثاني فهو الظن أن الإسلام قائم، وأن هؤلاء الذين يدعون الإسلام ويتسمون بأسماء المسلمين هم فعلا "مسلمون" وأن الأوضاع "العلمانية" السائدة في الأرض هي "أوضاع" إسلامية. وهكذا يتوصل الكاتب الى تكفير المجتمع لتوقف الإسلام وغيابه ودعوته الى إنشائه مجددا.

ونلاحظ أن العنوان التاسع وما قبله من العناوين السابقة عدا الثاني والثالث والرابع لا تتعلق بموضوع العدالة الاجتماعية مباشرة، وتبدو أشبه بمقالات متعددة يعالج كل منها شأنا مختلفا عن الآخر. وقد شغل موضوع العدالة الاجتماعية حيزا كبيرا في أكثر من مجال معرفي: الفلسفة، الاقتصاد، السياسة، الأديان والفكر عموما. والأديان ترى في نفسها أنها دعوة للعدالة والمساواة والحق. سيد قطب تناول موضوع العدالة الاجتماعية في الإسلام، وطرحه يمثل فكر جماعة الإخوان المسلمين، فهو عضو قيادي بها.

يحق للمرء أن يتساءل هل يمكن تحقيق العدالة الاجتماعية بقوانين أزلية ثابتة صالحة لكل واقع ولكل عصر كما يراها أصحابها؟ وهل يمكن أن تتحقق العدالة دون إجراءات محددة أو اتخاذ تدابير معينة أو سن قوانين مناسبة لمعالجة هذا الوضع أو ذاك، والاكتفاء بالنصوص الدينية باعتبارها قوانين نافذة، يستجيب لها البشر طوعا ما داموا مؤمنين بذلك الدين، علما أن الأحاديث بمضامينها المتنوعة وأقوال الفقهاء والمفسرين ليست مقدسة، وإنما تواضع بعض الناس فيما بينهم على إضفاء القداسة عليها، إن التصور الذي يرسمه قطب لمجتمع العدالة الاجتماعية هو تصور مثالي خيالي، إنه عالم زاه مرسوم بخيال المؤلف، رغم أنه يعترف (ص 182) أن الحياة الإسلامية قد توقفت منذ فترة طويلة بل "وجود" الإسلام قد توقف كذلك، وهو يدعو الى إعادة إنشاء الإسلام من جديد (ص 216)

إن ما يقدمه المؤلف هو فرض غير قابل للحياة لأنه يهمل الواقع وحركته، مؤكدا مبدأ الحاكمية، وتصوره عن العدالة يفترض تطبيقه الدقيق حسب النصوص، متناسيا أن من يقوم بتطبيق النصوص هم البشر، بفهمهم المعين له وبنوازعهم وأهوائهم المختلفة وبأسلوب التطبيق. وكل تصوراته عن العدالة،

طبيعتها، أسسها، وسائل تنفيذها، تستند الى آيات عديدة متفرقة في القرآن، والى أحاديث نبوية وأحداث تاريخية، اعتبرها قاعدة أو مقياسا أو قانونا، وبعض المضامين للأحداث عابر لم يتكرر حدوثه ومع ذلك اعتبرها قاعدة ومقياسا. وهو عندما يستشهد بالنصوص يتجاوز النصح والإرشاد فيها أحيانا الى اعتبارها مسلمات أو قوانين تحكم حياة المسلمين أبد الدهر، وأن العيب في المسلمين لأنهم لم يلتزموا بمضامين النصوص.

ولا شك أن ظهور مثل هذا الكتاب في تلك الفترة من تاريخ مصر يمثل استجابة للوقع المصري حينذاك، حيث كانت البلاد تعاني من الاحتلال الإنجليزي، ويطمح الشعب إلى التحرر والسيادة والعيش الكريم، والصراع محتدم بين عموم الشعب والطبقة الحاكمة الفاسدة. واستنادا إلى حوار الإعلامي، إبراهيم عيسى مع حلمي النمنم، وهو وزير ثقافة مصري سابق، وله مؤلفات عن سيد قطب، في برنامج "مختلف عليه" بث في حلقتين بتاريخ 21 و 28 آب 2018 من قناة الحرة، قال النمنم أن سيد قطب أرسل رسالة من أمريكا إلى الحكومة المصرية يقول فيها أنه ألف كتاب "العدالة الاجتماعية" ليحمي الشعب من الماركسية والشيوعية بالإسلام.

كما قال أن الكتاب وحتى الطبعة الرابعة كان يتضمن جزأين، الأول في قضية العدالة الاجتماعية، والثاني الإسلام في اللحظة الحاضرة. في الطبعات اللاحقة حذف الإخوان المسلمون الفقرات التي يعتبر فيها قطب أن الخلافة الإسلامية أخطأت الطريق حين ذهبت إلى الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوا الإمام علي بن أبي طالب، وأن الإسلام توقف عن الوجود منذ لحظة تولي عثمان بن عفان الخلافة.

كذلك نلاحظ تأثر سيد قطب بأفكار المودودي، التي انتزعها من سياقها التاريخي بحكم وجود المودودي بين السيخ والهندوس، الذين رآهم كفارا، فنقل قطب الفكرة واعتبر أن التفكير ليس إسلاميا، والفقه ليس إسلاميا، والتاريخ ليس إسلاميا، وأن الناس ليسوا مسلمين وليس هذا هو الإسلام. ويحق لنا أن نتساءل عن أي إسلام يتحدث أو يريد أن يقيم العدالة الاجتماعية على أساسه، وقد كفر الجميع، وكفر الصحابة.

إن العدالة الاجتماعية مفهوم نسبي تنادي به قوى رأسمالية وليبرالية وديمقراطية متنوعة، ويختلف طرحه باختلاف الحزب أو الطبقة الاجتماعية الحاكمة في البلد المعني. الأحزاب الديمقراطية هي الأكبر تمثيلا لمفهوم أو نظام العدالة الاجتماعية. وعلى سبيل المثال فإن الحزب الشيوعي المصري طرح في : مشروع البرنامج العام للحزب الشيوعي المصري ديسمبر 2011 مجموعة من المطالب منها مثلا: الحفاظ على مجانية التعليم في كافة المراحل وتطوير المناهج التعليمية، وتنفيذ قانون للضمان الصحي الشامل يكفل العلاج المناسب لكافة المواطنين بالمجان، وتحسين وسائل النقل العام، وسن التشريعات لإعطاء المرأة حقوقها الثابتة دستوريا، وضرورة وقف خصخصة

الشركات، وغيرها من المطالب العديدة الموزعة على أكثر من عنوان.

كذلك فإن الحزب الشيوعي العراقي في مؤتمره العاشر ديسمبر 2016 حمل شعار: التغيير.. دولة مدنية ديمقراطية اتحادية وعدالة اجتماعية، وقد ورد فيه أن الخيار الاشتراكي يقوم على تحقيق العدالة الاجتماعية. وفي مؤتمره الحادي عشر نوفمبر 2021 المنعقد تحت شعار: التغيير الشامل: دولة مدنية ديمقراطية وعدالة اجتماعية، أقر فيه وثيقة بعنوان: "قدما.. نحو التغيير الشامل"، تناول فيها قضية السعي لتحقيق قدر من من العدالة الاجتماعية، وطرح متطلبات تحقيقها بمطالب ملموسة مثلا: مكافحة البطالة، وتحسين الخدمات العامة، وبناء منظومة صحية متكاملة، وإصلاح المنظومة التربوية، ومعالجة أزمة السكن. (الوثيقة متاحة في موقع الحزب)

وبالمقارنة فإن معالجة سيد قطب تخلو من مطالب ملموسة ومحددة، وتعتمد ضمير الإنسان ونقائه في تنفيذ ما يراه مطلوبا لمجتمع تسوده العدالة الاجتماعية بلغة الوعظ والنصح والإرشاد. كما أن رؤية قطب لمفهوم العدالة الاجتماعية لم تجد من يتبنى أفكارها حتى من الأحزاب التي تدعي أنها تمثل الإسلام أو تحكم باسمه في أكثر من بلد، وعلى مدى سبعة عقود من ظهور الكتاب.

في هذا الكتاب بعض من أفكار قطب، التي استندت اليها قوى الإسلام السياسي وهي الحاكمية وتكفير المجتمع، وبعد هذا الكتاب، وفي فترة سجنه تعمقت طروحاته فألف كتبا أخرى تدعم توجهه، مثلا: "معالم في الطريق"، "المستقبل لهذا الدين"، كما واصل إكمال تفسيره للقرآن "في ظلال القرآن"، وللتنويه فإنه كان يرسل كتاباته من السجن، وكانت تطبع وتوزع في حياته وعلى نطاق واسع.

تصحيح وإعتذار

ورد في الصفحة 84 ، **العمود الأيمن، من العدد** 431 **خطآن مطبعيان، ولهذا ينبغي قراءة النص كما يأتي:**
(تمثل بزيادة عدد الطلبة من 430 **ألف عام** 1958 **الى** 991 **ألف عام** 1962، **وزيادة عدد المعلمين من حوالي** 15 **ألف الى** 44 **ألف خلال نفس الفترة).**
مع إعتذارنا للأخوة القراء.

نصوص قديمة

بعض قضايا الصراع بشأن المسألة الزراعية في العراق بعد اندلاع ثورة 14 تموز 1958 *

د. صالح ياسر

في المجتمعات التي يشكل فيها الفلاحون الأغلبية في المجتمع **تُعد** المسألة الزراعية واحدة من القضايا التي دارت وتدور حولها صراعات متنوعة وتتبلور ضمنها وحولها تحالفات وتكتلات تؤثر على المجرى العام للصراعات الأساسية في المجتمع. ولا يشذ عن هذا التحديد ما حدث في بلادنا بعد اندلاع ثورة 14 تموز 1958 ونجاحها في إسقاط الحكم الملكي وتأسيس أول حكم جمهوري في العراق الحديث.

حين اندلعت ثورة الرابع عشر من تموز 1958 غدا الإصلاح الزراعي مطلبا ملحا يواجه الثورة الجديدة وجها لوجه. وكان لا بد من **إصدار** قانون ينظم هذه العملية الجوهرية، التي كانت **تطول** اخطر القضايا في الريف، **ونعني** بها قضية **تغيير شكل الملكية الزراعية وتصفية أسس النظام السابق وإرساء علاقات جديدة**. وفي خضم هذه المعمعة بين قديم تتحطم ركائزه وجديد يشق طريقه وسط مصاعب وتحديات محلية وإقليمية ودولية، دار **صراع صاخب** حول جملة من القضايا المفتاحية من بينها المسألة الزراعية بين **خطين سياسيين وفكريين**:

- **خط البرجوازية الوطنية** ومن يلتف حولها؛
- **وخط القوى اليسارية والديمقراطية**، وأساسا الحزب الشيوعي العراقي.

وهكذا في هذا المناخ المضطرب وعواصفه السياسية الكبرى حول الأفق الجديد تعيَّن على الحزب الشيوعي العراقي أن يتخذ موقفا محدداً يتفق والمرحلة الجديدة في حياة البلاد. وكان عليه أن يحقق ذلك في أيام معدودات، إذ شرعت السلطة الجديدة في العمل لوضع التشريع الخاص بالإصلاح الزراعي [1]. ولذلك فقد عهدت قيادة الحزب الى الراحل الرفيق **زكي خيري** مهمة إعداد تقرير عن هذه القضية بكل ما تحمله من تعقيدات وتناقضات وآمال،

كما عهدت الى لجنة ألفتها مهمة جمع البيانات الضرورية لإعداد التقرير ومن ثم مناقشته ليأخذ صيغته النهائية. وبعد مناقشة التقرير قُدم الى الحكومة قبل أن يصدر القانون. وقد نشر التقرير لاحقاً تحت عنوان: "**ملاحظات أولية عن الإصلاح الزراعي المنشود في العراق**" [2] ، في مجلة " **الثقافة الجديدة** "، العدد 5/كانون الأول/1958.

وقبل أن نتحدث عن العناصر الأساسية للتقرير أعلاه لا بد من الحديث بشكل مكثف عن الظروف الجديدة التي نشأت بعد ثورة 14 تموز التي طرحت حزمة من المسائل الجديدة التي كانت تحتاج الى إجابات جديدة أيضا.

حين **اندلعت** الثورة بدا واضحاً أن البلاد دخلت **مرحلة جديدة نوعيا** من تاريخها الحديث، اكثر حيوية ولكنها اكثر خطورة، وأن آفاقا كبيرة قد انفتحت لإدخال إصلاحات جدية في كافة جوانب الحياة الاقتصادية/الاجتماعية. بيد أن عمق الإصلاحات وسعتها، والوتيرة التي تتحقق فيها كانت تتوقف، شأن كل الثورات، على طبيعة السلطة التي تنبثق عنها والعلاقات المتبادلة بين الطبقات الاجتماعية وتوازنات القوى وسلوك القوى الأساسية، وعوامل داخلية وخارجية أخرى.

وقد كشف انتصار الثورة العاجل **قصور** القوى السياسية المختلفة، بهذه الدرجة أو تلك، عن تكوين وجهة نظر واضحة ومحددة، إزاء المسألة الزراعية، كما هو الأمر بالنسبة للقضايا الكبرى الأخرى. لقد كان واضحاً، ومنذ زمن بعيد، أن حلاً لا بد من اتخاذه بشأنها، وان أي حل لا بد أن يستند أولاً وقبل كل شيء، الى **تغيير** وضع ملكية الأرض الزراعية باعتبارها تمثل **جوهر** المشكلة ومصدر مشاكلها المتفرعة[3]. غير أن **المسألة الجوهرية** التي لم تكن واضحة عند جميع القوى هي **حدود ملكية الأرض الزراعية**. لقد كانت هذه القوى **تنادي** بتحديد ملكية الأرض الزراعية، ولكن هناك أسئلة تفصيلية كانت تطرح نفسها بحدّة، من قبيل:

- **ما هو سقف هذه الملكية؟**
- **ثم كيف ستتم عملية تحقيق الإصلاح الزراعي المنشود؟**

وهذا ما لم يكن قد اتضح، وان بشكل متفاوت، لدى جميع القوى السياسية الوطنية حتى لحظة اندلاع الثورة.

وبعبارة اكثر تبسيطاً يمكن القول إن **جوهر** الصراع، في حقل المسألة الزراعية بعد ثورة 14 تموز 1958، كان يدور حول **سؤال** حاسم قوامه: **أي إصلاح زراعي يحتاجه الريف العراقي آنذاك؟**

في مسعى الإجابة على السؤال السابق، كان **موقف البرجوازية الحاكمة يتحدد** بالأسس الاتية [4]:

- **الإقرار** بالملكية الخاصة للأرض، سواء كانت ملكية كبيرة أم فلاحية.
- **العمل** لاستبدال العلاقات شبه الإقطاعية في الريف بعلاقات رأسمالية،

وارتباطا بهذا، السعي لتصفية النظام القبلي والعلاقات القبلية.

• **اتخاذ** البرجوازية الريفية والرأسمالية الزراعية التي ستنمو بعد تطهير الريف من العلاقات شبه الإقطاعية، **معبراً** لنفوذها الى جماهير الريف وكسب الفلاح المتوسط.

• **تمكين** الملاكين من التحول الى عناصر رأسمالية في ما تبقى لهم من الأرض وتحميل الفلاحين أعباء هذا التحول.

ومن المفيد الإشارة أيضا الى أن **موقف** البرجوازية المشار إليه أعلاه كان **محكوما** بعاملين لهما أهمية خاصة في **تحديد السبيل** الذي اتبعته لوضع هذه الأسس موضع التطبيق:

العامل الأول، افتقار البرجوازية الوطنية التي تسلمت الحكم اثر انتصار الثورة الى سند جماهيري واسع، وخوفها من تنامي نفوذ الطبقة العاملة وحزبها السياسي.

العامل الثاني، قرابة النسب التي تربطها بملاكي الأرض. فقد كان رموز البرجوازية الوطنية ذاتهم يملكون مساحات واسعة من الأرض الزراعية. وكان كل من **محمد حديد**، وزير المالية في حينه، الذي لعب دورا في تحديد سياسة الحكم الاقتصادية – الاجتماعية، **وهديب الحاج حمود**، وزير الزراعة، وكلاهما من أقطاب حزب البرجوازية الوطنية الأول، الوطني الديمقراطي، وراء تحديد طبيعة القانون الذي كان يراد تشريعه، من ملاكي الأراضي الزراعية الكبار.

أما **موقف الحزب الشيوعي العراقي من الإصلاح الزراعي** بعد انتصار ثورة 14 تموز فقد حكمته **ثلاثة عوامل تفاعلت في ما بينها** في إطار وضع ثوري فريد لم يكن العراق قد شهد له مثيلا من قبل، وفي إطار صراعات سياسية كانت تجري بإيقاع سريع وعنيف، وهذه العوامل هي [5]:

1. **إن الحزب لم يتوصل الى تحديد استراتيجيته للمرحلة بشكل واضح ومحدد**. فمن مجموع الوثائق التي صدرت عن الحزب في الأيام الأولى لانتصار الثورة، ليس هناك ما يشير الى أن اللجنة المركزية للحزب قد توصلت الى تحديد دقيق لطبيعة السلطة الجديدة الطبقية قبل التقرير الصادر عن الاجتماع الموسع الأول الذي عقدته اللجنة المركزية في السادس من أيلول 1958.

2. وارتباطا بذلك كان **موقف** الحزب من الإصلاح الزراعي **محكوما** أيضا بالتوازنات الطبقية والعلاقات فيما بينها.

3. **تأثيرات العوامل الخارجية**. واجهت الجمهورية الوليدة منذ اليوم الأول لانبثاقها، أخطارا جديّة. فعلى سبيل المثال فان الإمبريالية التي فاجأتها ثورة الربع عشر من تموز، سارعت لتدارك الوضع الذي نجم عن انهيار النظام الموالي لها، فأنزلت قواتها العسكرية في الأردن ولبنان، واستنفرت القوات الأمريكية وقواعدها في تركيا، استعدادا

للانقضاض على العراق..... وبذلك زادت الأخطار والأعباء التي واجهتها الجمهورية، **وباتت مسألة الدفاع عن الحكم الوطني مسألة جديّة لا يمكن التقليل من شأنها**.

وإذا عدنا الى **التقرير** السابق أمكننا القول إنه كان **يتضمن القضايا الاتية** (6):

• **مقدمة تاريخية**، يحدد فيها قضايا من بينها **الموقع** الذي احتله الفلاحون في ثورة 1920 والدور الذي لعبوه في ثورة 14 تموز 1958، والى **موقع** الفلاحين في معسكر الثورة والى **الخلاف** في الثورتين من حيث **المهام، وموقع القيادة، وطبيعة التحالفات** في الثورتين. فثورة 14 تموز كانت **تهدف** الى القضاء على الإقطاع فضلاً عن القضاء على الاستعمار، ولهذا فإن القيادة السياسية والعسكرية للثورة لم تعد كما كانت في ثورة العشرين بيد الملاكين والشيوخ الوطنيين والمثقفين وتجار المدن، بل انتقلت الى **تحالف سياسي جديد** تقوده قوى سياسية جديدة. **ويستنتج** التقرير أن **الهدف** أمام ثورة 14 تموز لم يعد مجرد تأسيس حكم وطني ديمقراطي والاستقلال والسيادة الوطنية، **بل إنجاز الثورة الديمقراطية**، فضلا عن الثورة الوطنية، والشيء الأساسي فيها **تحقيق الإصلاح الزراعي وتصفية بقايا الإقطاع**.

• **تحديد مفهوم الإصلاح من وجهة نظر الحزب**. يصوغ التقرير مفهوم "**الإصلاح الزراعي الجذري الشامل**" تمييزاً له عن مفهوم الإصلاح الزراعي الذي كانت البرجوازية الوطنية تروج له. وبحسب التقرير فإن "**الإصلاح الزراعي الجذري الشامل**" **يعني الأرض لحارثها**، أي أن يكون لكل فلاح الأرض التي يزرعها الآن بالمستوى الذي تسمح به أدوات العمل السائدة، أي أن **لا تبقى الأرض وسيلة استثمار للآخرين وان لا يضطر الفلاح لتأجير نفسه للآخرين**. ويعني ذلك:

- **إلغاء** الملكية الكبيرة للأرض وأجرة الأرض القائمة على هذه الملكية؛
- **توزيع** الأراضي على الفلاحين سيما الفقراء منهم؛
- **المحافظة** على الملكيات الصغيرة لمتوسطي وأغنياء الفلاحين، ومن يوازيهم من صغار الملاكين.

يمكن **الاستنتاج** من قراءة هذا التعريف أن "**الإصلاح الزراعي الجذري الشامل**"، كما طرحه التقرير، **لا يتناقض ومصلحة البرجوازية في الأساس، بل يوفر التربة الصالحة في الريف لنمو العلاقات الرأسمالية**.

يمكن القول إن التقرير **حدّد الخطوط العريضة الأساسية** للإصلاح الزراعي ولا سيما مسألة **خفض** حدود الملكية الكبيرة الى ملكية الفلاح الغني. غير أن هذه الملاحظة الايجابية لا تلغي حقيقة أن التقرير **انطوى** على **ثغرات** عديدة، من بينها: عدم مراعاة عوامل التفاضل في الأرض كالخصوبة ونوعية المزروعات وبعدها أو قربها من مراكز التسويق...

الخ. ويبدو أن **السبب** الظاهري الكامن وراء هذه الثغرات، وغيرها، إنما يعود الى **العجالة** التي وضع فيها التقرير من جهة، وكذلك ارتباطاً بالظروف التي كان ينشط فيها الحزب الشيوعي، والتي لم تتح له، كما هو معروف، القيام بدراسة الواقع الملموس في الريف بشكل دقيق عبر تحليل علمي دقيق ووضع الحلول لمشاكله، من جهة أخرى.

القانون رقم 30 لسنة 1958

في **30 أيلول/ 1958**، أي بعد مرور حوالي شهرين ونصف من اندلاع ثورة 14 تموز، أعلن رئيس الوزراء، الزعيم الركن **عبد الكريم قاسم**، من راديو بغداد إصدار القانون رقم (30) والذي عرف في ما بعد بـ **(قانون الإصلاح الزراعي رقم 30)** ووضعه موضع التنفيذ فورا.

اشتمل القانون على **أربعة أبواب**:

الباب الأول (من المادة **الأولى** حتى المادة **الثلاثين)**، ويتضمن **الأحكام التي تتعلق بتحديد ملكية الأرض والاستيلاء على ما زاد منها عن الحد الأعلى الذي يجيزه القانون مقابل تعويض وتوزيعها على الفلاحين**. وبموجب المادة الأولى **حدد سقف الملكية بألف دونم في الأراضي المروية وبألفي دونم في الأراضي الديمية (المطرية)**، على أن تستولي الدولة على ما تجاوز هذه الحدود. وأشار القانون الى أن يبدأ الاستيلاء على المساحات الزراعية الأكبر سواء تجمعت في يد شخص واحد أم أسرة. وكان هذا **النص يستهدف ضرب أكبر الملاكين وإزالة نفوذهم السياسي**، وهو ما تتطلبه الحاجة لتأمين صيانة الثورة.

وعالج **الباب الثاني (المواد 31 – 35) تأليف الجمعيات التعاونية ومهامها**. واعتبر القانون **الانتماء إليها إلزاميا لمن ينال الأرض من الإصلاح الزراعي، إلا انه جوّز انضمام من لا يتجاوز الأرض التي يملكها الحد الأعلى للتوزيع من خارج أراضي الإصلاح الزراعي**..... وكانت الأهداف التي حددها القانون للجمعيات التعاونية لا تخرج عن الأهداف الخدمية في ميادين التسليف والتسويق وتأمين الخدمات الزراعية والاجتماعية للأعضاء .... وما إليها.

وتناول القانون في بابه الثالث (من المادة **36** حتى المادة **46**) **العلاقات الزراعية بين مالكي الأرض وأصحاب المضخات من جانب والفلاحين الذين يزرعون لديهم أو يستقون منهم الماء**. لقد وقف القانون الى جانب إلغاء العلاقات الزراعية هذه، ولذلك عالجها على **أساس الإبقاء عليها لمدة ثلاث سنوات** تبدأ من صدور القانون، وبعد انتهائها لا يعود الملاك ملزما في الدخول بهذه العلاقة مع الفلاحين، ويصبح من حقه استثمار أرضه على النحو الذي يشاء. ولكن خلال الفترة المؤقتة هذه لا يحق للملاك أن يخرج الفلاح من الأرض. لقد انطلق المشرّع في معالجته هذه المسألة من أن هذه الفترة تكفي لاستقرار الفلاحين في

أراضي الدولة، ولتحول الملاكين الى الزراعة الرأسمالية واستخدام العمل الأجير بدلا من اللجوء الى المحاصصة.

أما **الباب الرابع** من القانون (المواد **47 – 51**) فقد **كرست مواده لمعالجة أوضاع العمال الزراعيين، وأبرزها ما نص عليه في هذا الشأن أن يحدد سنويا الحد الأدنى للأجر المدفوع للعامل الزراعي في المناطق المختلفة**. وأجاز القانون للعمال الزراعيين تأليف نقابات خاصة بهم.

هذا هو باختصار البرنامج الذي طرحته البرجوازية الوطنية بعد أن أخذت زمام الحكم لتنافس به الشيوعيين على النفوذ في المناطق الريفية، كما قال الأستاذ (**محمد حديد**) في حينه.

وبصدوره ووضعه موضع التطبيق العملي نقل القانون رقم 30 الصراع الاجتماعي في الريف الى **مرحلة نوعية جديدة**، وطرح مجموعة من الإشكاليات التي استحثت إجابات ملموسة ومحددة من خلال تطبيقه.

فقد كشف تطبيقه عن **حقيقة** المواقف الطبقية المتنوعة إزاء المسألة الزراعية، والمصالح الطبقية التي تدفع بالأحداث في هذه الجبهة الهامة من جبهات الصراع الطبقي.

فمثلما **سعت** البرجوازية الى أن **تدفع** بقانون الإصلاح الزراعي بالاتجاه الذي لا يصفي الملكية الكبيرة، **عملت** أيضا على **عرقلة تطبيق القانون** بوسائل شتى، وبذلت جهودها من اجل أن تُبعد الفلاحين ذاتهم عن المشاركة في التطبيق وحصره في أيدي الأجهزة الحكومية. بالمقابل، **وقف** الحزب الشيوعي العراقي بقوة وراء تطبيق القانون والتسريع بعمليات الاستيلاء، وكان الحزب يدرك بأن القانون على علاته، **يوجه ضربة قوية** الى النظام شبه الإقطاعي.

والخلاصة، فقد **دارت** بين **القوى الديمقراطية**، وأساسا الحزب الشيوعي العراقي من جانب، **والبرجوازية الوطنية ومن ورائها قوى اليمين والملاكين الكبار** من جانب آخر **معركة** أخرى **ميدانها** هذه المرة **تطبيق** الإصلاح الزراعي. كما تحرك الإقطاعيون لعرقلة الإصلاح الزراعي منذ أسابيعه الأولى. واتخذ هذا أشكالا وطرائق عديدة، وبوجه عام وقفوا الى جانب القوى المعادية للخط الديمقراطي في مسيرة ثورة تموز، واصطفوا الى جانب اليمين القومي، ولم يترددوا في دعم عمليات التآمر على الجمهورية [7].

حفلت السنة والنصف الأولى من عمر الإصلاح الزراعي بالكثير من الأحداث والصراعات، وكانت، في واقع الحال، أوسع واعقد تجربة يخوضها الحزب في الريف. وفي ضوء ذلك **برزت** الحاجة الى **تلخيص** هذه التجربة واستخلاص الدروس منها **وإيضاح** موقف الحزب من قضايا الإصلاح الزراعي، كما أظهرها واقع الصراع في الريف. وقد **ألّفَ** الحزب لهذا الغرض **لجنة خاصة** استندت في عملها أساسا على الأفكار الواردة في

التقرير السابق الذي جرت الإشارة إليه وطورتها. وبعد مناقشات مستفيضة اخذ التقرير الجديد شكله النهائي وطرح على الرأي العام العراقي تباعا في جريدة **(اتحاد الشعب)** في أواخر شباط وأوائل آذار 1960، ونشر فيما بعد في كراس بعنوان: "**تقرير عن مسائل في الإصلاح الزراعي**" [8].

يعالج هذا التقرير **16** مسألة أو قضية من قضايا الأرض والإصلاح الزراعي والحركة الفلاحية. غير أن قراءة تفصيلية للتقرير تسمح ببلورة **أربعة محاور كبرى يرتكز عليها**، وكل محور يتضمن مجموعة من الاشكالات.

• **المحور الأولى: ويتضمن محاولة إنتاج مجموعة من الأدوات والمفاهيم،** تستخدم في تحليل الواقع الملموس – الريف العراقي. يدور المحور حول جملة قضايا:

- **مقدمة نظرية تاريخية** مكرسة للدور الذي لعبه تطور الإنتاج السلعي في تفكيك العلاقات العشائرية، وكيف يؤدي تطور هذا النمط من الإنتاج الى مجموعة من **الآثار التدميرية** على أشكال الإنتاج الأخرى، وأساسا الإنتاج السلعي الصغير.

- **استعراض ميكانيزم التحول** من الإنتاج الطبيعي الى الإنتاج السلعي، **وشرط** ذلك التحول، **وخصائص** السوق المرافقة لهذا التحول في ظروف إنتاج سلعي ضمن إطار اقتصاد متخلف وتابع.

- **شرح لدور النقود وسيرورات التسليع وانتشارها الذي يؤدي الى تمايز طبقي واضح وبروز أشكال متنوعة للاستغلال.**

- ثم **يتحدث التقرير عن إشكالية ملكية الأرض في الشرق** انطلاقا من سؤال جابه الفكر التاريخي دائما وهو: لماذا لم يتوصل الشرقيون الى ملكية الأرض حتى بشكلها الإقطاعي؟

• **المحور الثاني ويتضمن إشكالية التناقضات وتجلياتها الملموسة في الثورة البرجوازية الديمقراطية.** يشخص التقرير، في البداية، **طبيعة** ثورة الرابع عشر من تموز بكونها **ثورة برجوازية ديمقراطية** من حيث علاقات الإنتاج. وانطلاقا من ذلك يحدد **طبيعة التناقضات** خلال هذه المرحلة من تطور الثورة، مشيراً الى **نوعين:**

- **الأول،** هو **التناقض بين العمال والرأسماليين الوطنيين** في هذه الثورة ويعتبره، بحسب التسمية الواردة هنا – **تناقضاً جزئياً**، أي تناقض داخل الشعب، أو بحسب المادية التاريخية "**تناقض داخل معسكر الثورة**"، ويمكن حله عبر **تسويات وتنازلات** متبادلة.

- **الثاني، تناقض عميق وحاد** ولا يقبل المصالحة، أي **تناحري، بين الفلاحين والإقطاعيين،** ولا يمكن حله إلا **بتصفية** آخر بقايا الإقطاع.

إذا قبلنا بهذه الأطروحة أمكننا **الاستنتاج** بأن **التناقض الرئيسي/ السياسي** كان **يوجد في الريف** ومصير حله يعتمد على

كيفية حل الصراعات الكبيرة التي كانت تدور هناك **بين القطبين المتعارضين: الفلاحين والإقطاعيين**.

ونظراً لطبيعة الثورة، أي كونها **برجوازية ديمقراطية – بحسب التقرير المذكور** - فإن حل هذا التناقض لا يؤدي الى قطع جذري – أي شكل جديد نوعياً للملكية – بل إنه **يظل يدور في أفق الملكية الخاصة**. ولهذا **استدرك** صائغو التقرير بأن محو بقايا الإقطاع " لا يعني بأي وجه من الوجوه محو كل أشكال الملكية الخاصة بل العكس تماما – أي أنه يعني توسيع قاعدة الملكية الخاصة بتحويل الفلاحين المستبعدين المجردين من أراضيهم الى فلاحين متحررين يملكون أراضيهم". وبالتالي فإن **المحتوى الاجتماعي** للثورة الزراعية الفلاحية، بحسب تسمية التقرير، ضد الملكية الكبيرة هو **محتوى برجوازي ديمقراطي** وليس بروليتاريا بعد.

• **المحور الثالث ويتضمن مجموعة من الإشكاليات المرتبطة بقانون الإصلاح الزراعي رقم 30 وتطبيقاته**. في هذا المحور يجري **تعميق** للتحاليل المصاغة في التقرير الأول (**ملاحظات أولية عن الإصلاح الزراعي**)، كما يجري **تدقيق** للاطروحات السابقة **ويجيب** على سؤالين حاسمين هما:

- **الأول: لماذا تحفظ الحزب** على قانون الإصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958؟

- الثاني: **لماذا أيده** برغم تحفظاته عليه؟

وقبل الإجابة على **السؤال الأول**، لا بد من التأكيد على حقيقة مهمة هي أن القانون رقم 30 جاء **حلاً وسطاً** بين اتجاهين:

- **الاتجاه الأول**، الذي كان يدعو الى الاكتفاء بالحد نسبيا من الملكية الكبيرة للأرض **وتطمين** حاجات قسم من الفلاحين الى الأرض؛

- **والاتجاه الثاني**، الذي يمكن تسميته **بالراديكالي الثوري** الذي كان يدعو الى تخفيض الحد الأعلى الى حدود ملكية الفلاح الغني، وتمكين الأكثرية الساحقة من الفلاحين، خاصة الفقراء منهم، من تملك الأرض.

وبالرغم من **التحفظات** التي أخذها الحزب الشيوعي العراقي على القانون المذكور، والتي سأشير إليها لاحقا، فإنه اعتبره **خطوة تقدمية في مجمله** نظراً للظروف السائدة آنذاك [9]. ويشير "**تقرير مسائل في الإصلاح الزراعي**" الى أن الحزب **تبنى** قانون الإصلاح الزراعي للعديد من **الأسباب** من بينها [10]:

" أولا – لأن هذا القانون صدر عن سلطة وطنية من حكومة الثورة واستجابة لمصلحة وإرادة جماهير الفلاحين الغفيرة الواعية، ولذا فإنه أشبه بمنهاج مشترك للحركة الوطنية في ميدان الإصلاح الزراعي وفي النضال المشترك ضد الإقطاع.

ثانياً – أن مجرى إعلان القانون كان اقوى ضربة عنيفة – بعد ثورة 14 تموز

– ضد سلطة الإقطاع وهيبته وأقوى مشجع وحافز للحركة الفلاحية.

ثالثاً – لأن القانون يخفض مساحة الإقطاعيات واقتصاد الإقطاعيين بنسبة الثلث تقريباً.

رابعاً- إن صدور القانون جعل بيد الحركة الفلاحية سلاحا شرعيا كان ضروريا لتعبئة وتنظيم أوسع الجماهير في الريف".

غير أنه وبالرغم من الملاحظات الايجابية السابقة فإن التقرير المذكور سطّر مجموعة من **التحفظات** على قانون الإصلاح الزراعي، وبالتالي أجاب على السؤال الاتي: **لماذا جرى التحفظ على القانون المذكور؟**

إن **ابرز التحفظات** كما وردت في التقرير هي [11]:

"أولاً – أن القانون لم يصفِ ملكية احد من كبار الملاكين بل وضع حداً أعلى للملكية الزراعية (ألف دونم من الأراضي المرواة و2000 دونم من الأراضي المطرية). إن تحديد الحد الأعلى بهذه المساحات يترك نصف الأراضي الزراعية المستثمرة بيد الملاكين، وبمعنى آخر يترك نصف الفلاحين من دون شبر من الأرض.

ثانياً – إن **القانون أقر مبدأ التعويض للملاكين والزم الفلاحين الذين ستوزع عليهم الأراضي بدفع التعويض حلال عشرين سنة**". على سبيل المثال فان (مشعان الفيصل)، شيخ شمر، الذي منحته الحكومة 213 ألف دونم قبل بضع سنوات من ثورة تموز لا غير بسعر رمزي (فلس واحد للدونم الواحد) كان سيحصل على 9378,5 دينار شهريا ولمدة عشرين عاما لقاء الأرض التي استردت منه. ويعني ذلك أن **القانون قد جار على الفلاح كثيرا حتى إذا سلّمنا بمبدأ التعويض.**

وبالمقابل ادخل القانون **مبدأ الإلزام** في الانتماء الى الجمعيات التعاونية. إن مبدأ الإلزام، عدا عن كونه يتعارض والأساس الذي يقوم عليه التعاون كتجميع لإرادات حرّة، فانه من دون قناعة الفلاح يأتي **مناقضا لمبدأ الديمقراطية** التي تزعم البرجوازية الحرص عليها.

ثم **يشخص** التقرير **المناورات والصراعات** التي دارت حول **كيفيات** تطبيق القانون رقم 30 **والآثار** المتنوعة التي ترتبت على تطبيقه، ومن أهمها:

- أن **القانون خلق الشروط لتطور هائل للحركة الفلاحية** وساعد في تصاعد نضالاتها المطلبية وتبلورت، في مجرى الصراع، أشكال متقدمة لتنظيمها النقابي والسياسي؛

- وكل ذلك أدى الى **تسريع وتيرة الصراعات الاجتماعية والطبقية** في الريف وانعكاساتها على عموم المجتمع. **لقد حدث تمايز طبقي واجتماعي حاد وتبلورت تحالفات وتكتلات جديدة وبالتالي صار مطلوباً التأكيد على بلورة موقف متقدم من القضية الزراعية.** وفي هذا الصدد أكد التقرير أن **الخطة الصائبة** في تطبيق قانون الاصلاح الزراعي في

هذه اللحظة هي:

أولاً: تجريد الملاكين من الأراضي الخاضعة للإصلاح الزراعي ومن السلطة التي يمارسونها على فلاحيهم، وبالتالي **تقويض دعائم الإقطاع** في الأراضي المستولى عليها.

ثانياً: توزيع الأراضي المستولى عليها على الفلاحين بتمليكهم إياها.

• **المحور الرابع ويتضمن الإشكاليات المرتبطة بالسياسة الطبقية للحزب الشيوعي العراقي في الريف في الظروف الجديدة التي نشأت بعد ثورة 14 تموز وبعد صدور قانون الإصلاح الزراعي**. ينطلق التقرير من تشخيص حالة الريف في هذه المرحلة مشيرا الى انه يخوض **ثورة زراعية فلاحية** هدفها كنس بقايا الإقطاع وأساسها الملكية الكبيرة للأرض، ثم يشخّص **التناقض الرئيسي** في الريف، الذي جرت الإشارة إليه في مكان سابق، ثم بعد ذلك **يسعى التقرير لتحديد أدق لمعالم اللوحة الطبقية/ الاجتماعية** في الريف العراقي عشية ثورة 14 تموز والسنوات التي تلتها. وهناك محاولة جادة في التقرير، في ضوء المستوى الفكري الذي كان سائداً آنذاك في الحزب وطبيعة الأدوات المنهجية المستخدمة، لتحليل الوضع في الريف على أساس تكوينه الطبقي واعتماد مجموعة من المعايير لضمان **تمييز** سليم يسمح بالتفريق بين الطبقات والمراتب داخل كل طبقة في الريف العراقي.

يعتمد التقرير **معيارين منهجيين**:

- **معيار الملكية**/ تملك الأرض؛
- **معيار الاستثمار الطبقي**.

ونظراً لأن الفلاحين لا يعتبرون طبقة متجانسة من الناحية المنهجية، ونظرا لتواجد **مراتب متعددة** في أوساطهم، لذلك **واجهت** التقرير **مشكلة ترسيم الحدود** بين هذه المراتب بشكل صحيح بهدف **صياغة** سياسة سليمة وتكتيكات ملموسة تجاه كل مرتبة. ولضمان ترسيم صحيح للحدود بين هذه المراتب **انطلق** التقرير من **سؤال** حاسم: **هل الفلاح مستثمِر أم مستثمَر؟** وهذه هي القاعدة العامة لتمييز الفلاحين حسب مراتبهم الثلاثة الاتية:

- **فقراء الفلاحين**، وما يميزهم هو **أنهم لا يستثمرون عمل غيرهم**، بل أن **الآخرين يستثمرون جزئياً أو كلياً عمل هؤلاء الفلاحين**.
- **الفلاحون المتوسطون**، القاعدة العامة هي **اكتفاء الفلاح المتوسط** ذاتياً، **لكنه يستثمر أحيانا عمل الآخرين**.
- **الفلاحون الأغنياء**، وما يميزهم هو انهم **يستثمرون عمل الآخرين** كقاعدة عامة.

وارتكانا الى هذا التحديد **استنتج** التقرير بأن هناك حاجة ملحة لبلورة سياسة حزبية صحيحة وواقعية تجاه المراتب الفلاحية الثلاثة تقوم على الثلاثية المعروفة: **اعتماد - اتحاد - كسب**. أي:

- **الاعتماد على فقراء الفلاحين** وهم الأكثرية، وان تنظيما حزبيا متينا من هؤلاء هو ضمانة ضد الانتكاسة؛

- **الاتحاد مع الفلاحين المتوسطين؛**
- **محاولة كسب الأغنياء** من الفلاحين عبر تكتيكات ملموسة.

ولكي يكتسب النضال في الريف صيغته العملية والملموسة دعا التقرير الى البحث عن أشكال ملموسة، من أهمها **تشكيل الجمعيات الفلاحية** وضرورة الاختيار الصحيح لقياداتها دون فرض وأوامر فوقية.

كما **ميّز** التقرير ثلاث مراتب للملاكين هي:

- **صغار الملاكين؛**
- **متوسطي الملاكين؛**
- **كبار الملاكين.**

وهنا بلور التقرير **السياسة الطبقية الملموسة** من هذه المراتب عبر ثلاثية محددة هي:

كسب - تحييد - مصادرة، أي:

- **النضال لكسب صغار الملاكين** عبر العمل السياسي وكذلك من خلال تطمين مصالحهم الاقتصادية؛
- **تحييد الملاكين المتوسطين**، من خلال الإبقاء على ملكيات الوطنيين منهم، باعتبار ذلك الثمن الذي يمكن للحركة تقديمه لهم لقاء عدم انحيازهم لصف معسكر أعداء الثورة؛
- **مصادرة أراضي الملاكين الكبار وإجلاؤهم عن الريف**. ومن خلال التمييز بين المعادين للثورة والموالين للجمهورية يمكن ضمان حق التعويض القانوني لمن لم يقف موقفاً معاديا، وعدم تعويض المعادين للوضع الجديد.

وبالمقابل، **دار** صراع جدي بين الطبقة العاملة والبرجوازية حول قيادة الجمعيات الفلاحية. فالبرجوازية كانت **تأمل** في استغلال الإصلاح الزراعي لإيجاد القاعدة الاجتماعية التي تعوزها وتؤمن هيمنتها في الريف، هالها ان تجد ان كفة الطبقة العاملة وحزبها السياسي هي التي ترجح في الريف وان **تتحول** القيادة الى منظمات يقودها الحزب الشيوعي. لهذا شرعت تعمل لانتزاع هذه القيادة بكل الوسائل حتى لو أدى ذلك الى خرق القوانين التي أصدرتها هي. فدفع عبد الكريم قاسم أحد الفلاحين الأغنياء من بغداد (**عراك الزكم**)، العضو في الحزب الوطني الديمقراطي، الى تكوين هيئة مؤسسة أخرى لمنافسة الاتحاد العام في إجازة الجمعيات الفلاحية، وتكوين حركة منافسة للحركة الفلاحية التي يقودها الحزب الشيوعي. وبعد ثلاثة اشهر ونصف من إصدار قانون الاتحاد العام للجمعيات الفلاحية أصدرت الحكومة القانون رقم 139 لسنة 1959.

وكان ابرز ما انطوى عليه القانون الجديد، بحسب نصير سعيد الكاظمي (12)، هو **انتزاع سلطة إجازة الجمعيات الفلاحية من أيدي الفلاحين ذاتهم ممثلين في اتحادهم العام الى أيدي الأجهزة الإدارية الحكومية المحلية التي تربت في خدمة الملاكين**. ولم تدخر هذه الأجهزة وسعا في محاربة الجمعيات الفلاحية التي لا تتوسم فيها الاستعداد

لتنفيذ ما تمليه عليها هذه الأجهزة. جراء ذلك رفضت إجازة (3260) جمعية فلاحية بعذر أو بآخر. وكان معظم الطلبات المرفوضة قد قدمت من فلاحي ألوية الفرات الأوسط والعمارة والبصرة والناصرية، حيث نفوذ الحزب الشيوعي العراقي بين الفلاحين هو الأقوى.

ولم تكتف الحكومة بتغيير قانون الجمعيات الفلاحية بل عمدت الى تحريض الصحافة البرجوازية وصحافة اليمين الرجعي، الذي كان يندفع الى تأييد كل ما من شأنه **إضعاف نفوذ** الحزب الشيوعي العراقي والممارسة الديمقراطية، لشن حملة مركزة على الاتحاد العام للجمعيات الفلاحية، ما أفضى لاحقا الى انتكاسة الحركة الفلاحية الديمقراطية.

وإذا لخصنا الأمر فانه يمكن القول أن وجهة نظر الحزب، كما انعكست في " **تقرير عن مسائل في الإصلاح الزراعي**" وان كانت تمثل تطورا كبيرا في فهم الحزب للمسألة الزراعية ومشاكلها، إلا أنها جاءت **حبيسة عجز الحزب، في تلك الفترة، عن تحديد ستراتيجية تساعد في دفع الوضع الثوري الى الأمام.**

وهكذا بدلا من اتخاذ النضال لتحقيق الإصلاح الزراعي الجذري والشامل منطلقا لتعبئة القوى الفلاحية، لا سيما الفقيرة منها، من اجل تغيير الوضع وإقامة الحكومة الديمقراطية، **أصبحت** مهمة الحزب أن **يصون** سلطة البرجوازية الوطنية **ويخضِع** كل خطوة في النضال لتحقيق أهداف الجماهير الكادحة لهذا الهدف. هذا في الوقت الذي كانت فيه هذه السلطة تقدم الدليل بعد الآخر على تهاونها أمام القوى الرجعية في الدفاع عن حكمها، بل وتُمعِن في ضرب القوى الثورية التي تدافع عن هذا الحكم تزلفا لتلك القوى، **وتعلن** الحرب ضد الشعب الكردي **وتفتح** السبيل أمام القوى المؤيدة للاستعمار لكي تستعيد مواقعها وتحيك الدسائس والمؤامرات للإطاحة بالنظام الجمهوري.

لقد كان الإيقاع السريع والعنيف للصراعات السياسية والطبقية المحتدمة خلال السنوات الأولى من عمر ثورة 14 تموز والأسئلة الجديدة التي طرحتها قد ألقت بثقلها على كل القوى السياسية محدثة صراعات فكرية وجدلا صاخبا داخلها وفي ما بينها، حول **أفق** الثورة الوطنية الديمقراطية **وإمكانيات** الانتقال بها الى حدود جديدة تتجاوز الحل البرجوازي التقليدي.

وباختصار، منذ لحظة اندلاع ثورة 14 تموز 1958 كان هناك صراع يدور بين **خطين سياسيين وفكريين متقاطعين** حول جملة من القضايا من بينها **القضية الزراعية والصراع داخل الريف وسبل حله**، والتي ساهم القانون رقم 30 لسنة 1958 بما حمله من مضامين في **تسريع** عملية الاستقطاب وبلورة حلول ملموسة وواقعية لهذه القضية في الريف، وان لم تصل الى نهاياتها المنطقية الصحيحة بسبب جملة من الأسباب والعوامل لا يتسع المجال للخوض في تفاصيلها هنا،

لأنها تحتاج الى معالجة خاصة. ولهذا يمكن القول إن هناك العديد من المهمات التي طرحها القانون آنذاك ما تزال تتمتع براهنية، رغم ما يقارب النصف قرن من صدوره.

ويمكن القول ان حل القضية الزراعية ما زال مطروحا على جدول الاعمال، خصوصا ما نشهده من تحركات في الريف وما تبذله بعض القوى من جهود، تحت مختلف الذرائع، لانتزاع الاراضي من الفلاحين التي منحت لهم بموجب القانون رقم 30 لسنة 1958.

* (الثقافة الجديدة)/ العدد 325/ تموز 2008، ص 52 – 64.

الهوامش:

1. في 2 آب 1958 تألفت لجنة لوضع قانون للإصلاح الزراعي وكانت اللجنة برئاسة هديب الحاج حمود، وزير الزراعة، وضمت في عضويتها كلا من طلعت الشيباني وعبد الرزاق الظاهر وفريد الأحمر وعبد الرزاق زبير ومسعود محمد وجوهر دزه يي وخالد تحسين وباقر كاشف الغطاء ويوسف الحاج ألياس وأنور الجاف.
2. انظر: ملاحظات أولية عن الإصلاح الزراعي المنشود في العراق، " الثقافة الجديدة " العدد 5/ كانون الأول 1958.
3. يبرز حدّ هذه المشكلة عند ملاحظة ان 1% من سكان الريف كانوا يستحوذون على ثلاثة أرباع الأراضي.
4. انظر: نصير سعيد الكاظمي، الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، الطبعة الأولى، دمشق 1986، ص 244.
5. المصدر السابق، ص 273 ولاحقا.
6. انظر: ملاحظات أولية عن الإصلاح الزراعي المنشود في العراق، مصدر سابق.
7. لمزيد من التفاصيل عن هذا الدور انظر: عزيز سباهي، عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، الجزء الثاني، منشورات الثقافة الجديدة، دمشق 2003، 316 ولاحقا.
8. انظر: تقرير عن مسائل في الإصلاح الزراعي، دار بغداد للطباعة والنشر، بغداد، 1960.
9. قارن: محمد حسين أبو العيس، الثورة الزراعية في العراق، دار بغداد، بغداد، 1959، ص 25.
10. انظر: تقرير عن مسائل في الإصلاح الزراعي، مصدر سابق، ص 25 - 26.
11. المصدر السابق، ص 23.
12. انظر نصير سعيد الكاظمي، الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق، مصدر سابق، ص 292 ولاحقا.

نصوص مترجمة

المسارات الفكرية المجهولة للمراحل الأخيرة في حياة ماركس:

حوار مع مارچيلو موستو [1]

ترجمة: مصباح كمال

لماذا تعتقد أن هناك عودة لمؤلفات ماركس في القرن الحادي والعشرين؟ لماذا تركز على الفترة الأخيرة من حياته؟

مارچيلو موستو (م.م): في السنوات الأخيرة من حياته، شرح ماركس العديد من الأسئلة التي غالبا ما يتم التقليل من شأنها أو حتى تجاهلها من قبل الباحثين في أعماله، إلا أنها ذات أهمية حاسمة للأجندة السياسية في عصرنا. وتشمل هذه الإيكولوجيا [2]، والحرية الفردية في المجال الاقتصادي والسياسي، وتحرير المثلية الجنسية، ونقد القومية، وأشكال الملكية الجماعية التي لا تسيطر عليها الدولة.

بالإضافة إلى ذلك، قام ماركس بالبحث في المجتمعات غير الأوروبية وتحدث ضد ويلات الاستعمار بعبارات لا لبس فيها. من الخطأ أن نقترح خلاف ذلك. يتضح هذا في مخطوطات ماركس غير المكتملة - التي نُشرت مؤخرا في الطبعة التاريخية النقدية لأعماله الكاملة، ماركس- إنجل ز- گيزمتاوسگابه MEGA2 Marx-Engels-Ge samtausgabe - على الرغم من الشك السائد في بعض الأوساط

الأكاديمية. وهكذا، بعد 30 عامًا من نهاية الاتحاد السوفيتي، من الممكن قراءة ماركس مختلفا تمامًا عن المنظر الدوغمائي والاقتصادوي والمتمركز حول أوروبا، والذي تعرّض لانتقادات لسنوات عديدة من قبل أولئك الذين لم يقرأوا أعماله أو قرأوا أعماله بشكل سطحي جدًا.

إن كل السير الذاتية الفكرية لماركس تقريبا المنشورة حتى الآن تعطي وزنا كبيرا لكتاباته المبكرة. ولفترة طويلة، أعاقت صعوبة الحصول على ابحاثه التي قام بها في السنوات الأخيرة من حياته فهم إنجازاته المهمة. لقد خصص جميع كتاب سيرة ماركس بضع صفحات فقط لنشاطه

بعد تفكك جمعية العمال الدولية [الأممية الأولى] في عام 1872، واستخدموا دائمًا العنوان العام "العقد الأخير" لتلخيص هذه المرحلة من حياته، بدلاً من الخوض عميقا في ما قام به. ويهدف كتابي إلى المساهمة في سد هذه الفجوة.

عندما ننظر إلى "ماركس في أواخر حياته"، ما الذي يمكن أن نتعلمه من دفاتر ملاحظاته حول مجتمعات ما قبل الرأسمالية ودراساته الإثنولوجية؟

م.م: من 1881 إلى 1882، حقق ماركس تقدمًا نظريًا كبيرًا في دراساته للأنثروبولوجيا، وأنماط الإنتاج ما قبل الرأسمالية، والمجتمعات غير الغربية، والثورة الاشتراكية، والمفهوم المادي للتاريخ. كان يعتقد أن دراسة الصراعات السياسية الجديدة والموضوعات الجديدة والمناطق الجغرافية كانت أساسية لنقده للنظام الرأسمالي. وقد سمح له ذلك بالانفتاح على الخصوصيات القومية الجديدة والنظر في إمكانية تطور الحركة الشيوعية بطرق مختلفة عما كان يتخيله سابقًا.

إن ما يسمى الدفاتر الإثنولوجية Ethn-logical Notebooks (1881)، وهي عبارة عن مجموعة من الملخصات الشارحة لكتاب المجتمع القديم Ancient Society (1877) لعالم الأنثروبولوجيا الأمريكي لويس إتش مورغان Lewis H. Morgan، ونصوص أخرى عن التاريخ والأنثروبولوجيا، تمثل أحد أهم البحوث في الفترة الأخيرة من حياته. وفَّر هذا المؤلف لماركس الحصول على معلومات محددة حول الخصائص الاجتماعية والمؤسسات في الماضي البعيد، والتي لم تكن في حوزته عندما نشر كتاب رأس المال في عام 1867.

لم يدرس ماركس الأنثروبولوجيا بدافع الفضول الفكري فحسب، بل بنية نظرية-سياسية تمامًا. لقد أراد إعادة بناء التسلسل الذي تتابعت فيه أنماط الإنتاج المختلفة مع مرور الوقت، على أساس الفهم التاريخي الصحيح. وقد ساعد هذا أيضاً في منحه أسساً تاريخية أكثر صلابة للتحول الشيوعي المحتمل للمجتمع.

في السعي لتحقيق هذا الهدف، كرَّس ماركس نفسه لدراسة عصور ما قبل التاريخ، وتطور الروابط الأسرية، ووضع المرأة، وأصل علاقات الملكية، والممارسات المجتمعية التي كانت موجودة في مجتمعات ما قبل الرأسمالية، وتشكيل وطبيعة قوة الدولة ودور الفرد في المجتمع. من بين أكثر أفكاره إثارة للتفكير ملاحظاته حول تراكم الثروة، والتي أشار فيها إلى أن "الملكية الخاصة للمنازل والأراضي والقطعان [مرتبطة] بالعائلة أحادية الزواج". وكما جاء في بيان الحزب الشيوعي (1848)، فإن هذا يمثل نقطة انطلاق التاريخ على أنها "تاريخ الصراع الطبقي."

كما أولى ماركس اهتماماً كبيراً لحجج مورغان بشأن تحرير المرأة. فقد أكد عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي أن المجتمعات القديمة كانت أكثر تقدما من المجتمعات الحديثة في معاملتها وسلوكها

تجاه النساء. ففي اليونان القديمة، كان التحول من خطوط النسب الأنثوية إلى الذكور ضارا بوضع المرأة وحقوقها، واعتبر مورغان هذا النموذج الاجتماعي سلبيا للغاية. بالنسبة لمؤلف كتاب المجتمع القديم، فإن الإغريق "ظلوا بربريين بشكل أساسي في معاملتهم للجنس الأنثوي في ذروة حضارتهم ... وتم إدخال الدونية كمبدأ، حتى أصبحت مقبولة من قبل النساء أنفسهن". بالتفكير في التناقض مع أساطير العالم الكلاسيكي، أضاف ماركس تعليقا واضحا في الدفاتر الإثنولوجية: "لكن وضع الآلهات في أوليمبس يوضح الحنين إلى الموقف السابق الأكثر حرية وتأثيرا للإناث. فالإلهة جونو Juno، إلهة الحكمة، المتعطشة للسلطة، تنطلق من رأس زيوس" [3].

ربما كان الاهتمام الوحيد المعروف لـ "ماركس في سنواته الأخيرة" هو النقاش حول الكوميون commune الريفي الروسي. هل هذا مثال على تفكيره الديالكتيكي المناهض للغائية؟

م.م: من عام 1870 فصاعدًا، وبعد أن تعلم قراءة اللغة الروسية، بدأ ماركس دراسة جادة للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي تحدث في روسيا. وهكذا تعرَّف على كتابات نيكولاي تشيرنيشيفسكي [1828 - 1889]، الشخصية الرئيسية في "الشعبوية" الروسية (في القرن التاسع عشر، كان للمصطلح دلالة يسارية ومناهضة للرأسمالية). في دراسته لكتابات تشيرنيشيفسكي، اكتشف ماركس أفكارًا أصيلة حول إمكانية أن يقفز التطور الاقتصادي في بعض أجزاء العالم على نمط الإنتاج الرأسمالي بكل عواقبه الاجتماعية الرهيبة على الطبقة العاملة في أوروبا الغربية. كتب تشيرنيشيفسكي أنه ليس بالضرورة أن تمر كل ظاهرة اجتماعية بكل الخطوات المنطقية في الحياة الواقعية لجميع المجتمعات. لذلك، يجب الحفاظ على الخصائص الإيجابية للكوميونات الريفية الروسية (الأوبشينا obshchina)، لكنها لا تستطيع ضمان رفاهية جماهير الفلاحين إلا إذا تم إدراجها في سياق إنتاجي مختلف. لا يمكن أن تساهم الكوميونات في مرحلة جديدة أولية من التحرر الاجتماعي إلا إذا أصبحت جنينًا لنظام اجتماعي جديد ومختلف جذريًا. بدون الاكتشافات العلمية والابتكارات التكنولوجية المرتبطة بصعود الرأسمالية، لن تتحول الأوبشينا أبدًا إلى تجربة في التعاون الزراعي الحديث حقًا. على هذا الأساس، كان لدى الشعبويين هدفان لبرنامجهم: منع تقدم الرأسمالية في روسيا والاستفادة من الإمكانات التحررية للكوميونات الريفية القائمة.

على الرغم من أن هذا غير معروف لمعظم الباحثين في فكر ماركس، إلا أن عمل تشيرنيشيفسكي كان مفيدًا جدًا لمؤلف كتاب رأس المال. عندما سألته فيرا زاسوليتش [Vera Zasulich 1849 - 1919] في عام 1881 عما إذا كان من المقدر أن تختفي الأوبشينا أو إذا كان من الممكن تحويلها إلى

شكل اشتراكي للإنتاج، كان لدى ماركس نظرة نقدية للغاية لعملية الانتقال من الأشكال المجتمعية communal في الماضي إلى الرأسمالية. على سبيل المثال، في إشارة إلى الهند، قال إن الشيء الوحيد الذي تمكّن البريطانيون من فعله هو "إفساد الزراعة المحلية وتضخيم عدد المجاعات وحدّتها". في سياق مماثل، لم يعتقد ماركس أن الرأسمالية مرحلة ضرورية لروسيا. لم يكن يعتقد أن مصير الأوبشينا هو نفس مصير الكوميونات المماثلة في أوروبا الغربية في القرون السابقة، حيث كان الانتقال من مجتمع قائم على الملكية الجماعية إلى مجتمع قائم على الملكية الخاصة موحدًا إلى حد ما. في الوقت نفسه، لم يغير ماركس تقييمه النقدي للكوميونات الريفية الروسية. في رأيه، ظلت أهمية التطور الفردي وتطوير الإنتاج الاجتماعي من أجل بناء مجتمع اشتراكي سليمة. بالنسبة لماركس، فإن الكوميونات الريفية القديمة لم تعزز تحررًا أكثر تقدمًا للفرد من العلاقات الاجتماعية التي كانت موجودة داخل الرأسمالية.

تم تفسير هذا النقاش بطرق مختلفة. على سبيل المثال، اقترحت قراءة "عالم ثالثية" لماركس أنه في سنواته الأخيرة خالف أفكاره السابقة وغيَّر موضوعه الثوري. ما رأيك في هذه القراءات؟

م.م: في مسودات رسالته إلى فيرا زاسوليتش، لا توجد مؤشرات على قطيعة دراماتيكية مع مواقف ماركس السابقة، كما يعتقد بعض الباحثين مثل هاروكي وادا Haruki Wada وإنريكي دوسل Enrique Dussel. ولا يمكنني أن أؤيد وجهة نظر المؤلفين الذين اقترحوا قراءة "عالم ثالثية" لماركس، زاعمين أن الثوريين لم يعودوا عمال المصانع، بل هم جماهير الريف والأطراف [4].

تمشيًا مع مبادئه النظرية، لم يقترح ماركس أن روسيا أو البلدان الأخرى التي كانت الرأسمالية فيها لا تزال متخلفة ستصبح بالضرورة المحور الأساسي لانتفاضة ثورية. كما أنه لم يعتقد أن الدول ذات الرأسمالية المتخلفة كانت أقرب إلى هدف الاشتراكية من تلك التي لديها تطور أكثر تقدمًا لقوى الإنتاج. في رأيه، لا ينبغي الخلط بين التمردات في فترات متقطعة أو حركات المقاومة النضالية وإنشاء نظام اجتماعي اقتصادي جديد قائم على الاشتراكية. إن الاحتمالية التي أخذها في الاعتبار في لحظة خاصة جدًا من التاريخ الروسي، عندما كانت هناك ظروف مواتية للتحول التدريجي للكوميونات الزراعية، لا يمكن رفعها إلى مرتبة نموذج عام. فلا في الجزائر التي (كان) يحكمها الفرنسيون، ولا في الهند البريطانية، على سبيل المثال، يمكن ملاحظة هذه الظروف الخاصة التي شخَّصها تشيرنيشيفسكي. لا يمكن مقارنة روسيا في أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر بما حدث في زمن لينين. إن العنصر الجديد في تفكير ماركس يتمثل في الانفتاح النظري المتزايد، والذي مكّنه من التفكير في مسارات أخرى محتملة للاشتراكية لم يفكر فيها من قبل أو التي رأى أنها مستحيلة.

يمكن وضع أفكار ماركس حول مستقبل الأوبشينا كنقيض للاعتقاد بأن الاشتراكية يمكن مساواتها بالقوى المنتجة- وهو مفهوم تميز بإيحاءات قومية وتعاطف استعماري كان حاضرًا في الأممية الثانية والأحزاب الديمقراطية الاجتماعية. اختلفت آراء ماركس أيضًا اختلافًا كبيرًا عن "الطريقة العلمية" المفترضة للتحليل الاجتماعي السائد في الماركسية-اللينينية في القرن العشرين.

إن غياب أي مخطط جامد والقدرة على تطوير نظرية ثورية مرنة - لا تنفصل أبدًا عن سياقها التاريخي - مفيد ليس فقط لفهم فكر ماركس، ولكن أيضًا لإعادة ضبط بوصلة العمل السياسي لقوى اليسار المعاصر العاملة من أجل التغيير.

في نهاية حياته، عندما كان مريضًا بالفعل، سافر ماركس إلى الجزائر. هذه الحلقة [من حياته] ليست معروفة جيدا. ماذا تعلمه ماركس من هذه التجربة؟

م.م: في محاولة يائسة لعلاج مرض الرئة بمناخ معتدل، وصل ماركس إلى إفريقيا في شباط/ فبراير عام 1882. مكث في الجزائر العاصمة لمدة 72 يومًا - وهي الفترة الوحيدة من حياته التي قضاها خارج أوروبا. لسوء الحظ، لم يول أي كاتب لسيرة ماركس اهتمامًا خاصًا لهذه الرحلة.

لقد منعت حالته الصحية السيئة من اكتساب فهم شامل للواقع الجزائري ولم يستطع حتى إكمال خطته لدراسة خصائص الملكية المشتركة common property بين العرب. أصبح مهتمًا بهذا الموضوع في سياق دراساته حول الملكية الزراعية ومجتمعات [التشكيلات] ما قبل الرأسمالية[5]، والتي بدأها في عام 1879. كتب في ذلك الوقت، أن إضفاء الطابع الفردي على ملكية الأرض، تم خلال فترة الحكم الفرنسي بأكملها، وأن الغزاة لم يكتفوا بفوائد اقتصادية هائلة فحسب، بل عززوا أيضًا الهدف السياسي المتمثل في تدمير أسس المجتمع الجزائري[6].

انزعج ماركس بشدة من حقيقة أنه أُجبر على التخلي عن أي نوع من النشاط الفكري الشاق. على الرغم من اعتلالاته، فقد كان قادرًا على تلخيص ملاحظات مثيرة للاهتمام حول الاستعمار الأوروبي في رسائل كتبها من الجزائر العاصمة. هاجم بشدة الانتهاكات العنيفة والاستفزازات المتكررة من قبل الفرنسيين ضد كل عمل تمرد من قبل السكان المحليين. وشدد على أنه في ما يتعلق بالضرر الذي سببته القوى العظمى طوال تاريخ الاحتلال الاستعماري، كان البريطانيون والهولنديون الأسوأ.

في الختام: في سنواته الأخيرة، واصل ماركس الجدال مع الأشخاص الذين اعتقدوا أنه من الممكن إضفاء الطابع الديمقراطي على الدولة الرأسمالية. ما رأيك بهذا؟

م.م: في نهاية حياته، عاد ماركس إلى دراسة أصل الدولة ووظيفتها. من خلال دراسة كتاب عالم الأنثروبولوجيا

لويس إتش مورغان وانتقاد المؤرخ البريطاني هنري مين Henry Maine، كرس ماركس نفسه لتحليل الدور الذي لعبته الدولة في المرحلة الانتقالية للمجتمع "من البربرية إلى الحضارة،" وأثناء ذلك بحث أيضًا العلاقة بين الفرد والدولة. كانت ملاحظات ماركس حول هذا الموضوع متوافقة مع أهم نظراته السابقة. في نقد فلسفة الحق لهيجل (1843)، كتب ماركس أن الفرنسيين كانوا محقين في تأكيدهم على أنه "في الديمقراطية الحقيقية تختفي الدولة السياسية." وفي كتاب الحرب الأهلية في فرنسا، الذي نُشر عام 1871، أطلق على سلطة الدولة "القوة العامة المنظمة للاستعباد الاجتماعي" أو "محرك الاستبداد الطبقي".

وعلى نفس النهج، عرَّف ماركس في الدفاتر الإثنولوجية لعام 1881، الدولة كقوة للعبودية الاجتماعية التي تمنع التحرر الكامل للفرد. علاوة على ذلك، أصرَّ في هذه الدراسات غير المعروفة على الطابع الطفيلي والانتقالي للدولة: "أن الوجود المستقل الأعلى الظاهر للدولة هو في حد ذاته ظاهر فقط، وأنه في جميع أشكاله انتفاخ لا لزوم له للمجتمع؛ فكما أن ظهوره نفسه لا يظهر إلا في مرحلة معينة من التطور الاجتماعي، فإنه يختفي مرة أخرى بمجرد أن يصل المجتمع إلى مرحلة لم يبلغها بعد".

تبدو هذه التأملات بعيدة كل البعد عن عصرنا، في مواجهة الحاجة إلى تدخل الدولة للتخفيف من حكم السوق السائد بلا منازع. ومع ذلك، يجب ألّا ننسى أبدًا أن المجتمع الاشتراكي الذي وضع نظرياته ماركس لا علاقة له بدولتية statism ما يسمى "الاشتراكيات الموجودة بالفعل" في القرن العشرين. لقد وجَّه ماركس انتقادات لاذعة ضد أولئك اليساريين الذين أرادوا أن يحكموا من خلال إرضاء أنفسهم بالتصحيحات الملطفة للقواعد الاقتصادية والاجتماعية لليبرالية. لهذا السبب أيضًا، يظل ماركس لا غنى عنه لكل أولئك الذين يكافحون لإعادة بناء بديل تحرري. إن نقده السياسي لشيوعية الدولة و"اشتراكية" الدولة المتوافقة مع الليبرالية لا يقل أهمية عن نقده الاقتصادي لنمط الإنتاج الرأسمالي.

المصادر:

1- Originally published: Left Voice by Josefina L. Martínez (February 27, 2022) - Posted Mar 05, 2022

نُشر في الأصل: Left Voice بقلم جوزيفينا إل مارتينيز (27 شباط/فبراير 2022) - نُشر في موقع MRonline بتاريخ 5 آذار/ مارس 2022 تحت عنوان: The unknown paths of the late Marx
/https://mronline.org/2022/03/05/the-unknown-paths-of-the-late-marx

مارچيلو موستو Marcello Musto أستاذ علم الاجتماع بجامعة يورك في تورنتو، كندا. أحدث مؤلفاته كتاب بعنوان «السنوات الأخيرة لكارل ماركس: سيرة ذاتية فكرية». كما أصدر كتابا بعنوان «ماركس آخر: المخطوطات الأولى للأممية» إلى جانب العديد من الكتب والمختارات الأخرى. وقد أطلق عليه لقب «أعظم خبير في حياة ماركس»، وتُرجمت كتاباته إلى 25 لغة.

حسب علمي فإن مؤلفات مارچيلو موستو لم تترجم إلى العربية، وما هو متوفر هو القليل من حوار له مع المؤرخ الراحل أريك هوبزباوم، ومقال عن روزا لوكسمبرج. فيما يلي ما استطعنا الوصول إليه لروابط ما هو منشور باللغة العربية:

«روزا لوكسمبورغ بعد مرور 150 عاما»، ترجمة: أسامة إسير، موقع الجدلية: https://www.jadaliyya.com/Details/42508

عبد الحسين سلمان، «تُراث ماركس وإنجلز المجلد 28 الغروندريسة القسم الأول» الحوار المتمدن: https://www.ahewar.org/debat/s.asp?t=4&aid=636799 يعرض فيها الكاتب مقتطفات من حوار مع هوبزباوم.

أنظر أيضًا بهذا الشأن «حوار مع إريك هوبسباوم: عودة ماركس»، رصد أخبار العالم:

https://www.gnmonitor.com/%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%B1-%D9%85%D8%B9-%D8%A5%D8%B1%D9%8A%D9%83-%D9%87%D9%88%D8%A8%D8%B3%D8%A8%D8%A7%D9%88%D9%85-%D8%B9%D9%88%D8%AF%D8%A9-%D9%85%D8%A7%D8%B1%D9%83%D8%B3%D8%8C/

2- من بين الدراسات المهمة حول علاقة ماركس بالإيكولوجيا هذين الكتابين:

John Bellamy Foster, Marx's Ecology: Materialism and Nature (Monthly Review Press, 2000)

Kohei Saito, Karl Marx's Ecosocialisn (Monthly Review Press, 2017)

وهو يبحث بالتفصيل في الدفاتر التي كتبها ماركس حول البيئة والزراعة والتربة والسماد ويبين مدى عمق فهم ماركس للقضايا للإيكولوجية في عصره.

3- يمكن متابعة مناقشة هذا الموضوع في كتاب:

Heather A. Brown. Marx on Gender and the Family (Brill: 2012), p 160.

جونو هي ملكة السماء عند الرومان يقابلها هيرا عند الإغريق:

Michael Jordan, Encyclopaedia of Gods (London: Kyle Cathie, 1992), p145.

4- (4) من الدراسات الرائدة حول فكر ماركس في السنوات الأخيرة من حياته بشأن دور الكوميونات الزراعية في روسيا كتاب:

Teodor Shanin, Late Marx and the Russian Road: Marx and the Peripheries Of Capitalism (Monthly Review Press, 1983)

5- (5) راجع:

Karl Marx, Pre-Capitalist Formations, Introduction by Eric Hobsbawm (Lawrence and Wishart, 1964)

6- (6) حسين الموزاني، «رحلة ماركس إلى الجزائر: نظرة فيلسوف البروليتاريا العالمية إلى العرب والمسلمين»، موقع سعدي يوسف الإلكتروني:

http://www.saadiyousif.com/new/index.php?option=com_content&view=article&id=1868:----&catid=27:-&Itemid=27

للتعريف بالملكية المشتركة في عصر ما قبل الإسلام وما بعده راجع: المشترك: نظام الاشتراكية الديمقراطية في ضوء تاريخ المجتمع الإسلامي وخبرة الثورات الاشتراكية الحديثة (منشورات الحزب الشيوعي العراقي-القيادة المركزية، 1983)، الفصل الأول، المشترك في الإسلام، ص 99-39.

حـــــــــــوارات

(الثقافة الجديدة) تفتح ملف المياه وهي تحاور الأستاذ (حسن الجنابي)

حاوره: سوران قحطان

الدكتور حسن الجنابي من مواليد 1955، **غادر العراق عام** 1979 **لأسباب سياسية، مهندس أقدم في علم المياه (الهيدرولوجي) سدني/ أستراليا حتى عام** 2003. **مستشار في وزارة الموارد المائية** (2003 - 2008)، **مندوب العراق لدى منظمات الأمم المتحدة (منظمة الاغذية والزراعة الدولية/ فاو، وبرنامج الاغذية العالمي/ دبليو أف بي، وصندوق التنمية الزراعية الدولي/ ايفاد) في روما في الأعوام** (2014-2009)، **وزير الموارد المائية** (2016 - 2018)، **سفير العراق في تركيا** (2019 - 2020).

الثقافة الجديدة: تشكل المياه العذبة الصالحة للاستعمال البشري ما يقارب 1 بالمائة من حجم المياه الكلي على الكرة الأرضية. وبحسب منظمة الفاو تستحوذ الزراعة على ما يقارب 70 بالمائة من مجموع استخدامات المياه العذبة، مقابل 20 بالمائة للصناعة و10 بالمائة للشرب والاستعمالات المنزلية. وعاما بعد عام تتزايد الحاجة الى المياه العذبة بسبب ارتفاع عدد السكان العالم وكذلك بسبب التغيرات المناخية. وبالتالي فإن التنافس على المياه العذبة، هذا المورد المحدود، يمكن ان يؤدي الى نزاعات وصراعات قد تهدد استقرار العديد من البلدان.

وفي هذا المجال، يبدو ان بلاد الرافدين تواجه ازمة جدية ومخاطر كبيرة، وربما هي ازمة وجودية. حيث هناك انخفاض حاد ومستمر، وبوتيرة متصاعدة في تدفق المياه، خصوصا من نهري دجلة والفرات وروافدهما، وقلة سقوط الأمطار ما تسبب في تدني يكاد يكون هائلا في مستوى الخزين المائي. حتى البحيرات والمسطحات المائية والاهوار تكاد تتلاشى.

بعيدا عن الضجيج الذي يتسبب به البعض، والمعلومات المتضاربة تارة والمضللة تارة أخرى، نستفسر:

هل نحن مقبلون فعلا على كارثة؟ ليست زراعية وبيئة فقط بل وإنسانية أيضا... حيث ستمسي بلاد الرافدين بلا رافدين خلال بضعة عقود، كما تقول بعض التقارير؟

وما هو الوضع الحقيقي لتدفق المياه السطحية في العراق من ناحية: حجم الإيرادات المائية، والخزين المائي الاستراتيجي، والعدد الحقيقي للأنهار التي قُطعت عن العراق؟

حسن الجنابي: نعم، الوضع مقلق طبعاً، لأن الطلب على مياه الرافدين في زيادة مستمرة في البلدان الأربعة العراق وسوريا وتركيا وإيران. والزيادة ناتجة عن الحاجات الإقتصادية والزراعية والصناعية وبالطبع المنزلية وهذه ترتبط بالتنمية والزيادة السكانية وغيرها.

المشكلة هي ان العرض (المياه المتكونة في حوض النهر) ثابت في ظل زيادة الطلب. أقول ثابت ليس بمقاييس موسمية او سنوية بل كمعدل على مدى زمني أطول. على سبيل المثال معدل تصريف نهر الفرات على الحدود العراقية السورية يبلغ 30 مليار متر مكعب على مدى القرن الماضي (عندما كان الجريان حراً أي قبل انشاء السدود التركية والسورية) فمهما زاد الطلب علي مياه الفرات لا يمكن رفع المعدل السنوي الى 50 مليار متر مكعب مثلاً. بالطبع قد يصل التصريف السنوي في سنة فيضانية الى 40 مليارا او أكثر وفي سنة شحيحة الى 10 او 15 مليارا، وهذا لن يغير من المعدل على مدى 100 عام مثلاً.

لتبسيط الأمر يمكن زيادة الكثافة الزراعية في الحوض النهري، أي زيادة الإنتاج الزراعي، ولكن لا يمكن زيادة كمية المياه في الحوض لأنها ثابتة. بالطبع يمكن ادارتها واعادة توزيعها حسب التوقيتات والمواقع وغير ذلك. وعموماً فان كمية المياه على الكرة الأرضية ثابتة

لكن كمياتها متغيرة في المكان والزمان بين دولة واخرى او قارة وأخرى.. الخ.

وعلى ذكر نهر الفرات، فقد انحدر معدل ايرادات العراق السنوية على الحدود العراقية - السورية من 30 مليار متر مكعب الى حوالي 15 مليارا، نتيجة لزيادة الطلب والاستهلاك في تركيا وسوريا. قد يكون هناك تأثير طفيف للتغير المناخي أيضاً لكنه لا يقارن بحجم التأثير الناتج عن التدخل البشري وزيادة السيطرة والاستهلاك وغير ذلك.

عموما، لا يوجد شيء اسمه "خزين استراتيجي" للمياه فهو مثل أي مورد او ثروة أخرى تخضع للاستهلاك حسب حاجة المجتمع، والحكمة ليست في الحفاظ على "خزين استراتيجي" بل في الإستخدام المستدام للمورد سواءً كانت مياه سطحية ام جوفية. فلا يجوز استنزاف كميات المياه المتوفرة في البلاد لأن ذلك يؤدي الى كارثة. يجب بالطبع تخزين الزيادات عن الحاجة الى مواسم الشحة او الندرة ولكن هذا لا يسمى "خزين استراتيجي".

أما بخصوص ايران، فإن أغلب الأنهار القادمة منها مسيطر عليها حاليا من قبلها. أي ان جريانها لم يعد طبيعياً وهذه مشكلة كبرى لأن هذه الأنهار متفق بشأنها في السابق بل ومنذ بداية القرن العشرين في بعض الحالات. وكالعادة لم يجر احترام الإتفاقات السابقة وليس من السهل التكهن بمصيرها مستقبلاً.

الثقافة الجديدة: يصارع العراقيون منذ سنين التداعيات العميقة لأزمتين متشابكتين، هما: المشكلة الزراعية، والازمة البيئية. وهي تداعيات ذات مضامين وتجليات كبيرة وعلى مختلف الأصعدة: اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا. ودون التغاضي عن ان هناك الكثير من الأسباب والمفاعيل والعوامل التي أدت الى هاتين الازمتين المتداخلتين، لكن من الواضح للقاصي والداني ان كلتيهما مرتبطتان ومتداخلتان بشكل لا انفصام له مع ازمة الموارد المائية في البلاد، التي تحدثنا عنها في السؤال السابق. فقد زادت حدة الجفاف في السنوات الاخيرة بسبب ارتفاع درجات الحرارة وقلة الامطار وانخفاض مناسيب نهري دجلة والفرات. وبالتالي أصبح العراق من أكثر البلدان تصحرا وتدهورا في خصوبة أراضيه، فالعراق - بحسب المعنين - يفقد سنويا 100 ألف دونم من أراضيه الزراعية، والصحاري تشكل الآن ما يقارب 39% من مساحته، وهي في تزايد مستمر.

هل لك ان تستعرض لنا بشيء من التفصيل الأثر الحقيقي لانخفاض كمية الموارد المائية على قضايا الزراعة والبيئة في العراق..

حسن الجنابي: الزراعة في العراق زراعة اروائية، أي انها تعتمد على الارواء ووفرة المياه بسبب قلة التساقط المطري. وبما ان العراق عرف تاريخياً بغزارة المياه فقد اعتاد السكان ومنذ القدم على التعاطي مع الوفرة كتحصيل حاصل ولم ينتبه المجتمع الى اهمية التقليل من الهدر. بل حتى النشاطات الزراعية السيحية كانت مفيدة لجهة تكوين اراض رطبة ومستنقعات نظيفة اي أهوار موسمية

وخاصة في مواسم زراعة الرز في مناطق الفرات الأوسط. ومن الضروري الإنتباه الى ان تأثير النشاط الزراعي قبل خمسين عاما مثلاً وعبر التاريخ الذي سبق تلك الفترة كان ايجابياً على البيئة. فقد كان الغطاء الأخضر واسعاً بما فيه من غابات ونخيل وأشجار مثمرة وغير مثمرة وكانت الفيضانات السنوية في مواسم الربيع تمنح الأرض المزيد من الخصوبة.

مع الزحف البطيء لمنشآت السيطرة الهيدروليكية وتناقص ايرادات العراق، وزيادة وتائر التلوث وضعف او انعدام الوعي البيئي استفحلت ظاهرة التلوث وتفاقمت ممارسات التلويث بما فيها من قبل مؤسسات حكومية يفترض ان تكون أكثر حرصاً على نوعية المياه والبيئة. الى جانب ذلك انتشر استخدام المبيدات والأسمدة الكيماوية الملوثة وضعفت اجهزة تطبيق القانون وانتشرت ممارسات تجريف البساتين اللاقانونية فاستفحلت ظاهرة التصحر وتقلصت المساحات المزروعة، مقابل تمدد وتوسع العشوائيات والمجمعات السكنية الناتجة عن صفقات فاسدة لم تراع فيها القوانين النافذة.

عموماً، فإن القطاع الزراعي العراقي هو قطاع خاسر اقتصادياً ولا يمكن استمراره لولا الدعم الحكومي منذ حوالي 50 سنة. وللإستدراك هنا فإن الدعم الحكومي سلاح ذو حدين. فمن جهة هو مطلوب لحماية فقراء الفلاحين وحتمية التدخل الحكومي لدعمهم، وهذا أمر واجب على الحكومة. ومن جهة أخرى، وهذا ما يظهر غالباً، فإن المستفيدين من الدعم الحكومي هم الوسطاء والسماسرة والملاكين من ذوي العلاقات "المؤثرة" وخاصة في زمن المحاصصة الحزبية والطائفية والمحسوبية وما يرافق ذلك وما نتج عنه من فساد.

الثقافة الجديدة: ارتباطا بالسؤال السابق، يبدو ان العراق خسر ما يمكن تسميته "حرب المياه" مع دول الجوار. وهي حرب خسرناها دون أن ندخلها ودون حتى ان تبدأ. حيث يبدو جليا ان ما بذلته الحكومات المتلاحقة من جهود في سبيل ضمان حصة عادلة ومنصفة من الإيرادات المائية ضئيل بصورة تبعث على الاستغراب.

فما زالت دولتا المنبع (تركيا وإيران) تسيطران على الموارد المائية وتحرمان العراق من حصته. فهما لا تلتزمان بالاتفاقيات الدولية ولا الثنائية، ولا تقيمان وزنا للآخر. وتنطلقان من حق مطلق للتصرف بالمياه التي تنبع من أراضيهما، باعتبارها جزءا لا يتجزأ من سيادتيهما. وذلك دون النظر إلى الحقوق الإنسانية والتاريخية للآخرين. بل وحتى لو أدى ذلك إلى الإضرار بهم.

ترى، ما هو تقييمك كمختص وكوزير سابق للموارد المائية في العراق وكسفير لدى تركيا للتدابير التي اتبعتها الحكومات العراقية المتلاحقة ومؤسساتها المتخصصة - وعلى وجه التحديد بعد 2003 - في التعامل والتفاوض مع دول المنبع؟

من جهة أخرى، ما هي الآليات الفنية والاجراءات السياسية التي يجب ان تتبعها الحكومة القادمة في تعاملها مع هذا الملف؟

حسن الجنابي: مقدمة السؤال فيها اشكالات وافتراضات بحاجة الى تدقيق. أما موضوعة السيادة فقد غادر القانون الدولي هذا الأمر إذ لا سيادة مطلقة على المياه المشتركة والعابرة للحدود. واذا اعتبرت المياه في دولة المنبع جزءا من سيادتها، فهي كذلك جزء من سيادة دولة المصب. الإشكالية الأخرى هي المتعلقة بـ ''الحصص''. على سبيل المثال لا احد يعرف حالياً ما هي ''حصة العراق'' التي وردت في السؤال (على الأقل رسمياً). كذلك لا احد يعرف ما هي حصص الآخرين. علماً ان مياه الرافدين وروافدهما برمتها كانت ''حصة العراق'' عبر التاريخ حتى اواسط السبعينات. لذلك فإن قضية الحصص ستبقى اشكالية لأنها تدخلنا في ارقام قد لا تحصل في الواقع المتغير هيدرولوجياً. أنا شخصياً أفضل النسبة المئوية للتعاون وتقسيم المياه المشتركة لأنها أقرب للعدالة. فمهما كان التصريف الطبيعي للنهر ستكون فيه نسبة محددة للعراق، وهي نسبة لم يتفق بشأنها حتى الآن، كما جرى بين العراق وسوريا بخصوص ما يتم رصده على الحدود التركية السورية حيث اتفق على نسبة 58 بالمائة منها للعراق مقابل 42 بالمائة لسوريا.

لقد حاولت ان أكسب الموقف التركي لهذه المقاربة، واعتقد انني نجحت من حيث المبدأ ثم داهمنا الوقت واستبدلت حكومتنا بحكومة عادل عبد المهدي قبل الإتفاق على النسب واختيار الموقع او المواقع التي يتم فيها رصد التصريف. من المؤسف أن الوزير الذي جاء به عبد المهدي لم يكن بقدر المهمة ولم يكن مدركاً للموضوع، ومعلوماته عن أنهار العراق والروافد والتصاريف والقوانين الدولية والعلاقة المائية مع الجوار ضعيفة جدا ان لم تكن معدومة، وقد اسهمت تصريحاته وأفعاله بتراجع العلاقة المائية الى السلبية. أما الوزير الحالي فخبرته محدودة وتتركز في الجانب التشغيلي اليومي للسدود، وتنقصه الرؤيا المستقبلية الستراتيجية ومتعلقاتها، سواءً ما تعلق منها بادارة المياه المشتركة أم بالقوانين الدولية للمياه أم الالتزامات النابعة من عضوية الإتفاقيات الإطارية الدولية الخاصة بالمناخ (UNFCCC) والتنوع الإحيائي (UNCBD) ومكافحة التصحر (UNCCD) وحماية الأراضي الرطبة (RAMSAR) وغير ذلك.

كذلك لا يوجد في القانون الدولي للمياه شيء يسمى ''حقوق تاريخية مكتسبة''، بل أن هناك شيئاً واقعياً وصحيحاً في القانون الدولي هو حماية ''الاستخدامات القائمة'' وليست التاريخية. فطالما كان هناك استخدام للمياه قائم يجب ان يحترم عند البدء بمشروع جديد. أما الاستخدامات المندثرة فليس لها اعتبار في القانون، إلا بحدود تعلق الأمر بالآثار والتراث الإنساني.

للأسف لم تجر ''مفاوضات'' بشأن المياه الا بقدر محدود، بمعنى أنها كانت جزءا من مشاورات عامة او على مستوى لقاءات واجتماعات فنية الطابع، ولم ترقَ الى ان تكون مفاوضات. مما يؤسف له ان تركيا لا تدخل ''مفاوضات'' حول المياه لكنها مستعدة للإنخراط في نقاشات فنية

او مشاريع مشتركة او تعاون في مجالات التدريب وتنمية القدرات. وهي كذلك لا تقبل بوجود طرف ثالث بل تدعو الى تعاون ثنائي، وهذا لا بأس به ان كان يؤدي الى اتفاق شامل مثلاً حتى وان كان على مستوى المبادئ، كما حصل عام 1946. وشخصياً لا أجد اي مبرر لتخلي العراق عن الصيغة المثلى للتعاون المائي بين البلدين الواردة في البروتوكول1- الملحق بـ "معاهدة الصداقة وحسن الجوار" لعام 1946.

وبخصوص إيران يرتبط الملف المائي باتفاقية الجزائر عام 1975 ولم يحصل اي تقدم باتجاه تنفيذ البروتوكول الملحق بالاتفاقية والذي تضمن مبادئ جيدة جدا لقسمة المياه باعتقادي الشخصي. لكن العلاقة الشائكة بين البلدين منذ ذلك التاريخ الى الحاضر تعيق التنفيذ. هناك أيضا أمر ديواني برقم 103 يخص تشكيل لجنة فنية للتفاوض وتثبيت الحدود بما فيها في شط العرب، وهذه اللجنة ما تزال قائمة، ولكن ليست بالفعالية المطلوبة.

الثقافة الجديدة: بالتأكيد، وبسبب من طبيعة النزاع وتعنت دول الجوار، ستأخذ إجراءات التفاوض والتعامل مع دول المنبع وقتا طويلا من اجل ضمان الحصول على حصة عادلة من الإيرادات المائية. حتى ذلك الحين، ما زال التحدي الأكبر يتمثل في كيفية إدارة ملفات الزراعة ومياه الشرب وسط هذا التناقص الحاد في الموارد المائية؟ لم نذكر الصناعة هنا لأنها لا تمثل حجما يعتد به من الاقتصاد العراقي!

وكيف يمكن إدارة ازمة البيئة والتصحر والجفاف من خلال كميات المياه المتوفرة!

بمعنى اخر، ما هي الآليات الضرورية من اجل تعزيز فعالية إدارة المياه؟ خصوصا في ظل اتباع الطرق التقليدية في ري الأراضي الزراعية والتي لا تواكب التطور الحاصل في هذا الميدان، وفي ظل تزايد كبير في أعداد السكان.

ومن جانب اخر، ما هو الدور الذي من الممكن ان يلعبه خزين المياه الجوفية الذي يمتلكه العراق؟ وفي ذات السياق، هل هناك جدوى فنية واقتصادية في الاعتماد على آليات تحلية مياه البحر؟

حسن الجنابي: القطاع الزراعي - المائي من القطاعات المتلكئة، والى حد ما غير المجدية اقتصادياً وهو يعتمد كلياً على دعم الدولة منذ نصف قرن. ويبدو أيضاً ان الأمر غير قابل للإصلاح في ظروف عدم الاستقرار السياسي والأمني وما يرتبط بهما من مخاطر اجتماعية كالفقر والبطالة والفساد وانعدام التكافؤ والعدالة الإجتماعية. تزداد شدة المخاطر على النسيج الإجتماعي مع زيادة الهجرة من الارياف الى حواشي المدن وأحيائها البائسة والعشوائية التي تنتشر فيها الأمراض وتنعدم فيها الخدمات تماماً. لا شك في أن مياه الشرب فيها نقص فادح على مستوى العراق في الكمية والنوعية. ولا يبدو ان الحكومات المتعاقبة قدرت حجم المخاطرة في اعتماد مياه الشرب على النظام النهري والإروائي. فلا توجد بدائل في البرامج الحكومية للتقليل من مخاطر الإعتماد على المياه

الجارية التي تخضع الى سيطرة كاملة عن طريق السدود والسدات والنواظم، فضلاً عن التجاوز على الحصص بين الدول وعلى المستوى الوطني بين المحافظات. وشخصياً لا أرى بديلاً واقعياً للتخلص من مخاطر النقص الفادح في مياه الشرب، الا عن طريق مشاريع التحلية، وهذه المقاربة مهملة حالياً، وتشير بوصلة الاستثمارات الحكومية خطأً الى بناء المزيد من السدود التي ستبقى فارغة معظم الأوقات في ظل شح الإيرادات.

انا سبق ان دعوت عشرات المرات وعلى جميع المستويات الى ضرورة تحلية مياه البحر او المياه الجوفية إن كانت هناك رغبة حقيقية في معالجة مخاطر المستقبل. ولاحظت ان اموالاً طائلة هدرت في القطاع المائي في غير محلها، وهناك تقصير واضح في هذا الميدان.

الثقافة الجديدة: كلمة اخيرة، في العراق يبدو جليا ان الكثير من المشاكل التي تتطلب حلولا ذات أبعاد استراتيجية يتم تعطيلها وتعقيدها لأسباب ومنطلقات سياسية. من قبيل: الوهن والضعف الذي أصاب مؤسسات الدولة ومفاصلها المختلفة؛ الفساد المستشري فيها؛ الصراعات اللا مبدئية، التي تنطلق من مصالح سياسية وحزبية ضيّقة على حساب مصلحة البلاد والصالح العام؛ الصراع على المناصب، ووضع الشخص غير المناسب في المكان غير المناسب.. وغيرها الكثير..

وبكل تأكيد، لعبت الصراعات السياسية، دورا بارزا في إيصال البلد الى وضعه الحالي في قضايا المياه والزراعة والجفاف.

ما هو تعليقك على هذا الموضوع؟ وهل يمكن أن تذكر لنا أبرز الخلاصات والاستنتاجات التي توفرت لديك من خلال عملك كوزير للموارد المائية على مستوى الإنجاز المتحقق والصعوبات التي واجهتك؟

حسن الجنابي: رأيي بما ذكرتم في السؤال نشرته في كتابي "الدولة العقيمة" وهو يلخص تجربتي وآرائي بحاضر البلد ومستقبله، وادعو المهتمين للإطلاع على الكتاب. ولكن باختصار أقول بالإضافة الى خراب الدكتاتورية وسلطة البعث السابق، فإن المسؤولية الكبرى تقع على حكم التوافق والمحاصصة التي ادت الى تحويل دور السلطة باتجاه تقسيم المغانم والثروات والعقارات والأراضي والوظائف والإستثمارات وعقود المساطحة (تأجير مرافق الدولة لمدد زمنية تزيد على 50 سنة) وإجازات بناء المولات والأحياء السكنية على محرمات الأنهار وتجريف البساتين وتغيير جنس الأراضي والاستحواذ على الأملاك العامة والساحات الخضراء وما شاكل ذلك من نهب وسرقات وفساد وتزوير تحول معه العراق الى دولة عقيمة. من هنا فان قطاع الموارد المائية ليس استثناءً، وان نظرة سريعة على الوسائل التي صرفت من خلالها الأموال منذ 2003 ستظهر الكثير من المصائب.

أدب
و
فن

الإرهاب.. ثقافيا!

حسب الله يحيى

شكلت الهجمات الإرهابية لتنظيم القاعدة في 11 أيلول 2001 باستهداف: مركز التجارة العالمي والبنتاغون والكونغرس في الولايات المتحدة الأمريكية، نقلة لافتة في مواجهة دول العالم للعمليات الإرهابية التي راحت تنشر الفكر الظلامي التدميري، وكانت وطأتها على العراق، بالغة الثقل، بالغة المأساوية، بسبب ما تركته تلك العمليات من دمار وخراب واحتلال ثلث العراق وعلى وجه الخصوص مدينة الموصل.

صحيح ان ظلامية هذا التنظيم جاءت بتأثير ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وسيد قطب وحسن البنا.. وقبل هؤلاء انتشار الأفكار المتطرفة والسلفية في حقب زمنية ظلامية مختلفة، الا ان هذا التوجه الرجعي كان يتسلل إلى الناس عن طريق زرع الممنوعات والفتن والفتاوى المجانية وإعمام الجهل.

وهذا يعني ان تنظيم القاعدة ومن ثم تنظيم داعش وكل التنظيمات الإرهابية المنتشرة في العالم تحت عدة عنوانات، ما كانت لتحمل السلاح، قبل أن تعد العدة لممارسة الإرهاب الفكري عبر سلسلة من المحظورات والدفوعات باتجاه الثواب في الآخرة. والاستغناء عن الحياة، أو التفاني من أجل كسب الحياة الأخرى.

ووجد هذا الخطاب قبولاً لدى كثير من الجهلاء الذين لم يتوقفوا عند طبيعة هذا الخطاب وماذا كان يراد منه.

لقد عمل هذا الفكر التضليلي على التأثير عاطفيا وروحيا من باب الدين بوصفه الأكثر حميمية لدى بسطاء الناس.

من هنا ظلت هذه التنظيمات الإرهابية تعمل وبشكل دؤوب على محاربة الأفكار الديمقراطية والليبرالية والعلمانية وكل فكر تقدمي متصالح مع الحياة والمستقبل...

وعمدت إلى تغييب المرأة عن العمل والتعليم، مثلما اسدلت الستار على الفنون والمعارف بوصفها توجهات تنويرية تخاطب العقل والحواس على حد سواء.

ووصل الأمر بهذه التنظيمات الإرهابية إلى محاربة العلم والعلماء وعدوا ذلك تدخلا في شؤون الخالق.. وفي تصورهم ان اي ابتكار علمي او معرفي او صحي مثير للجدل، لا يرغبون في اثارته.

وعندما نتحدث عن الإرهاب الثقافي، ندرك تماما ان هذا الإرهاب تمارسه كل السلطات الدكتاتورية التي تعمد إلى قمع الأفكار التنويرية ووأد كل ما يسهم في اغناء العقل والروح والحواس.

في حين تتيح الجهالة اطاعة أولي

الأمر مهما كان طغيانهم وممارساتهم في نهب خيرات وارادة الشعوب.

من هنا نرى ان العلم والمعرفة، هما من أفضل واقوى الأسلحة التي يمكن ان نستخدمها في محاربة الإرهاب، قبل مواجهة هذا الإرهاب بقوة السلاح.. ذلك أن اي سلاح لا يعرف صاحبه كيف ولمن يوجهه مآله الفشل.. ونحن لا نريد لسلاح الوعي ان يغيب وأن يأخذ مداه على نطاق واسع.

لذلك نرى ان التوجه الوطني نحو بناء أجيال من الشبيبة المسلحة بالعلم والعطاء والابداع.. من أفضل السبل التي تغير العقول والدروب معا.. بحيث يصعب على هذه التنظيمات الإرهابية اختراق الشبيبة الواعية.

إن العمل الأساس الذي تعتمده قوى الإرهاب لا يخرج عن إطار الجهل الذي يعد الأرضية السهلة الاختراق والتي تمهد بالتالي الى كراهية الحياة والناس بحثا عن مجهول يغدقون عليه صفات الحياة السعيدة والثواب الامثل..

هذا التباين ما بين ارهاب يقمع الحريات ويعمد إلى اعمام الجهل من جهة، وفكر نيّر يسهم مساهمة اساسية في انتشال المرء من واقعه المر والجهل المخيم على واقعه إلى مصاف العقل واتخاذ اسلوب حياة ومسار عمل، هو السبيل للخلاص من كل قوى الإرهاب الظلامي التضليلي مهما كانت اساليبه وقواه وتسليحه، فالعقل هو ارادة البشر وبهذه الارادة نقوى على الضلالة أياً كان اصحابها.

شذرة الشذرات
قراءة في ديوان "شذرات" للشاعر كامل الركابي

د. إبراهيم إسماعيل

تعــود معرفتي بالشـاعر كامل الركابي الى السنة الأولى في المنفى الجزائري، حين سمعت له قصيدة أمي والسفر، في جلسة صاخبة سرعان ما تحولت الى ما يشبه المناحة، جراء بكاء النسوة اللواتي أجبرن على ترك أمهاتهن في الوطن، وهمهمة رجال، سعوا للتكتم على دموعهم عبر إطلاق صيحات الإستحسان، ومن ثم التمتمة بقصيدة الراحل الكبير محمود درويش "أحن الى خبز أمي".

كان الشعر، والشعبي منه بشكل خاص، الهواء الذي يمنحنا نحن المنفيين حينها، عبق الوطن الذي سرقه منا الفاشيون، والبُلغة التي تمكننا من التعايش مع الغربة القاسية. ولهذا تبوأ الشعراء مكانة متميزة في حياتنا ومسارنا الثقافي والسياسي. وكان منهم كامل، الذي تمكّن من أن يجد له مكاناً في اللوحة، مما أدهش الكثيرين، إذ لم يكن يسيراً على شاب عشريني أن ينجح في وضع قدمه بساحة أكتظت بكبار الشعراء العراقيين، بدءاً من مظفر النواب في دمشق ووصولاً الى الأخوين السماويين شاكر وعزيز في الجزائر.

ولم يمض وقت طويل، حتى تعرف الجمهور، والمبدعون والنقاد، على صوت مهم، تبنّت قصائده لهجة المدينة التي ولد

وترعرع فيها، فنجح في الوصول الى لغة شعرية عامية، هي الأقرب الى الفصحى من سواها، قصائد سهلة الحفظ، لا تحتوي على الكثير من التعقيد والغرابة، مشبعة بالفكرة العميقة وبلوحات زاهية.

وتميزت دواوينه الأولى، بتبني صوت الناس، فحمل نبضهم المكبوت، وغاص في أعماق أحلامهم، وكشف عن همومهم، وأشر معالم المسار المرتجى، فأضاء المساحات التي شغلها فتية وصبايا، علّموا الدنيا معنى الصبر والوفاء، وشمخوا نجوم هداة، وأخرجونا من جحيم المتاهة الى جمال الأنسنة.

شيوعيين
كل نبضة أبگلبهم
ورد ورياحين
شيوعيين

كل نسمة إبفجرهم
خبز للفقرة
وشمس
يفرش ضواها
أبيوت المحبين
وقصيدة مشاهدات
شفت
رسام
يرسم بالعذابات
چفه احجار
وأيامة إنتفاضات [1]

ومع تواصل إلتزامه الفكري[2]، بدأت تتقلص وربما تختفي تدريجياً النصوص المسكونة بالهاجس الايديولوجي المباشر، لتحل محلها الرموز المعبرة عن الأفق، والمدى الذي نرى فيه جوهر الفكرة، لا تجلياتها اليومية. ورغم بقاء القصيدة مضمخة بعطر الوطن، الا أنها راحت تعبّر عن رفض ما تعيشه تلك الأرض القابعة في حدقات العيون، وما يكابده ناسها من عذاب، وما يكتنزوه من قدرة على المقاومة.

ثم تطورت القصائد، فراحت المفردة والصورة تتبادلان المواقع، لتعبرا عن رمزية موحية حيناً ومغلفة أحياناً، في قصدية، لا تريد تشتيت ذهن قارئها، بل لإشهار الأسئلة عليه، ودفعه للبحث هو بنفسه عن أجوبة لها، أسئلة مشبعة بالهموم الفلسفية وبفردوس الحلم الموءود، وباللوم المرير للذات وللآخر، وربما للدليل الذي أضاع الفرص، وأسكن الشاعر وناسه، مرارة الخسارة. وهو ما نراه جلياً في ديوانه الأخير (شذرات) الصادر عن دار الرواد في بغداد 2022.

بالحلم
هم ما وصلنا
والحلم من طبعه
يختصر المسافه
واحنه صار سنين
نمشي
نمشي
بدروب الخرافه
وكذلك في قصيدة القهر
تشتعل ثورة
وتصعد بالحلم لله
وتنطفي ثورة
ويجي الخذلان
والخيبات
حياتك
گضت قهر
ع الثورات!

ومرة جديدة، يلفت شاعرنا إنتباه النقاد ومتذوقي الشعر وجمهوره، ليس

بسبب شاعريته والصور الجميلة التي انطوى عليها ديوانه فحسب، بل ولقصيدة الومضة، التي تخلصت من الرطانة والزوائد، وراحت تستفز عقل المتلقي وفكره، في اختزال غير مخل، يفتح عوالم مترامية من المتناقضات والتأويل والتحليل والإستنتاج، قصيدة تتسق مع عصر الرقمنة والسرعة، فيما تريه من وحدة عضوية، بين كلماتها المحدودة وما تكتنزه تلكم الكلمات من خيال وحساسية مرهفة وصور شعرية متقنة. ولن أكون مغالياً إن قلت، بأني أرى الشاعر من بين أبرز من التقط التفاصيل اليومية الحية، وممن نجح في تبنى هذا الإتجاه في الشعر الشعبي العراقي، مقتنياً المفردات الجميلة، لا لمجرد أنها جميلة بل لمحتوى علاقتها بالنص. وتبرز في ديوانه الأخير العديد من الأمثلة على ذلك:

الشمس
گتلك: ما تدوم
وين ما تمشي
على راسك
غيوم!

أو في قصيدة "ظل"

ظلي خايف
من تغيب
شموسك
وينكتب: مفقود
جوه ارموشك!

وبرزت من قصائد الومضة، في هذا الديوان، ما يؤشر تناقض حالتين وجدانيتين:

هذا صوت الريح
ماينسمع
حسك
انت سارح
بالحلم
لو ناسي نفسك!

وكذلك في قصيدة "سنبل"

حقل حبك
جمر
مزروع برماد
وروحي سنبل
مايبس
بعد الحصاد!

وجاء ديوان "شذرات" طافحاً بالغضب والخوف والتوتر والاكتئاب، من هذا الوأد الذاتي أو التراخي أمام النصل الممتد للعنق:

هذا انت
وبيك تتخفى
الظلال
والشمس
ما زارتك
حتى ابخيال!

ويلعب المكان دوره في قصائد الديوان، حيث يظهر تأثيره جلياً ـ كواقع جغرافي أو كفضاء متخيل ـ على جمالية اللغة الشعرية، وعلى اختيار المفردة، وفي تشكيل صور القصيدة، حيث ظهرت لغة الحب والحنين للوطن، متلازمة مع معاناة الشاعر في المنفى، والمرارة القاسية التي يسببها الأسر في عوالمه، من عزلة وغربة وعجز، وحيث يفتقد لذة الحرية، ويصير التواصل مع الجار سبّة، فيما الوطن، لا بوصفه أرضاً، بل روحاً وحقاً ومواقف، أقرب من حبل الوريد وأبعد من المجرات:

نزلت الايام
منسيه
على الغايب بعيد
صار منه الذاته
صندوگ
وبريد !
ويشتد العجز وتتعمق الغربة وتطبق العزلة على المخيلة
انت تحلم
لا شمس عندك
ولا ظل
انت من اسنين غافي
ابظلمه
لا فزيت مره
ولاطلعت من المغاره !
وعلى الرغم مما وفره المكان الإسكندنافي، من فرص لإستثمار مفردات جديدة حيث وردت في الديوان كلمة الثلج 14 مرة والبرد 7 مرات والمطر 10 مرات والغابة 5 مرات والنهر 11 مرة، الا أن قسوة المكان، رغم جماله، كان سعيراً أذاب الروح، فهو مكان بلا حياة في مخيلة وواقع الشاعر:
آخر الليل
الثلج
يرسم بياضه
من بحيرات
وصدَف
ويرسم بلونه
الوحيد
لوحة الروح
الغريبه
موّقعه بأسم: الأسف
ورحت انام
ومن خَزف
عالي السرير
وماغفيت :
مو سريرك
ذاكَ ناصي
وچان
من خوص وسعف !
او في قصيدة "العشب هو الوطن"
نزلت بروحي
الحرايق والمنافي
تشتعل هي بجمرها
وانه
طافي!
لكن لا وطن بدون مواطنيه، لا وطن بدون الخلاص من أية معان للذلة، فحين يفقد المواطن إحساسه بالكرامة والشموخ، يفقد الوطن معناه، وتتضاءل قيمته والرغبة بالانتماء اليه:
وكتب آياته بالتوراة
والانجيل
والقرآن: أبد ماكو
وطن من غير انسان!
إذن الوطن ما نراه في ثنايا الروح
نزلت الخمره
على الرجلين بعد الراس
وتمايل بدن
صار باب البيت
ابعد
من عدن
نام بساحة العشار
عد ام البروم
والعشب بارد
اظن: هوّ الوطن !
ومقابل هذا الغضب والحذر، كان

للشعر شموخ النصر والمقاومة في تشرين:

شبعاد
تگعد من سبات الحلم
تفرك عينها
بكطرات من دجله
وتغسل راسها
بمايات
من فيضه
وتحنّي گصيبتها
الطويله بطين
من شط الفرات
وتعتني البغداد
وتولد
من جديد
ابساحة التحرير
هي الوطن والميلاد !

كما يستوقفنا الشاعر أمام حالات إنسانية متميزة، قوية الحضور، فيقول:

الورد
والموسيقى
والثوب
النظيف
مثل
روحك
شجره
تتعرى
على نغم
الخريف !

وخاض الركابي في ديوانه "شذرات" مجازفة، حين إبتعد في بعض القصائد كثيراً عن العامية العراقية، ليتلمس ضفاف الفصحى، كما في قصيدة احتيال:

المغني
وباحتيال
اخذ بحّة صوتي
حتى
يصير باسمه
كل نجاح
الاحتفال!

أو ليقرن ذلك بشيء من التغزل بقصيدة النثر:

دوّرَت عنك
زوايا الارض كلها
النسمه
عرفَت
عن طريق الطير
انت اجنحة عندك !

وأخيراً، يثبت لنا، ديوان "شذرات"، ما قاله الموسيقار الشهير هانس إيسلر من أن علينا كماركسيين أن ننبذ التعصب في الفن وأن لا ننحّي جانباً الجمال، فهو من يلعب في الفن الدور الاول دوما. لقد نجح الديوان في طرح القضية، وفي دعوتنا للحوار حولها، لنصل معاً الى المرتجى!

هوامش :

1. من ديوان "فوانيس" للشاعر
2. كانت للشاعر الركابي تجربة نضالية مؤثرة، تمثلت في مشاركته قوات أنصار الحزب الشيوعي العراقي، في كفاحها الباسل ضد الدكتاتورية، إبان الثمانينات.

مطارحات غرامشية*

ثامر عباس

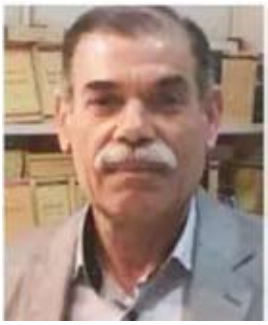

(1)
الدور التقليدي للمثقف العضوي

ليس من قبيل الاكتشاف القول إن فكر الفيلسوف الايطالي الماركسي (أنطونيو غرامشي) استدعى، منذ لحظة صدوره وحتى كتابة هذه السطور، الكثير من النقاشات وأثار العديد من الجدالات التي لم تكن تخلو من مظاهر التعصب أو التطرف في بعض الأحيان، ليس فقط على صعيد الواقعين المحلي/ الايطالي والإقليمي/ الأوروبي فحسب، وإنما على مستوى العالم بشرقه وبغربه بشماله وجنوبه كذلك. ذلك ان مضامين ذلك الفكر تجرؤ - وللمرة الأولى - على زحزحة التصورات وخلخلة اليقينيات وفككت المفاهيم، لأشهر منظومة فكرية وفلسفية ألا وهي (الماركسية). ولهذا فقد وصف الفيلسوف الايطالي (كروتشة) أن غرامشي هو من "أعظم مفكري أوروبا في هذا الوقت".

والحال ليست فقط تلك (الجرأة) العقلية و(المقدرة) المعرفية التي تمتع بها غرامشي، هي ما أسبغ على أفكاره وطروحاته المستحدثة في حينها ذلك الصيت من الشهرة وذاك المدى من الانتشار فحسب. وإنما لكونها صدرت من داخل تلك المنظومة التي ظن أنها محكمة الصياغة ومتينة البنيان ليس ميسوراً لأي كان نقد مقولاتها أو التشكيك في استنتاجاتها، فضلاً عن أن من قام بهذه البادرة/ المغامرة هو أحد أبرز قادتها السياسيين وألمع منظريها الإيديولوجيين كذلك. وهو الأمر الذي خلق له (غرامشي) الكثير من الخصوم والمناوئين سواء من داخل الحركة الشيوعية أم من خارجها، من دون أن يحظى بقدر مماثل من المساندين لطروحاته والمؤيدين لتوجهاته، بحيث تسببت له تلك الأنشطة الخطرة والمواقف المتطرفة بالعديد من المشاكل السياسية المتراكمة والمعاناة النفسية المتفاقمة، والتي لم يبرأ من عواقبها أو ينجُ من تداعياتها حتى لحظة وفاته في سجون الفاشية الايطالية.

ولعل من أبرزتلك الابتكارات

المفاهيمية، والاستنباطات الابستمولوجية، والتحليلات السوسيولوجية التي اجترحها غرامشي، يمكن عدّ مفاهيم (المثقف العضوي) ونظيره (المثقف التقليدي) أكثرها شهرة في مجال الايديولوجيا وأشدها جاذبية في مجال السوسيولوجيا، نظراً لكونها سمحت للعوامل الجغرافية والثقافية والنفسية أن تكون موازية في الاهمية، مقارنة بدور العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في تشكيل البنى وتكوين الظواهر. ولكن بقدر ما أفضت تلك المفاهيم إلى تعميق معارفنا وتوسيع مداركنا لجدليات وديناميات تلك البنى والظواهر، بقدر ما تسببت في ارتكابنا العديد من الإخفاقات ليس فقط في تحديد ماهية (المثقف) فحسب، وإنما في التباس دور ووظيفة هذا الأخير وفقاً لأنماط تصنيفه بين (العضوية) و(التقليدية) كذلك.

وبما أن المثقفين العضويين - كما لاحظ الباحث المتخصص في حياة غرامشي وأعماله (جون كاميت): "الذين هم جزء من طبقة مسيطرة، يقدمون الأشخاص اللازمين لأجهزة الإكراه في المجتمع السياسي"، فان ذلك كفيل بتغيير دورهم واستبدال وظيفتهم ونزع صفتهم (العضوية) وترشيحهم، ومن ثم لاكتساب صفة (التقليدية). أي بمعنى أن المثقف (العضوي) حين يقوم بدوره (الطبقي) ويمارس وظيفته (الإيديولوجية)، سيكون مضطراً إلى مراعاة مصالح الجماعة التي ينتمي إليها ويمثل توجهاتها ويحمل رسالتها، بصرف النظر عن طبيعة الأهداف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تبشر بها تلك الجماعة، حتى ولو كان هذا الموقف (الدفاعي) لا يمثل أو لا ينسجم مع مصالح الجماعات الأخرى في المجتمع.

ولأن دور المثقف (العضوي) - كما تنص أطروحة غرامشي - ينصب على تمثيل مصالح الجماعة (المسيطرة) سياسياً والمهيمنة (إيديولوجياً)، الأمر الذي يترتب عليه استنفار طاقاته المادية وتعبئة قدراته الذهنية، ليس فقط لتبرير مواقف جماعته وتسويغ تصوراتها وشرعنة سياساتها فحسب، وإنما للحيلولة دون حصول تغييرات بنيوية تمس موقعها الاجتماعي، وتهدد مصالحها الاقتصادية، وتعرض دورها التاريخي للخطر. من هنا تشرع بدايات انسلاخه عن (عضويته) وتمظهر استحالته إلى مثقف (تقليدي)، من حيث كونه أصبح مدافعاً عن ثبات الأوضاع الاجتماعية واستقرار النظام السياسي وداعية للهيمنة الإيديولوجية.

والمفارقة إن هذا التحول/الانقلاب (الكيفي) في الدور والوظيفة، لا يشترط بالمثقف (العضوي) أن يكون (واعياً) به أو مخططاً له، وإنما يحدث تلقائياً، لاسيما وان الصلة أو العلاقة ما بين المثقف (العضوي) ونظيره (التقليدي) لم تنقطع تماماً كما أكد على ذلك غرامشي، ولهذا فإن صفة (العضوية) تحتم على المثقف الأول أن يكون مدافعاً عن مختلف الممارسات (السياسية والاقتصادية والاجتماعية) والسعي لاستمالة بقايا المثقفين (التقليديين) الذين يسميهم غرامشي (حطام الطبقات) المهزومة تاريخيا.

(2)
الدور العضوي للمثقف التقليدي

لا بد من السؤال: إن كان بالإمكان حيازة المثقف (التقليدي) لدور المثقف (العضوي)، ومن ثم قدرته على انتزاع وظيفته والفوز بصفة (العضوية)، وها نحن نقدم – في هذا الموضوع - الإجابة التي نأمل أن تكون منطقية ومقنعة. والحال غالباً ما حظي شخص المثقف (التقليدي) بالازدراء والاستخفاف من لدن الغالبية العظمى من الصحفيين والكتاب والباحثين المهتمين بالشؤون الفكرية والثقافية؛ ليس من منطلق إدراكهم طبيعة هذه الشخصية المركبة واستيعابهم لما تشتمل عليه من سمات وصفات، وإنما من باب ما تحمله صفة (التقليدية) الموشوم بها من إيحاءات مستكرهة وانطباعات مستهجنة، جرى استبطانها واجتيافها نتيجة الجاذبية القوية التي تتمتع بها خاصيتا (النمطية الذهنية) و(النسقية الثقافية).

ولهذا نلاحظ أن معظم أشكال (التبشيع) و(التشنيع) المساقة – حقاً أو باطلاً - ضد هذا النمط من الفاعلين الثقافيين، صادر من عناصر هي بالأساس مبتلاة - دون أن تعي ذلك - بالخصائص (التقليدية) و(النسقية) الموروثة، لا في وعيها الذاتي وتصوراتها الجمعية فحسب، وإنما في سلوكها اليومي وعلاقاتها المعاشة كذلك. ولذلك فهي حين تصدر أحكامها المتسرعة وتصوغ مقولاتها المبتسرة ضد ما تعده مخلفات ورواسب (تقليدية)، لا تنطلق مما يقع خلف المظاهر من علاقات وسيرورات وما تحت السطوح من ديناميات وصراعات، وإنما من منطلق مسبقات تصورية ومسلمات عرفية جرى حفظها في اللاوعي وأرشفتها في الذاكرة. ولهذا يكفي أن يوسم مثقف ما بـ(التقليدية) حتى تتداعى الذهن جملة من الصفات السلبية والخصائص المنبوذة، التي من شأنها الحط من قيمته المعرفية والنيل من اعتباره الرمزي.

والآن، ما الذي يرشح المثقف (التقليدي) للقيام بدور المثقف (العضوي)، ويسمح له، من ثم، بممارسة وظيفته النوعية، وهو الذي يوصف بتقاطع مواقفه السياسية وقيمه الثقافية وتوجهاته الإيديولوجية، مع اتجاهات وسيرورات التطور التاريخي والحضاري للمجتمع؟! الحقيقة أن تفسير هذه الظاهرة يعتمد على رؤية أن المثقف (التقليدي)، هو - بالدرجة الأولى - كائن إنساني يعيش في كنف بيئة اجتماعية لها تاريخ وثقافة ودين وهوية ينفعل بها ويتفاعل معها، والتي غالبا "ما يكون إيقاع التغييرات في بناها والتحولات في أنساقها بطيئا "تحتاج معه إلى آماد زمنية متطاولة، وهو الأمر الذي يجعل الجماعات المقصودة تبدي حرصا "أكبر إزاء مواريثها القديمة وممانعة أشدّ حيال ثقافاتها الأصولية. من هنا يبدو المثقف (التقليدي) يتمتع برصيد اجتماعي أغنى من نظيره (العضوي) لدى تلك الجماعات، كونه بمثابة الحارس المؤتمن على حماية تلك المواريث والثقافات من عوارض التغيير والتطوير. ولهذا فقد عبّر بدقة المتخصص بحياة غرامشي وأعماله (جون كاميت) عن هذه الحالة قائلاً: "المثقفون التقليديون، والذين لهم

أهميتهم في المجتمع المدني، فيبدون أكثر ميلاً للتفاهم مع الجماهير وللحصول على الموافقة (العفوية) على النظام الاجتماعي".

ولعل حصول المثقف (التقليدي) على هذا الامتياز السوسيولوجي والتفوق الإيديولوجي، متأت من امتلاكه أدوات (الهيمنة) السيكولوجية، فضلاً عن قدرته على ممارسة فرضها على تلك الجماعات التي تشاطره مواقفه وقناعاته بطريقة ناعمة. لذلك يستخلص (كاميت) حصيلة مهمة جداً مفادها "إن حصول المثقف (التقليدي) على قبول دوره (العضوي) في المجتمع، طالما انه يحقق هدف (الهيمنة) على المكونات الاجتماعية، عبر أساليب القوة (الناعمة) بدلاً من أساليب القوة (الخشنة). لا بل انه وبحكم باعه الطويل في مجال الأساليب الناجعة لتحقيق (الهيمنة)، حينما كان في السابق يحتل ويمثل دور المثقف (العضوي) يمنحه الأفضلية، ليس فقط في مجال الاستحواذ على اهتمام الجماعات التي أشرنا إليها وينال رضاها فحسب، وإنما في مجال التأثير على نظيره المثقف (العضوي) ومنافسته إياه في مضمار استمالة الفئات والشرائح المعدومة اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً صوب الآراء والأفكار التي يروجها ويدعو لها، فضلاً عن استدرار تعاطفها باتجاه القضايا والمسائل التي يتبناها ويدافع عنها، وبالتالي حيازة القدرة على التحكم بتصوراتها الإيديولوجية وتوجهاتها السياسية. ولهذا فقد لاحظ بحق بعض الباحثين أن "تأثير شريحة ثقافية ما على الشريحة العضوية السائدة ليس مباشراً، ولكن قوة إيديولوجيتها وقدرتها على تنظيم البروليتاريا ذات نتائج حاسمة على حركة الأفكار العامة باعتبار أن المثقفين السائدين لم يعودوا يحكمون بدون شريك منذ تلك اللحظة".

وعلى هذا الأساس يمكننا تفسير ظاهرة تفوق المثقفين (التقليديين) في المجتمعات المتخلفة على نظرائهم المثقفين (العضويين)، في مضمار تحقيق (الهيمنة) الإيديولوجية و(التحكم) السيكولوجي على شرائح واسعة من تلك المجتمعات، وبالتالي نجد صعوبة بالغة في انحسار دورهم الاجتماعي، وتلاشي تأثيرهم الإيديولوجي، وتقليص شأنهم السياسي.

*** قد نختلف مع ما ذهب اليه الاستاذ ثامر عباس في تحليله بعض طروحات غرامشي بشأن المثقف العضوي وانه (لا يشترط ان يكون واعياً) ذلك ان الوعي هو الذي يحدد المواقف والرؤى كما ان (المثقف التقليدي) لا يمكن ان يتحول الى مثقف عضوي بسبب جموده وتخلفه وعدم مواكبة حركة التطور على عكس ما اورده الكاتب.. لكننا ننشر المقال ايماناً منا بحرية الكتابة واثارة للجدل والنقاش عند قرائنا.**

محرر (أدب وفن)

بلاغة الجمهور والنظام السلوكي في المجتمع العراقي

عبد الغفار العطوي

ما المقصود بالبلاغة؟ وما هي بلاغة الجمهور؟ وما أثرها في شيوع ظاهرة التنمر في المجتمع العراقي الآن؟ وبروز مصطلحات سسيو لسانية كالجوكرية والذيول والتشرينية والمعممة والشروكية (الشروقية) وغيرها التي ترسم خريطة السلوك البروكسيمي بين أفراد و فئات المجتمع العراقي، وتؤشر إلى حالات التنابذ و التنابز، والصراع الظاهر والخفي الذي يجتاحه بعد 2003م مما يؤدي إلى تشكيل أزمات خانقة في بنيات المجتمع، تعمل على تفتته، ومن ثم انهياره! ولعل شيوع مفاهيم سسيو ثقافية في العالم ما بعد حداثي في الغرب جلب للشرق (خاصة الشرق الأوسط) مفاهيم كشفت الغطاء عن أزمات وتحولات لم يكن يتوقعها أحد اتسمت بأصول العنف[1] الذي جر الوبال على المجتمعات الحاضنة له بسبب من الأسباب، ما شكل تفاوتاً بين السلطة الحاكمة وهوية تلك المجتمعات[2] فاتسعت رقعة التهميش فيها، وكثر المهمشون[3] الذين أوجدوا عبئاً على الحياة اليومية في مجتمعاتهم، فكان الانتقال بالعلاقات المجتمعية إلى العلاقات اللغوية (اللسانية) اللفظية وغير اللفظية تبادليا في البيئة الجماعية الواحدة، وظهرت سمات التنمر في هذا الانتقال في أساس النظام القرابي، فطمست كينونة الفرد المتكلم بعد عام 2003 وظهرت سلطة الجماعة المتسيدة التي طالما خوطبت ببلاغة المتكلم عن طريق السلطة السياسية وهويتها الاستبدادية، بينما كانت المنطقة تتعرض لموجة من الخطابات المهمشة، التي تحولت نحو خطاب الربيع العربي، وشكلت بعناصرها ووظائف تأثيرها أدوات ضغط متنوعة، ووصلت إلى ذروة الروح الجماهيرية بالبلاغة الثائرة، ولكي نفهم ذلك الانقلاب البلاغي في

البنية الاجتماعية في المجتمع العراقي لنطلع على العلاقات التي حددته بما يعرف ببلاغة الجمهور، فالبلاغة نوعان عامة، وخاصة، والأولى عرفت لغة ومصطلحاً، وتداولت في اللغة، بأنها الوصول والانتهاء إلى الشيء، أما كمصطلح فهي مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال، فالبلاغة هي وصف للكلام، وهي على شكل ثمانية أضرب، الايجاز والتشبيه والاستعارة والنظم والتصرف والبيان والمشاكلة والمثل، وتمثل البلاغة أهمية في حياتنا في مجالات متعددة من حيث إنها تساعدنا في دراستنا لها في تحصيل ومعرفة اللغة وعلومها، ومعاني القرآن، واختيار النصوص البليغة في الشعر والنثر، والتمييز بين الكلام الحسن من الكلام الرديء، كما تساعد المتكلم على صياغة كلامه وفقاً للمناسبة، وتعين القارئ على إدراك جمال أو قبح ما يقرأ، وهذه هي البلاغة العامة القديمة التي عرفت ببعدها الزخرفي التي تلحق بالمتكلم، لقد تغير استعمالها في العصر الحديث، وصارت تعني في وعي القارئ ليست عبارة عن قائمة من الوجوه الأسلوبية المغذية لخصوبة الإحالة الإقناعية، بل تحولت نحو التوجه الأدبي في الخطابات، في العصر الكلاسيكي الغربي، بمعنى أن البلاغة في الغرب حدث لها تطور كامل (بينما البلاغة العربية ظلت جامدة)[4] وصرنا اليوم نستخدمها علماً للخطاب[5] وهي تستند إلى رصيد فني من المفاهيم والتقنيات التي حصلتها عبر التاريخ، مع ذلك وجد من يضع البلاغة في ثوب التجديد، بجعلها تعبر عن نمط معين خاص بالحياة اليومية، من حيث استطاع الدرس البلاغي أن يخلص البلاغة من إطار هيمنة المتكلم إلى نمط بلاغة المخاطب وهذه أحد أوجه البلاغة الخاصة، وبلاغة الجمهور من هذا النوع من بلاغة المخاطب وهو المشروع الذي قام به الباحث البلاغي الدكتور عماد عبد اللطيف عام 2005م، وهو بحث في علم البلاغة وتحليل الخطاب، عندما أدرك أن البلاغة العربية القديمة تمثل المتكلم في مواجهة المخاطب، وإن بلاغة المتكلم استطاعت أن تعبر عن الوسائل القمعية التي توجهها الخطابات السلطوية، وإنه كان لا بد للمخاطب أن تكون له بلاغته في العصر الراهن، في التحولات التي اتجهت نحو تنمية الخطابات الجماهيرية، ومشروع عماد عبد اللطيف في بلاغة الجمهور احتوى على خمس نقاط [6] اعتمدها الباحث في ترسيخ مشروعه الذي أعطى للجمهور الأولوية، بعد أن ادرك أن تاريخ البلاغة لم يكن مشرفاً في وقوفها إلى صف الاستجابات النبيلة، بل كانت تدعم الفرد المتكلم والمتسلط، لكنها في هذا العصر انحازت للجمهور، وتشكلت بلاغة ثائرة [7] رفدت موجة الخطابات المهمشة، وقامت بدور فعال في خطاب الربيع العربي، وبدت إن بلاغة الجمهور قد وضعت قدميها على

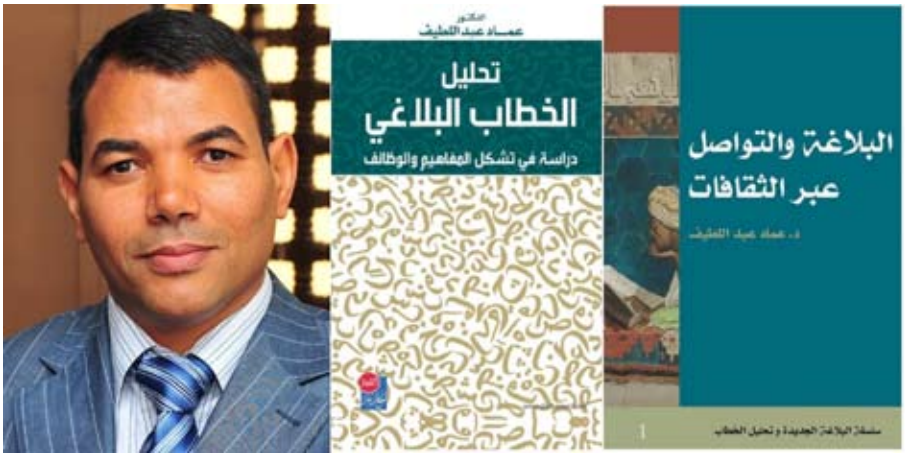

أعتاب منهج معرفي مغاير، أو محاولة في ذلك المنحى، بيد أن تطور اللسانيات المختلفة جعل الاستفادة من الربط بينهما في مجال دراسة المتغيرات السسيو لسانية يقطع شوطاً واسعاً في معالجة (الاستجابات البلاغية) التي كانت تتناثر في بلاغة المتكلم، ووجدت متنفساً لها في الدراسات التي قام بها إدورد هال وغيره بالاعتماد على خاصية اللغة التبليغية، فيما يسمى البروكسيميا (علم المكان) وهو عبارة عن بحوث في الفضاء أو الفراغ، الذي عمقت دراسته اللسانيات والسيميولوجيا، ولعل ظاهرة التبليغ والتواصل ـ وهي عبارة عن مجموعة من الأنظمة الدالة بين المتكلم والمخاطب التي تشمل الحركات في الجسد و النظرة و الشفة و اللغة و المسافة الشخصية ـ هي التي برزت في تمتين العلاقات الجماهيرية، وصبتها في قالب التنمر، بحضور المكان الواحد (العراق) ووحدة السلوك البروكسيمي الذي أدى ببلاغة الجمهور إلى ظاهرة التنمر وشيوع مصطلحات تحمل حمولات قبحية.

ما هو النظام (السلوكي)؟ وما الرابط بينه وبلاغة الجمهور؟ يعرف النظام البروكسيمي بأنه عبارة عن مجموعة من الأدلة غير الشفوية التي ترتبط مع بعضها البعض لتخلف نمطاً معيناً من العادات التواصلية تدعى بالسلوك البروكسيمي[8] هذا السلوك الذي ساهم في استخدام اللسان الاستعاري واللسان البروكسيمي في ما يسمى الستراتيجية البروكسيمية التي تهتم بالعلاقات القائمة بين المتحدثين الذين يتبنون المسافات خارج فردية ووضعيات مختلفة حسب أنماط التفاعل، ترتبط بالقواعد الثقافية المضمرة بشكل غير واضح؟ لأن التحول من بلاغة المتكلم التي اعتنى بها النظام السياسي السابق (قبل عام 2003) نحو بلاغة المخاطب التي تبلورت بشكل فوضوي بعد عام

2003 صار أسلوب القمع السياسي إيقاعاً تنابزياً تشهيرياً بين كتل متناقضة من المتحدثين الذين مال التحدث لديهم من الاعتناء باللسان اللفظي صوب اللسان غير اللفظي، وأصبح المكان (البروكسيميا) مشغولاً بالتعبير التنابزي غير اللفظي، وبدت ظاهرة التنمر تنتج مصطلحات كالجوكرية و التشرينيين أولاً بين أوساط المثقفين[9] و انتقلت إلى الأوساط السياسية في (الذيول والمعممين) جراء الاخفاق السياسي في النظام الحالي الذي أساء استخدام بلاغة الجمهور، ولم يستطع محو (ذاكرة القهر) بسبب طائفيته[10] ثم انتشرت مصطلحات كالشروكية والدواعش، وأصبحت الشخصية العراقية مصطلحاً إيكولوجياً، خاصة الشخصية الجنوبية [11] التي تحملت عبء التنابز بسبب تلقيها الخطابات المهمشة، والاستجابات الإيكولوجية ، ووقع عليها ثقل التنمر، ما أشاعت تلك المصطلحات نوعاً من التنابذ غير اللفظي تتم دراستها عبر المكان، ودوائر القرب التي تشكلها اللسانيات الاستعارية والبروكسيمية.

إحالات :

1. أصول العنف، جون دوكر، ترجمة: علي مزهر، الناشر جامعة الكوفة، الطبعة الأولى، 2018.
2. السلطة والهوية، ابراهيم شحبي، دار طوى، الطبعة الأولى، 2020، ص17.
3. التهميش والمهمشون، تحرير حبيب عائب و راي بوش، دار العين للنشر .
4. يذهب بعض الباحثين إلى إن البلاغة العربية وجدت من يهتم بها، ويطورها، حيث ذكروا محاولات أبي يعقوب السكاكي (627هـ) في القرن السابع الهجري في كتابه (مفتاح العلوم) وغيرها الى عصرنا الحالي، لكنها لم تنقذ البلاغة من جمودها، واجترارها الموضوعات التقليدية نفسها دون أفق جديد.
5. بلاغة السيرة الذاتية، إعداد وتنسيق محمد مشبال، دار كوز المعرفة، عمان، الطبعة الأولى، 2018 ص18 المقدمة.
6. بلاغة الجمهور، مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم د- صلاح حسن حاوي، د. عبد الوهاب صديقي، دار شهريار، الطبعة الأولى، 2018 ، ص11.
7. البلاغة الثائرة خطاب الربيع العربي، إعداد وتقديم: د – سعيد العوادي، دار شهريار .
8. التفاعل البروكسيمي في السرد العربي، قراءة في دوائر القرب، إعداد الأستاذين د. اليامين بن تومي د. سميرة بن حبيلس، ابن النديم، الطبعة الأولى، 2018 .
9. أزمة التنوير العراقي، دراسة في الفجوة بين المثقفين والمجتمع، فلاح رحيم، الناشر جامعة الكوفة، الطبعة الأولى، 2018
10. ذاكرة القهر، بسمة عبد العزيز، دار التنوير، الطبعة الأولى، 2014.
11. الشخصية الجنوبية في الرواية العراقية، عالية خليل إبراهيم، دار دلمون، الجديدة، 2017.

(في المشهد) باب جديد، ننشره بين فترة واخرى، يعتمد على تقديم أديب له حضوره الإبداعي ومنجزه المؤثر، وتسليط الضوء على عطائه ورؤيته وذلك عن طريق نشر كتابات نقدية عن أحدث أعماله، الى جانب نشر آخر كتاباته التي لم تنشر من قبل.

محرر (أدب وفن)

(دفوف رابعة العدوية): السرد الصوفي

سلام حربه

صدرت رواية (دفوف رابعة العدوية) لعبد الستار البيضاني عن الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق عام 2022.. الرواية في ثلاثة عشر فصلا ومئتي صفحة من القطع المتوسط، يأخذنا الروائي ومنذ الورقة الاولى وحتى الاخيرة في عالم صوفي مشحون بالادعية والابتهالات والموارد ضمن مقاربة تاريخية وتداخل واشتباك بين الماضي والحاضر، الغور بعمق في النفس البشرية والوانها، شذوذها، وشواهدها البارزة، استحضر في مختبره السردي رابعة العدوية الشاعرة الصوفية ابنة البصرة المغنية والراقصة التي تركت لذة الجسد بعد أن عجزت عن أن تجد من بين البشر من يستحق حبها الكبير لتذهب الى لذة الروح والعشق الابدي الى حب الله والذوبان فيه، ورأت في الدق على الدف/ الطرق الدائم على الروح طريقا للوصول اليه (عرفت الهوى مذ عرفت هواك.. واغلقت قلبي عمن سواك) الرواية تجري احداثها في الزمن الحديث تتناول قصة حب عذرية صوفية بين الراوي/ البطل وبين سليلة او وريثة تلك الصوفية البصرية وايجاد ملامح شكلية مشتركة بين قبس الحبيبة وبين امرأة الماضي التي طلقت الجسد رابعة، الوجه الجميل بلا خدود، واستحضارها والوقوف منبهرا في ظلال تلك النافذتين الروحيتين.. رابعة التي عبدت طريقا يسلكه كل نافر من لذائذ الحياة والمتع الكاذبة واغراءات تفاصيل الجسد وشبقه والتي تغرقنا في المهالك والتعفن الروحي والنفسي فقد (وقفت قبس على قارعته مستوحشة رغم جماله.. جمال الله.. الله العظيم) ص 98 ومن خلال علاقة

الراوي/ البطل كلي العلم مع الحبيبة قبس التي وجدت ضالتها وفنارها الذي لا ينطفئ (عليك ان تعرف أني مثل رابعة العدوية، مع كل الغناء الذي ينسب اليها، فإنها نسيت لذة الجسد، لذتي في اتصالي الروحي.. هل تعرف رابعة العدوية..؟) ص 8 من الرواية.

هذا الامر دفع الراوي لأن يبحث في تفاصيل حياة رابعة بالرغبة في التخصص بهذه الشخصية في حال قبوله لدراسة الماجستير وايجاد رابط يشده الى سيرة هذه المرأة الامثولة عن طريق شهادة الرعوية التي طالبته الكلية باحضارها من مدينة البصرة لاجداده وابيه.. البصرة مدينة رابعة بمياهها واكواخها وشناشيلها ونواح عمال السفن وهم يضربون بمجاذيفهم امواج شط العرب كما كانت تفعل رابعة، ويناغون باصواتهم الحزينة الملتاعة ليل نهار كي تحضنهم بدفء اذرع الخليج وامواجه الغريبة لتأخذهم الى السحر والمجهول.. اراد الراوي/ البطل ان يعرف سر العلاقة بين دف رابعة العدوية وسنطور حبيبته قبس وهل الاثنان وصوت الموسيقى المنطلقة منهما من روحيهما تفتح طرقا آمنة ودروبا الى الله..؟ الرواية عرفانية تدعو الى التطهر والتحرر من سطوة الجسد الى مفاتن الروح المذهلة، انها تناص واستحضار الماضي في قلب الحاضر، هذا الحاضر الذي استهلكته غرائز الجسد والمتع الآنية العابرة على حساب الروح وانكساراتها وتشظيها. ما اكتشفه من حبيبته قبس هيامها والسير على خطى رابعة العدوية بكل سحرها الروحي الذي بقي نضرا وحيّا طيلة هذه القرون الجائرة بتقلباتها واحداثها الساخنة وتمزق صفحات عديدة من تاريخ لا يضيف شيئا الى الروح وانعتاقها من دنس الجسد، لكن بقيت رابعة عتبة للحرية والخلاص ومنارة يتعبد تحت ظلالها العشاق الحقيقيون التائقون للحرية الحقة حيث لذة الروح الابدية، لقد وجد الراوي/ البطل أن حياتي حبيبته قبس ورابعة واحدة: قبس اعالت، وهي طفلة، عائلتها المكونة من خواتها الثلاث ووالدتها بالعمل في فرقة انشاد الملاية ام باسم كحال رابعة التي عملت في قارب تنقل الركاب بين ضفتي نهر من شط العرب لتكفل عيش اخواتها وهن يعانين من اليتم أيضا. رابعة اختارت النقر على الدف وقبس العزف على السنطور لتفتحا لهما طرق السماوات والارض وتيسر وصولهما الى ملكوت الله ليكتشف الراوي البطل في النهاية ان الاثنتين واحدة، وأن حلولا حصلت لرابعة في جسد وفكر قبس (وصلت الى رابعة العدوية بلحمها ودمها ومعانيها..) ص 176. الرواية عالم قائم

بذاته تتداخل فيها الحقيقة والوهم ويمتزج فيها الواقع مع الخيال، والروائي البارع هو من يكشف تفاصيل الحياة ولواعج الانسان واسرار الطبيعة، هي رسالة في الاخلاق وموعظة الى البشر وتعاظم دور الانسان في الحياة. هذا ما اراد عبد الستار البيضاني ان يقوله في روايته هذه، وان يبث رسائل الى البشر اللاهين ويدق اجراس الخطر الى المزالق الجسدية التي ابتلعت الانسان في كل مكان، بحيث لم يبق من هذا الانسان الا حفنة من الغرائز وملامح ممسوخة مشوهة بعد ان استعبدته المادة والشهوة وسُحقت روحه واصبح كيانه ووجوده بلا معنى ولا غاية، كائن حشري لا همّ لديه سوى اشباع رغباته الجسدية وتغذية مجساته الحسية النهمة بعد تعطيل العقل وركنه جانبا.. (الصوفي) عبد الستار وهو يجرب النقر على دفوف معشوقته، ظهر لنا سارداً بنكهة ابداعية جديدة اختارها لنفسه تختلف عما عهدناه من اسلوب سردي متفرد اعتدنا عليه في نتاجاته الروائية والقصصية وحتى في رسائله الوجدانية الموجهة الى من يحب، زخرت بها الصحف والمجلات العراقية منذ امتهانه للصحافة، الغريب في الامر انه في رحاب جنائن الذات المتعالية ينظر الى العالم لا بعينيه هو بل بعيون المتصوفتين رابعة وقبس (الآن.. وانا في حجرة عينها، تعاودني هذه القشعريرة وتجعلني مستسلما لها، لا أفكر كيف دخلت، ولا كيف سأخرج، أطل من متكئي في حجرة العين على حياة تبدو بصيصا) ص 23.. عبد الستار كان يبحث كما في معشوقتيه عن طريق غامض يقوده الى التحرر من الشهوات وليس هناك طريق آخر الا الله والعيش السرمدي في فراديس رحمته.. التحرر من لذة الجسد هو ما يبغيه الراوي، والالتحاق بحبيبتيه الى حيث قشعريرة النشوة الروحية المتجردة من ملاهي الدنيا ورذائلها (ما الذي جرى..؟ لميني ..لا يُرضي رابعة ان اتشظى هكذا..) ص 198 .. لقد اعاد الينا عبد الستار البيضاني الرواية الصوفية بعد ان اهملها الروائيون وانشغلوا اكثر بمشاكل المجتمع وتقلباته السياسية والاجتماعية وما عانته المجتمعات من تمزق روحي ونفسي نتيجة الحروب وجنون القادة الدكتاتوريين وخسارات البشر المتلاحقة لكن عبد الستار يذكر قارئيه المغلقة عقولهم، في كل فصول الرواية، السادرين في غيهم والتي اخذتهم الملذات الجسدية بعيدا عن جادة الحياة بأن الخلاص الابدي بالغناء والعزف الصوفي المنبعث من الروح الصافية المتسامية والتي توصل الى الله حيث هو السعادة المطلقة.. قد تكون هذه الرواية محرابا لتوبة الروائي، وهذا ما يُشك فيه، والسير في جادة الصوفيين للالتحاق بالذات الالهية وترميم روح البشر التي تصدعت من جور ازمنة طاعنة بالعنف والكراهية والرذيلة، لكل كاتب اسلوبه ومنظاره الذي يرى من خلاله العالم هناك من يعيد في روايته كتابة التاريخ بصيغه الادبية وهناك من ينفذ الى النفس البشرية لمعرفة اختلاجاتها وصراعاتها وامراضها وآلامها وامانيها وهناك.. وهناك، لكن تبقى الرواية شكلا لا يعرّف بل يُكتشف، الرواية اثارة للاسئلة في اذهان قارئيها وهذا ما عمد له الروائي عبد الستار وهو يستحضر التاريخ كي يقول للقارئ، انقر على دفك، انفصل عن جسدك، وارقص بكل جوارح روحك فهي من ستوصلك الى الله..

"لن يأتي الصباح هذه الليلة"
رواية حرب بامتياز لتجربة شخصية حقيقية

منى سعيد *

في كل سطر بل في كل جملة يُصدم القارئ بفاجعة تنكأ جراح تفاصيل حياة حروب مريرة عشناها ونجونا منها بأعجوبة. سرد مذهل لأحداث أراد البيضاني جعلها وثيقة تاريخية أدبية لمن عاشها ولمن لم يعشها من الأجيال الحديثة وقد اشتبكت عليها الكوارث وتكررت المآسي بألوان وصيغ دموية مختلفة.

يروي البيضاني في ليلة واحدة مجريات تفصيلات انسحاب العراق من الكويت وتعرض قواته وجنوده لقصف مسعور من قبل قوات التحالف عام 1991، مستعيدا في الوقت نفسه أحداث الحرب العراقية الإيرانية، مستندا على شهادة حقيقية وتجربة شخصية كونه كان جنديا مكلفا في الحربين.

في تلك الليلة يصل جندي الحرب لبيته مصابا بجرح بليغ في ساقه، وسرعان ما يشرع بسرد دقيق مدهش وبما يشبه الهذيان لزوجته عبر مشاهد سيناريو محكم وقائع خيبة انكسار ذلك الانسحاب المذل وكيفية الهروب من محرقة الموت وما واجهه من لحظات عصيبة لفواجع القصف واستشهاد الرفاق وتدمير السلاح والأبنية، ومن ثم إصابته بشظية في ساقه وبقاؤه متخفيا في أوحال حفرة طينية تحت وابل الرصاص والمطر الغزير أثناء محاولته عبور جسر الزبير في ليلة كاملة بدت بلا نهاية بانتظار من يسعفه.

حصر البيضاني أحداث روايته بليلة واحدة هي مدة بقائه على قيد الحياة على الرغم من جرحه النازف، وليلة وصوله إلى بيته وسرده تلك التفاصيل للزوجة في مشاهد من الحميمية والرغبة والتوتر والخوف، أمام طفله بعدما كان يحسبهما قد قضيا نتيجة القصف المكثف على المدن العراقية أجمع. (هو وحده الآن من يستطيع أن يعيد لحركة أعصابها اتساقها .. آه لو نهض الآن ليقبل طفله أمامها، يضمه إليه، يعيد وصل آمالها المتقطعة، الطفل لم يبك منذ ساعتين! ماذا دهاه؟ لو بكى الآن لربما

حسم الكثير من الأوهام التي خلفتها الحرب في ذهنيهما.. ستعرف حقيقة مشاعر أبوته). ص30

يبين البطل وحشية القصف في مواجهة لعبة الموت والحياة والصراع من أجل البقاء في تفصيلات دامية للجرحى وللجثث الطافية على سطوح الأنهر، وبشاعة فرق الإعدام، وآلام الأحلام المهشمة وأمنيات الرماد.

ويصدم القارئ في الوقت نفسه بأحداث عرضية مريبة بدت من اللامعقول في زمن خائب مثل حدث حظيرة الأغنام والبحث عن التمر الزهدي لإسكات قرصات الجوع والذي يكتشف بعد حين بأنه لم يكن سوى كتل من "بعر" الأغنام المخلوط بالبول وبحبات من التمر الزهدي. ص 50

وبسخرية مريرة على الرغم من شراسة مطحنة الحرب لم يفته أيضا نقل صور أحداث شخوص مرحة رطبت الأجواء، فها هو الفتى عودة رغم تجاوزه سن العشرين بثلاث سنوات "يغدق على الآخرين بمحبته وخفة دمه وما يحصل عليه من تبغ وشاي" واصفا اياها بـ"عودة الشيوعي لكن بدون أيدلوجية ماركسية" تقترن طيبته بسخرية عفوية وحلمه عند سماع اقتراب صوت الطائرات "ليكن ما يكن .. ربما تسقط مجندة أمريكية تدفئني هذه الليلة.. خذوا تعييني من الطعام وقلصوا إجازاتي، واحرموني من الشاي والتبغ.. فقط امنحوني مجندة أمريكية".. ص 25 ، أو حين يتخيل عوده ميتته الدولية بفعل قوات التحالف حين يذكر "لا يهمني موتي وإنما حيرة أهلي بلعن من قتلني.. سيبذلون المستحيل من دون أن يعرفوا ذلك.. الفرنسيون سيقطعون أذرعي

بـ"الجكوار"، والبريطانيون سيبترون أقدامي بـ"لتورنادو"، والأمريكان سيقطعون راسي بـ"الشبح"، والسنغاليون يطعنون ظهري بالرماح الأفريقية، والسعوديون يمزقون قلبي بالخناجر، والتايلنديون والفلبينيون سيصنعون من وجهي أقنعة لاحتفالاتهم. أما اليابانيون فعليهم صناعة التابوت.. تصوروا عودة في تابوت ياباني بعد أن حرم في حياته من ركب السيارة اليابانية.. تابوت تويوتا أو مسيوبوتشي". ص 27

تحاصره مخاوف قلقه على عائلته على وجه أقسى مما هو عليه، تسأله زوجته "هل خفت من الموت؟" يجيبها بتلقائية "كلا أخاف عليكما". يشرح بتفصيلات ما الذي حل بالعوائل العراقية أثناء الهجوم، تركهم لبيوتهم، تفريغ خزين المجمدات والثلاجات بفعل انقطاع التيار الكهربائي، وقوله بسخرية وبتشاؤم كبيرين "يبدو إنها الشبعة الأخيرة التي قدمتها لنا الحرب قبل أن تمد أسياخ الجوع في بطوننا" ص 29.

يلخص الكاتب رأيه بالحرب عن طريق تساؤل بطل روايته عمن يتحمل مسؤولية معاناته ومعاناة كل من واجه مرارة وكوارث الحرب راسما وجهة نظر بجرأة لم يستطع الإفصاح عنها لحظة وقت كتابة الرواية في زمن الدكتاتورية، وسعيه لإخفاها وعدم نشرها حتى وقت قصير، إذ يذكر، (ماذا لو حدثته نفسه بالهرب قبل أن تبدأ الحرب.. ثمة من يتحمل ذلك ويجعله شرفا له ولعائلته.. الجنرالات المقامرون القادمون من أعماق القرى والصحارى.. المثقلون بالأوسمة والنياشين هم من يصنع أخطاء الحرب، تقودهم إلى ذلك عزتهم الفارغة ومجدهم الذي يأملون ببنائه، وشهوة احتلال صفحات التاريخ ليزاحموا صناع ملاحم الدم ومآسي البشرية التي يسمونها انتصارات خالدة.. تخلد بقدر ما تسفك من دماء وتخرب من مدن.. الحرب ليست بطولة..) ص 194، وبذا فإن هذه الرواية رواية حرب بامتياز قلّ نظيرها تذكرنا بأمجاد روايات الحرب العالمية مثل للحب وقت وللموت وقت لأريك ريماك، بسردها الأدبي الحاذق لحالات متواترة مشحونة بالحب والاشتياق واليأس والخوف وتدرج الأمل بين الموت والحياة، وتعدها عن مشاهد حقيقية لتجربة شخصية مريرة.

*** كاتبة ومترجمة**

في إعدادنا المقبلة:

- مدونات رجل الثلج/ قصة/ حسن العاني
- نيران على حافة الهور/ قصة/ سعيد اسماعيل
- بائع الغناء/ قصة/ صلاح جبار ابو سهير
- الايحاء في السينما/ د. صالح الصحن
- من تعدد القصدة الى انكماش القصيدة دخل جسدها / ليث الصندوق
- فلاح رحيم والقراءة الاجتماعية لرواية (حبات الرمل .. حبات المطر)
- الدار الكبيرة لمحمد ديب / شكيب كاظم
- واستحال كل شيء الى قمر / ترجمة: جودت جالي
- اغنية سومرية / شعر: سعد جاسم

قصة قصيرة
ياولد .. يافتان

عبدالستار البيضاني

لم أعرف أبداً، أن الموت فرصة سعيدة .. لكنه موتك أيها الولد الفتان!

كانت مصادفة تائهة، مصنوعة بعناية فائقة، عندما خطفت أمامي مثل شهاب سماوي، واستلتك عيناي من فوضى اكتظاظ تقاطع (مول النخيل) ووضعتك في قيامة احتدام الذاكرة ونبض القلب.

كنت قد اجتزت التقاطع المزدحم بـ(التكاتك) والدراجات النارية والشاحنات الصغيرة، المملوءة بشباب من مختلف الاعمار، يحملون اعلاما عراقية وحسينية ويافطات قديمة تشير الى اسماء مواكب عاشورائية، كانوا يهتفون ويهزجون على نحو يناغم مجاميع من الشباب والرجال يتدفقون من شرق القناة عبر جسورها شبه المغلقة.

بقيت أصوات مسجلات الصوت و(المونتاربو) المحمولة في الشاحنات الصغيرة تلاحقني وتزيد من ضجري بالرغم من خلو الشارع في المسافة التي تلي التقاطع، وهذا ما جعلني اضغط على دواسة البنزين بقوة كي اصل بيتي مبكرا، فالأمور تنذر بالفوضى!

صورتك كانت تطفو على ضجري، وتملأ زجاجة السيارة الامامية، لا بل تملأ الشارع كله، كأنك تقودني انا والسيارة بطاقة عجيبة، اهزوجتك الوحيدة كانت تصلني صافية من بين كل هذا الضجيج وتزيح ضجري، وتمنحني استرخاء يشدني إليك وانت تهزج بين (فرضة) و(شعيرة) بندقية القناص (هاي الكاع وما نطيها عشر سنين نحارب بيها)، تدبك على سبطانة البندقية الطويلة، فتتناثر قذلتك على وجهك وأعلى رأسك مثل رقصة الاستسقاء السومرية، حركة شعرك تزيد سمرة وجهك الممتلئ بهاءً فتنفرج شفتاك عن اسنان بيضاء عريضة اقرب ما تكون الى الشكل المربع، تشبه تماما اسنان أبيك، وكنا حينذاك ننابزه فنلقبه لبياض اسنانه وعرضها (ابو كاشية) ... ياسبحان الله، حتى حلاقة شعرك كانت تشبه قصة شعره.. تشبه حلاقتنا التي كنا نسميها (حواف) في ذلك الوقت، ولا اعرف ماذا

تسمونها انتم يا (أهل القذل) الجديدة.. أنا ايضا اشبهه - أقصد أبيك، ربما كنا نتشابه بسبب تشابه موديل حلاقتنا، فعندما كنا نختل في احراش الجت في معاركنا الصبيانية مع اهل منطقة (الجديده)، كانوا ينادونا باللقب نفسه (ابو حواف).

في تلك (المعارك) كنت أحميه ويحميني، ويزود بعضنا الآخر بالحصى اذا نفد عند صاحبه، ومنذ تلك المعارك أو الشجارات لم نفترق .. يالها من معارك لا تغادر الذاكرة التي شاخت وغادرتها اشياء كثيرة.. معارك صبيان (الشاكرية) وصبيان (الجديدة)، ميدانها (الجتّه)، مزرعة الجيت التي تفصل بين المنطقتين، نصطاد فيها العصافير والزرازير ونلتقط التوت من تحت أشجارها الضخمة. عندما كنا نزيح صبيان (الجديده) عن الجتّه كان أبوك أعلانا صوتا حين يهزج (هاي الكاع وما نطيها عشر سنين نحارب بيها).

يااااه.. أية مصادفة هذه ياولد يافتان ؟!.. انت الآن أيضا تريد أن تعبر جسر الجمهورية الى (الجتّه) التي تتقاسم مكانها الآن مباني مجلس النواب ومجلس الوزراء والسفارة البريطانية!.. أنت وصحبك تريدون الآن الوصول الى المكان ذاته.. ويا لعجب المصادفة! .. مثلنا تقاتلون بالحصى و(المصايبد)، وكأن الدنيا لم تتحرك قيد أنملة، ولا كأن نصف قرن من الزمان قد فات!!..

ما هذه المصادفات التي تسحبك إليّ وتدخلك في كل جوارحي وأنا الذي اريد ان تغادرني، ياولد.. يافتان.. ارجوك غادرني .. أنا تعبان، تعباان جدا.. ورقصك بين (فرضة) و(شعيرة) بندقية القناص يزيدني تعباً!. انا محاصر بك وبدخان الاطارات التي تُحرق شرق القناة.. دخان يتصاعد ببطء واحيانا يتصاعد بحركة زئبقية تكشف عن وجه جدك وهو يلوّح بيشماغه (كل حي بالدنيا عليه موته)، كأنه يوبخني على قلقلي عليك!...

*****

لا أتذكر أن جدك قد وضع العقال واليشماغ على رأسه يوما، الجميع يتذكر (أبو إنجيلا المكوجي) – وهذا أسمه الذي لا تعرفه أنت ولم يسمح الزمن لأبيك ان يحدثك عنه – الأفندي بطوله الفارع، وجسده المليان، أو بدشداشته (التوبايتي) بألوانها المعروفة؛ السمائي، والشكري، والوردي، والأبيض، فمن أين له هذا اليشماغ الذي يلوّح به وسط الدخان؟!

كنت مبهورا به، ولا امل من النظر في وجهه، والاستماع الى احاديثه الساخرة ومعلوماته العجيبة عن كل شيء، كان ضجرا ومستاء من كل شيء؛ من السياسة والفن والمجتمع والرياضة ولا يعجبه العجب!، ويعبر عن ضجره بسخريه الحكواتي الماهر، كان يعاملني مثل الكبار، فقد كنت اقضي اغلب الاماسي بعد عودتي من المدرسة في دكانه، أستمتع بمراقبته وهو يكوي الملابس بمكواة الفحم الحديدي الذي بقي يستعمله حتى بعد جلبه المكواة الكهربائية، كنت ايضا مبهورا بالدكان كله، فقد غلفه من الداخل بأغلفة مجلات ملونة، وصور مقتطعة من صحف ومجلات لممثلين عالميين وعرب وسياسيين، وثمة ثلاث صور مؤطرة بالزجاج أكبرها صورة (إنجيلا ديفيز) التي تتوسط صورتي (جيفارا) و(هوشي منه)، وبعد

إعدام جدك وغلق دكانه اختارت جدتك من بين جميع الصور، صورة (إنجيلا ديفيز) لتحتفظ بها حتى وفاتها، وقد عرفنا هذا لاحقا، عندما اكتشفنا بعد وفاتها انها تخفيها بصورة رئيس الجمهورية المعلقة في طارمة الحوش عند مدخل البيت، خشية ان يراها كتبة التقارير والوشاة.

طبعا، جدتك المرأة القروية لا تعرف شيئا عن (إنجيلا ديفيز)، لكنها فعلت ذلك وفاءً لجدك الذي كان يصر على تسمية عمتك الوحيدة بـ(إنجيلا)، قبل ان يجبره اخوته على تسميتها (تحرير) خشية ان تكون سببا واضحا لشبهتم السياسية.

الحمد لله أنك خطفت أمامي في تقاطع (مول النخيل) ولم أكلمك أو تكلمني، ولم تجلس معي أو أجلس معك، وإلا لكنت ملزما بالحديث عن جدك الذي لم يسمح الزمان لأبيك أن يحدثك عنه، وعن ابيك الذي لم تره !.. كيف كنت سأبدأ معك الحديث ، وأي مناسبة سأبتدعها كي أحدثك عن جدك وصورته تترجرج في ذاكرتي مثل السراب في يوم قائظ؟!..

هو سراب الطفولة، أو ذاكرة الطفولة، في عمقها تلوح أول صورة لجدك (لعيبي) التي لا تشبه صوره اللاحقة أبدا؛ كنت طفلا غارقا بالحزن والغضب مثل بقية الناس على مقتل الزعيم عبد الكريم قاسم، عندما جاءت مجموعة من الشرطة والحرس القومي يفتشون البيوت بحثا عن السلاح وانصار الزعيم في وقت مبكر من الصباح الشباطي البارد، كان أبي مازال نائما في غرفتنا الوحيدة عندما تقدم جدك المجموعة بخطى عريضة، صاحت امي بذهول: لعيبي !. عض شفتيه اشارة الى ان تصمت. أستيقظ ابي على صوت أمي التي دخلت عليه مسرعة، وهب واقفا على سريره بعد أن سحب مسدسه من تحت وسادته، ودسه بسرعة خاطفة بين طبقات الكارتون التي تغلف جذوع النخيل التي تسند سقف الغرفة الطيني، وهبط جالسا على فراشه قبل لحظات من اندفاع مفتشي الحرس القومي الى الغرفة. عندما أطمأن جدك الى اخفاء ابي لمسدسه، سحبني الى خارج الغرفة لكي لا يستدرجني الحرس بالأسئلة كما اعتادوا مع الاطفال. أنقدتُ اليه بسرعة، فقد كان جدك اكثرهم مهابة بملابس الشرطة الخضراء وأزارها الفضية اللامعة وحزامه الجلدي العريض الذي يشد جسده الممتلئ، مددت يدي لأعبث بأزرار بدلته الفضية، فأزاحها بالصونده السوداء الصلبة التي كان يلوح بها، ومن ثم جلس يداعبني برفق ويسألني عن اسمي. منذ تلك اللحظة أحببته، كانت هيئته تشبه هيئة الجنرالات الأجانب، تزين ذراعه رتبة عبارة عن شريطين أسودين مزدوجين على شكل رقم (7) وفي وسطهما نجمة الشرطة الفضية، لاحقا عرفت ان هذين الشريطين هما رتبة نائب عريف شرطة. أحببته حتى بعد أن تداول الاطفال أن (لعيبي) جاء مع الحرس القومي بحثا عن جماعة الزعيم لشنقهم بالصوندة السوداء التي يلوّح بها!، وبقيت الى زمن طويل أتخيل ان عملية الشنق تتم بالصوندات السوداء الصلبة، لكن بعدها سمعت من أهلي ان لعيبي قد سُجن، وربما سيشنق وبكى الجيران عليه، لكن بعد أشهر طويلة خرج من السجن وطرد من سلك الشرطة.

اصطحبني أبي وأمي معهما، عندما زيارتهما بيت جدك بعد خروجه من السجن، وفوجئت ان أباك رفيقي في معارك (الجتّه) هو ابن لعيبي، وكان الجميع يضحك عندما يروي جدك لهم بطريقة كوميدية تفاصيل تلك اللحظة التي فتش بها الحرس القومي بيتنا، وكيف أنني كدت افشي السر للحرس القومي، ومن يومها صرت اقضي معظم وقتي في بيتكم حتى بعدما تحولنا الى مدينة الثورة، ودخلنا المدرسة معا. كانت ثمة اشياء كثيرة لا أستطيع أدراكها جعلت جدك قريبا من نفسي، ولا أستطيع ان أحيلها الى حرصه الدائم على جلبه لي مجلة (المجلة) الالمانية التي كانت تبهرني بصورها وألوانها وطباعتها التي تختلف عن طباعة المجلات الأخرى، وهو أول من علمني الفرق بين المانيا الديمقراطية والمانيا الغربية، وهو الذي أقنعني ان شمعة واحدة يمكن ان تضيء العالم كله بعد ان كنت أضحك عند سماعها..

كان لجدك مزاج غريب لكنه محبب، يجمع بين المرح والعصبية، وبين اليأس والأمل، وقبل ان يغيبه السجن المفاجئ الى الأبد، بأيام قليلة، سمعته ينهر جدتك بصوت غاضب مليء باليأس وهو يختم جدله معها بقوله (كل حي بالدنيا عليه موته).

*****

يبدو شارع السعدون من جهة ساحة الفردوس هادئا جدا، حركة السيارات القليلة جيئة وذهابا لا تشي بأنه مغلق، ثمة سيارتان للشرطة تكادان تتلاشيان بالعتمة لولا أنهما تمدان بوزيهما الى منتصف الشارع من جهتين متقابلتين، المحلات القليلة المفتوحة تقطع أوصال عتمة الرصيف لكنها مع ذلك تؤشر وجود أمر غير طبيعي. خففت سرعة سيارتي لأتفحص هذه المحلات؛ محلات بيع المشروبات الروحية مفتوحة جميعها تقريبا، لكن لا توجد تجمعات للزبائن امامها كالعادة، باستثناء محل واحد يقف أمامه صبي أشعث الشعر يدلق في فمه البيرة من علبة (هنيكن) معدنية خضراء اللون. هذا المنظر بعث في داخلي الطمأنينة بان لا شيء يستوجب الحذر، غير أن طمأنينتي لم تستقر بعد ان إنتبهت الى عدم وجود باعة اللبلبي والباقلاء امام هذه المحلات، فقد كانت من علامات حيوية الحركة وتثير الشهية باضوائها التي تنعكس على قناني الليمون الاصفر والفلفل الأحمر المصفوف بعناية على حافات العربات.

توقفت قليلا في الجهة المقابلة لمكاتب الخطوط الجوية، حيث جذبتني ضحكة ماجنة لفتاة كانت تتبادل الحديث بصوت يصطنع المرح مع مجموعة شباب يتجمعون امام باب الملهى الذي احتل مكان سينما كانت معروفة في هذا الشارع. كانت ثمة اعلانات وصور لمطربين وراقصات لا اعرفهم ولم اسمع بهم، تعلو باب الملهى وتحيط به على لوحات نيون ضوئية، قصات شعرهم المنفوشة او المصفوفة بتكلف، الا أن أغلب هؤلاء من مطربي المطاعم الليلة والملاهي الذين لم استسغ الاستماع اليهم، لكني اليوم عندما شاهدت صورهم شعرت أن وجودهم دليل على استمرار الحياة.

استدرت الى ساحة النصر وهي المنطقة الاخيرة لسير السيارات قبل الوصول الى

ساحة التحرير، فقد أُغلق المنفذ الشمالي لها المؤدي الى ساحة التحرير بالكتل الكونكريتية، مع بقاء منافذ للمشاة محروسة برجال الشرطة. قبل أن أوقف سيارتي في الشارع الخدمي لساحة النصر، اوقفني شاب كان يركض هلعا عاري الصدر، مسح وجهه بقميصه الذي كان يلفه على خصره وسألني:

- هل توجد صيدلية تبيع كمامات؟

أشرت له على مكان الصيدليات. سؤاله أشعرتي أنني اتنفس هواءً ليس نقيا، نزلت من سيارتي وصحت خلفه فيما اذا كان يحتاج الى نقود، أومأ لي بالنفي وتركني راكضا باتجاه الصيدليات.

الحركة خلف الكتل الكونكريتية بعثت بداخلي الحماس للإسراع بدخول ساحة التحرير. كان ثمة رجال شرطة بلا اسلحة يقفون عند الفتحات بين الكتل يبدو عليهم الضجر، وبعضهم يستريحون على الأرصفة القريبة وكأنهم غير مبالين بما يحدث. استبدت بي رغبة عارمة للوصول الى الساحة والبحث عنه، استعدتُ صورته وهو يخطف من تقاطع (مول النخيل)، انمزجت صورته مع صورة أبيه؛ القذلة ذاتها تطير في الهواء مثل عرف حصان جامح.. الحركة نفسها سواء أكانت على التكتك الخاطف بسرعة أو عند التحلق عاليا لاستقبال الكرة بالرأس قبل إيداعها الهدف!.. بحثت عن وجهه بين المتظاهرين الذين بدأوا يظهرون لي قبل مدخل نفق التحرير بأمتار، تصاعدت انفاسي قلقا؛ لعله من بين العائدين من الساحة أو الذاهبين إليها، عتمة الليل لا تسمح لي بفحص الوجوه، حتى تسريحات الشعر لا أكاد أراها بوضوح، خاصة ان بعضهم يعصب رأسه بالعلم العراقي أو براية حسينية. يجب ان أراه الآن! أمسكه من قذلته وأهزه بقوة قبل ان أقبله.. استغرقت بتخيل صورته وأنا أبحث عنه بين الوجوه، أيقظني صوت شاب عشريني:

- حجي.. كمام .. بلا زحمة ألبسه ..لا تختنق..

ناولني كمام فستقي اللون، ناعم الملمس، وقبل أن اشده على وجهي ناولني شاب آخر قنينة ماء. شعرت أن المسافة بيني وبين ساحة التحرير طويلة جدا، ما جعلني متوترا، أتجاهل بجفاء كلمات بقية الشبان الذين كانوا يقدمون البسكويت وعلب العصير بتهذيب وتوسل. كنت أتوقع انه كلما تقدمت خطوة سأجد المكان أكثر اضاءة، لكن عندما خطوت الى جانب سياج نفق التحرير، وجدت ان جميع الاضواء تبدو شاحبة، ويبدو ثمة صراع مرير بين الاضواء الساقطة من مصابيح الأعمدة والظلمة، السحب الدخانية العالقة توقف أشعة الضوء وتمتص بريقها وتجعل كل شيء شاحبا، غير انها لا تقوى على مقاومة البريق الخارج من عيون الشبان ويبعث في داخل النفوس ضوءا من نوع آخر. دوت أصوات إنفجارات مكتومة، لم يفزع منها أحد من الشباب الجالسين على الأرصفة أو المتأرجحين على سياج النفق، وهم يواصلون أحاديثهم أو تصفح هواتفهم، كأنهم في عالم آخر.

اين أجدك في هذه الفوضى ايها الولد الفتان؟.. انفلقت قنبلة أخرى في الظلمة تمكنت من رؤيتها هذه المرة، تتمطى فوق الساحة، وخلفها يتلوى شريط من

الدخان الأبيض يشبه ذيل طائرة ورقية انقطع خيطها – هكذا علمني أبوك عندما كنا نلعب الطائرات الورقية على اسطح بيوتنا. تدافعت الكتل البشرية التي تملأ الساحة ووصل انزياحها الى شارع السعدون، تبعتها قنبلة ثانية وثالثة، تقاطعت الأشرطة الدخانية البيضاء فوقنا، كأن السماء دلقت أمعاءها فوقنا. تحركت مجاميع المتظاهرين باتجاهات تمكنهم من تفادي سقوط القنابل المسيلة للدموع عليهم، غُطيت الوجوه بالكمامات، والقمصان، والفانيلات التي كانوا يرتدونها، ارتفعت أصوات تدعو للثبات معززة بأهازيج حماسية وتطريبية وثورية غير موحد، بعضها من اغاني الحرب والبعض الآخر ردات حسينية، لكل مجموعة اهزوجتها او هوستها، لكنها تتحرك في المساحة نفسها تنظمها أصوات منبهات (التكاتك) التي كانت تجد طريقها سالكة بين هذه الحشود بطريقة عجيبة. إستغربتُ من ان الشباب الذين يستريحون على أرصفة الشارع وسياج مدخل النفق لم يتحركوا من أماكنهم، وكأن شيئا لم يحدث حولهم، أو أن الذي يحدث لا يعنيهم، فلم أسمع منهم شيئا سوى جمل اخبارية تناقلوها بينهم (ضربوا غاز)!

هزتني هذه اللامبالاة أكثر مما هزتني أصوات البشر الراكضين من جسر الجمهورية الى ساحة التحرير، فقد تيقنت تماما ان هذه اللامبالاة هي في حقيقتها أدوار يتقاسمها الشباب المحتجون تشبه تماما تقاسمنا للواجبات ايام خدمتنا العسكرية، فهؤلاء في الاستراحة وأولئك في الواجب!

الآن فهمت كل شيء، وعليّ أن ابدأ من هنا.. من نفق ساحة التحرير.. من الفتية الجالسين على سياج مدخل النفق ويأرجحون أرجلهم في الداخل او الى الخارج على الشارع الجانبي، هؤلاء أصغر عمرا من أولئك الذين يستريحون على الارصفة بأوضاع مختلفة، فقد خُيّل لي رؤية قذل بعضهم تهفهف مع الدخان، إذن أنت بينهم؟.. فرحت بهذا الاستنتاج الذي أعطاني أملا بالعثور عليك الآن.

من داخل النفق بدأت مهمتي، صوبت نظري الى الأعلى الى السياج الفاصل بين النفق وشطر شارع السعدون المتجه الى الساحة. يا إلهي أنكم تتشابهون مثل صف عصافير تحط على غصن أجرد في عتمة غابة!.. حتى ملابسكم تتشابه، سراويل رياضية أو بناطيل قصيرة فضفاضة وتيشرتات وفانيلات يوحد ألوانها مزيج الظلمة والدخان والأضواء الشاحبة التي منحت الليل لوناً غير مألوف، كما منحتني إحساسا ذكرني بالأجواء التي خلفها قصف القنابل العنقودية في المساحة المكتظة بالدبابات والآليات الهاربة من الكويت وصحراء البصرة، في تلك المساحة التي تضاء بالكاد بحرائق حقول نفط الشعيبة رأيت والدك آخر مرة، حيث لم أرَ منه سوى هفهفة قذلته واسنانه العريضة التي لمعت في الظلمة وهو يقول لي ضاحكا بسخرية: (ربما هذه نهايتنا.. قد لا نلتقي بعدها)، فقد كانت مساحة النيران أوسع من أن تترك لنا أملا بالنجاة، لذلك لم أستغرب عندما دون اسمه بعد انتهاء الحرب تحت عنوان (مفقود).. مفقود الى الأبد!. لم يتبق لي منه سوى هفهفة قذلته والتماعة اسنانه

العريضة البيضاء، بقي يلوّح لي شعر قذلته اللين تماما مثل القذلة التي تلوّح لي الآن من فوق سياج مدخل النفق!

خرجت من النفق، استدرت الى شطر شارع السعدون الأيمن الموصل الى ساحة التحرير، حيث يرتفع السياج تدريجيا كلما تقدمت باتجاه الساحة، تفحصت الوجوه الجالسة على السياج في استراحتها، ما زالت تتشابه بالرغم من انني صرت اميز ألوان ملابسهم!، أذن كيف لي تشخيصه بين هؤلاء الذين يتشابهون مثل العصافير، بألوان وجوههم وملامحهم وحجومهم.. وحتى في سقسقاتهم ؟!... استعدتُ الصورة بهدوء وتركيز.. صورته التي علقت في ذهني وهو يخطف أمامي مثل شهاب عند تقاطع (مول النخيل)؛ الوجه الدائري المكتنز مثل فسقة عجين، كيف لي أن أميزه وجميع الوجوه يلصف عليها (البيبسي كولا) الذي اغتسلت به لمعالجة غاز القنابل الدخانية؟

أستعنت بتقديراتي للمسافة داخل النفق ومقارنتها أو إسقاطها على المسافة من الجهة المطلة على الشارع المحاذي للسياج.. هذا هو إذن؟.. هل أنت متأكد؟.. سألت نفسي. كل شيء في داخلي ضج أنه (هو). حاولت أن أجد سببا يبرر لي تصديق ضجيج دواخلي .. العمر يصعب تقديره.. شباب هذا الزمان يتشابهون على نحو عجيب!.. العتمة والدخان والضوء الكابي والبيبسي الناشف على الوجوه لا تمكنك من الركون الى أية تقديرات للعمر أو تشخيصات للملامح، لكن القذلة نفسها، تتدلى من عصبة منديل كشميري أحمر داكن، مشجر يشد أعلى الرأس مثل الشريط العريض.. هو والله!. هتف شيء في داخلي.. كانت قذلة والده تتدلى وتنتثر بالطريقة نفسها عندما يحاول شد البيرية على رأسه...

كان يعبث بهاتفه، ما اتاح لضوئه ان يظهر اكتناز وجهه مثل فسقة العجين، لم أتردد.. مسكت رمانة كتفه وقلت له مازحا:

- عيونك راحت من التليفون...

إلتفت لي مبتسما فبرق بياض أسنانه العريضة، وبشيء من الخفر أجابني:

- أهلا حجي.

هل كان مبتسما فعلا؟.. الأسنان العريضة البارقة بين شفتيه الفاترتين، هي نفسها تجعله يبدو مبتسما دائما في (الجتّه) وفي ملاعب كرة القدم، وفي المدرسة، وفي الجيش عندما يضيق علينا الموت خناقه في المعارك، حتى كنا نسميه (سامي أبو كشره).. هي الكشرة نفسها كأن الابن ورثها من والده بكامل شكلها وقياساتها، ضوء الهاتف يجعل خديه يلقيان ظلالا خفيفة على ملامح الوجه فتزيد اسنانه بريقا..

- شعرك مبلل.. أنزع المنديل عن رأسك لا تمرض..

- انه البيبسي ياحجي .. لولاه لمتنا من غاز القنابل..

مددت يدي لألمس شعره، وقبل ان المسه، سارع وسحب المنديل من رأسه، فاتضحت حافات شعره المحفوفة بماكنة الحلاقة..

- كنا في طفولتنا هكذا نحلق شعرنا.. مثلكم..

التفت لي مبتسما.. لم أدرك معنى

ابتسامته، فقد غرقت بألوان شاشة هاتفه الذي مازال يمسكه قريبا من وجهه..

- بقصة شعرك هذه تشبه والدك كثيرا..

لم يبدِ أي رد فعل. لا أدري هل كان خجلا أو متجاهلا لكلامي .. ام دائخا من الغازات... ربما شعر الآن أنني متطفل عليه..

- كنا نسمي هذا النوع من القصات (زيان حواف)، وكان جدك يسميه (صجريه)... وأنتم تسمونه سبايكي..

ضحكت وكأنني ألقي له نكته، لكنه لم يضحك، واصل جموده باستثناء ابتسامة خفيفة تحمل معنى الاستخفاف والتجاهل، فعاد الى هاتفه يتصفحه..

تراجعت صفوف المتظاهرين من مقتربات الجسر بارتباك شديد على أصوات اطلاقات القنابل المسيلة للدموع مع اصوات محركات ومنبهات التكاتك .. كانت القذائف تتجه الى الحافات الخلفية لساحة التحرير، وبعضها سقط على مقتربات الجسر، انطلقت التكاتك مثل اسراب بط توشك على الطيران متجهة الى حواجز الجسر الكونكريتية التي تبدو اشد عتمة وضجيجا. سحب رجليه المتدليتين داخل النفق وقال بقلق:

- حجي اسحب الكمام على خشمك.

قالها وركض باتجاه الجسر.. تناثر شعره الى الخلف على نحو فتان، مثل فتنة شعر ابيه عندما كان يصعد الى الكرة ويأخذها برأسه في مبارياتنا الحماسية؛ يبدو جبينه عريضا باهرا، وعيناه أشد صفرة مثل العسل. هرولت الى جانبه محاولا اللحاق به وهو يتحاشى الاصطدام بجموع المتظاهرين والتكاتك التي كانت تنطلق بمختلف الاتجاهات.. قلت له بنبرة لاهثة:

- كنا نصفف شعرنا بالفازلين الأخضر المعطر.. وانتم الآن تصففون شعركم بالسبريه فيجعله واقفا مثل عرف الديك..

سحبت الكمام على أنفي وانا الهث محاولا اللحاق به، شعرت ان صوتي لم يعد مسموعا، أصوات الهتافات والأهازيج كانت تدفعني خلفه، تارة أكون الى جانبه، وتارة أخرى يسبقني، وعندما وصلت الى مقترب الجسر، لم اعد اراه، لكني كنت أتحسسه، أتحسس نبضه وانفاسه، وذؤابات شعره المتناثر التي تلامس وجهي وتنعش ذاكرتي، أنفاسي تضيق وثمة شيء يخترق مسامات وجهي مثل الدبابيس، شعرت انني أطفو على مستحلب من الدخان والظلام والضوء الشاحب من مصابيح أعمدة مقترب الجسر، واصلت الركض مادا يدي الى الأمام كي امسكه. في لحظة تعب شعرت أنني أركض على حزام ناقل، فالجميع يتقدم وأنا أرجع الى الوراء. تفرقعت إنفجارات قنابل دخانية كأنها فوق راسي، دخانها الأبيض المتمطي في الفضاء الأظلم يشير الى انها تتجه الى منتصف ساحة التحرير، تبدو بطيئة في هبوطها وهي تبحث عن راس تفلقه، تنادى الشبان بعضهم يحذر البعض الآخر، في حين ارتفعت أصوات تشد من عزم المتظاهرين وتدعوهم للثبات؛ (لا تركض.. لا ترجع..)، (رحمة لوالديك لا ترجع..)، (لا تخافون.. سباع.. ابقوا بمكانكم..) ازدادت حماسة هذه النداءات مع أصوات الأغاني والأناشيد واللطميات الحسينية المنطلقة

من داخل التكاتك (المحلقة) بين الجموع وكأنها في مهرجان احتفالي، يزيده حماسة نداءات وأصوات الفتيات والصبيان الذين يقودون التكاتك بسرعة ومهارة عجيبتين، فهم يمرون من اضيق المسافات من دون ان يصطدموا بأي واحد من الحشود، كنت اشاهد التكاتك العائدة منها من منتصف الجسر وهي تحمل في داخلها، شبانا جرحى او مختنقين.. ينطرحون في احضان شبان اخرين يحاولون اسعافهم قبل الوصول الى سيارات الاسعاف او الى المناطق الآمنة نسبيا في حديقة الأمة او عند مداخل منطقة (البتاويين).. توالى اطلاق القنابل الغازية واصبح الجو اكثر عتمة واكتظاظا، ناديته هل مازال الى جانبي، لم اسمع صوته، حزم من الدبابيس كانت تنغرس في وجهي، لم أكترث الى المها الذي بدا مثل لسعات النار، فتحت عيني بصعوبة لأنظر داخل التكاتك التي كانت عائدة من منتصف الجسر وهي تمر خاطفة قريبا مني، لعله بين هؤلاء الجرحى او المختنقين الذين تنقلهم التكاتك، صرت ارى بصعوبة فالدموع بدأت تسيح من عيني وتزيدها حرقة، بالكاد كنت أراهم.. كيف لي ان اميزه واغلب المصابين يغطون وجوههم بمناديل الكشمير أو باليشاميغ، او بتشيرتاتهم.. حتى قذلهم تتشابه وهي تتدلى في احضان المسعفين، بدأت الدبابيس تشك عيوني وتغلقها، وكانت تلك آخر المناظر التي اغلقت عليها عيني، بعدها لم اعد أرى شيئا. لكن ثمة ابتسامة لأسنان عريضة تبرق في ظلمة عيني وتقودني الى الخلف، فيها شيء من الألم والقلق والأهازيج، دفعتني الجموع معها الى جهة (نصب الحرية)، ركضت مغمض العينين، فكأن الجميع يرى بعين واحدة.. صحت من حرقتي (وينك.. ياولد .. يافتان)، تخيلت انك تقودني، او أني اركض خلفك .. على رائحتك.. أدركت انني سأموت.. القنابل تزداد في فضاء الساحة، تعثرت أكثر من مرة بأحد المتظاهرين الذين سقطوا أمامي، فتحت عيني كي أراك.. اراك للمرة الاخيرة علني اكمل حكايتي .. حكاية جدك وابيك، الذي ابتلعته حرب الكويت بعنوان مفقود وانت مازلت جنينا في بطن امك.. شعرت انها أمانة يجب ان اسردها لك، فتحت عينيّ بصعوبة، تدفق منهما دمع ساخن زاد من حرارة الدبابيس التي تلسع وجهي مثل لسعة الفلفل، دفعني صوت من الخلف (حجي أركض.. بسرعة..)، شعرت للحظة انك تمسك بيدي وتركض بي مسرعا بعيدا عن الدخان باتجاه ازقة البتاويين أو حديقة الأمة، شجعتك على الركض (أركض ياولد..اركض ايها الأملح .. ايها الأقجم..)، هكذا كان يشجعنا فلاح (الجتّه) على الركض عندما يزداد رمي حصى (المصابيد) علينا، كانوا يرمونا بالحصى ونرد عليهم بالحصى ونهزج (هاي الكاع مانطيها عشر سنين نحارب بيها)، ونندفع الى (الجتّه)، يا لعجب هؤلاء الذين يطلقون علينا قنابل الغاز ايضا يتمترسون في (الجتّه) التي تسمونها الآن (المنطقة الخضراء)!، ويا للمصادفة (المنطقة الخضراء) هي نفسها التي كنا نهزج بها، وانت تهزج قبل ان تصلها، ما بها هذه المنطقة لكي تهزجون بأهازيجنا وتريدون العبور اليها، ربما سميت بالخضراء لأنها أخذت لونها

الأخضر من خضار الجت الغامق؟.. هذا تفسير غير واقعي، يقنعني أنا فقط ، وحتما لا يقنعك ولا يقنع غيرك!.

ركضت بسرعة لم اتوقعها، كأن كل غاز ساحة التحرير ملأ صدري وجعلني بالونا يطير او يجنح مثل التكاتك، حذرتني أصوات كثيرة للفتية الذين يشبهونك، لا أدري ممن يحذروني، من الاطلاقات النارية المفردة التي لم نشعر بها إلا وهي تُسقط الفتية الراكضين وكأنها تصطادهم مثل العصافير!، أو من ثلمة الرصيف التي شعرت بها تكسر رجلي، أو من الغاز الذي ملأ صدري وانفلق في داخلي مثل مظلة طيار أُصيبت طائرته، فحلق بي الى الأعلى ..الى الفضاء الأظلم، مدفوعا بوخزة الدبابيس والم الساقين، وجدت نفسي أعوم في ظلمة داكنة بين تكاتك محلقة في الظلمة، تبدو مصابيحها الأمامية مثل انعكاسات لصور أقمار على مياه رجراجة، بدت لي ساحة التحرير من الأعلى مع امتداد جسر الجمهورية مثل ساعة كونية تحرك اميالها جموع المتظاهرين تحت الى يمين الدنيا، لم تشغلني الساعة ولا أميالها، كنت أبحث عنك.. سحبتني أصوات أغاني وأناشيد تنطلق من التكاتك المحلقة في الظلمة مثل كائنات افلام الخيال العلمي.. تبدو الاضواء داخل التكاتك المحلقة في السماء أشد بريقا لكنها لا تضيء اي شيء من ظلمة النساء.. أرهفت السمع الى أغاني الشباب علني اعرف صوتها، كانت الحانها جميلة لكن كلماتها غامضة لم ادرك معانيها.. كنت اطفو بهدوء في ظلمة الساحة بين التكاتك.. كنت الوح لهم ويلوحون لي، نبهني صوت من داخل أحد التكاتك الطائرة (حجي دير بالك.. ارتفع قليلا..انك فوق نصب الحرية..لا تصطدم..)، لعله صوتك انفردت عن ضجيج محركات التكاتك الطائرة لأسمعك.. أو أراك من فوق! .. ياولد .. يافتان لماذا تركت يدي وجعلتني اطير مثل بالون تائه؟.. اين ابحث عنك كي أكمل لك الحكاية؛ في حديقة الامة بين الفتية المنطرحين جراء اختناقهم بالغاز، او بين الفتية اللائذين في أزقة (البتاويين) من رصاص القناصة؟.. أنني احلق الآن بضحكتك.. بكشرتك الطفولية الجميلة.. انني احلق.. الدخان يدفعني من فوق حديقة الأمة، الى خزان الماء، ساحة الكيلاني.. أنني ألاحق كشرتك.. أهزوجتك.. هفهفة قذلتك تومئ لي عند تقاطع (مول النخيل)، مازال التقاطع يحتشد بالتكاتك والفتية العابرين جسور القناة من شرقها الى ساحة التحرير، وانت ياولد.. يافتان .. مازلت تهزج بين فرضة وشعيرة بندقية القناص.. ايها العصفور الأملح كف عن المزاح مع القناص، فأمك تمد رأسها مع النسوة من شرق القناة بانتظار عودة التكاتك كما كانت أمك تنظر مراسيل جبهات القتال من أبيك.. ياولد أرحم أمك لقد هدها الانتظار القلق، ياولد.. يافتان حاذر اللعب مع فرضة وشعيرة القناص فقد استبدلها بالناظور الذي هو أكثر إغواءً للموت، ياولد.. صوت الرصاص يصل أمك ويوخز قلبها، ألم يخبرك أحد أن صوت الرصاص يوخز قلوب الأمهات.. ياولد ..يافتان.. صوت أمك يكسر القلب وهي تنعى (صابك علي يالصوبيته).

الإبراهيمية الجديدة والثقافة إلى أين؟

د. رهبه اسودي حسين *

لم يكن موضوع الإبراهيمية يبتعد عما أفكر به منذ سنوات، ولاسيما وهو يدخل ضمن اختصاصي الأكاديمي. فكنت أقف طويلا عند المصطلح الذي بدأ تناوله في السنوات الاخيرة (الإبراهيمية) فكّرت مليا خشية ان يقع ما اطرحه ضمن ما درج على تسميته (نظرية المؤامرة)، ولكن هناك عوامل عجلت بطرح هذا الموضوع منها:

أولا، إهتمام الدراسات العربية والعالم الاسلامي بالموضوع، وبيان مدى خطورته دون أدنى اهتمام من قبل الباحثين العراقيين فقد طرق هذا الموضوع بشكل مفصل من قبل الباحثين ولاسيما المصريين منهم. وتضمن نشاطهم في (اصدار كتب وإقامة ندوات وابحاث تخصصية) فضلاً عن تبني مراكز بحثية مثل (مركز دراسات الوحدة العربية) نشر النتاجات المتخصصة بهذا المجال. وجدت هناك من يتكلم بالنيابة عن العراق في ما يتعلق بالمشتركات الحضارية بين حضارتي (وادي الرافدين ووادي النيل) ومدى علاقته بموضوع الإبراهيمية. لقد انتظرت من ذوي الاختصاص التاريخي والآثاري والاختصاصات المختلفة طرح الموضوع ليسجلوا اسبقية علمية يشار إليها في الابحاث ولكن للأسف افتقرت الصفحات الثقافية على مختلف تنوعاتها لإشارة الى هذا الموضوع المهم الذي جوهره يتعلق بالعراق أولاً وأخيراً.

ثانيا، اتفاق التطبيع (البحريني - الاسرائيلي) و(الاماراتي - الاسرائيلي) في عام 2020. الذي رعته الولايات المتحدة الامريكية ورئيسها حينها (دونالد ترامب) ومستشاره (جاريد كوشينر). وقد اطلق عليه (إتفاق ابراهيم)، الذي تضمن تسوية العلاقات بين البلدين وعلى وفق التمثيل الدبلوماسي والسياحي والتعليمي والرعاية الصحية والتجارة والأمن.

ثالثا، تصريح الدكتور أحمد الطيب (شيخ الأزهر) في نيسان 2021 لمناسبة تأسيس بيت العائلة المصرية الذي قال: "في ظل التوجهات التي تنادي بالإبراهيمية او الدين الإبراهيمي نسبة الى ابراهيم ابي الانبياء ومجمع رسالتهم فهذا التوجه او هذه الدعوة مثل قبلها كدعوة العولمة ونهاية التاريخ والاخلاق العالمية وغيرها

من الدعوات تبدو في ظاهر أمرها دعوة للإجتماع الإنساني والقضاء على أسباب النزاعات والصراعات وهي في حقيقة الأمر دعوة الى مصادرة أغلى ما يمتلكه بنو الانسان وهو حرية الاعتقاد وحرية الايمان والإختيار. .... نحن لم نرَ حتى هذه اللحظة هذا الوليد الابراهيمي الجديد ولا نعرف شيئاً عن ملامحه وقسماتهِ.. هل المقصود تعاون المؤمنين بالأديان على ما بينها من مشتركات وقيم إنسانية نبيلة او المقصود صناعة دين جديد لا لون له ولا طعم ولا رائحة.... فالدعوة فيها أضغاث أحلام أضعاف.. أضعاف ما فيها من الادراك الصحيح لحقائق الامور وطبائعها"[1]. فإثارة الشك في هذه الدعوة لم تقتصر على شيخ الازهر فقط وإنما صرح (القمص بنيامين المحرقي) الاستاذ في (الكلية الإكليريكية) في مصر أنها دعوة مسيسة تحت مظهر مخادع وإستغلال الدين قائلا: "لا أحد يقبل مزج جميع الديانات تحت ديانة واحدة، ولن تقبله أي من الديانات خاصة المسيحية والاسلام، لأن معناها العودة الى اليهودية، وقد تحدث فرقة داخل المجتمع"[2].

رابعا، تبني مؤسسات ومثقفين في العراق هذه الدعوة ضمن فعاليات وكتب بمختلف الاصناف المعرفية تؤطر الأفكار الاساسية لها ضمن طروحات غير معلنة بشكل واضح وبخطوات تدريجية ظاهرها ثقافي بحت وجوهرها تثبيت مبادئ الدعوة الإبراهيمية.

خامسا، إهتمام الدعوة بالعراق بوصفه المحطة الاولى لانطلاق المسار الإبراهيمي الجغرافي الذي يتمثل بوجود الآثار الحضارية لمدينة (اور) وزيارة البابا في آذار 2021 لهذه المدينة وأداء الصلاة الابراهيمية فيها.

مفهوم الابراهيمية:

"يقصد بـ (الابراهيمية) او الايمان الابراهيمي نسبة الى النبي إبراهيم عليه السلام (أبو الانبياء) والمقصود به القواسم المشتركة والتشابهات بين الأديان الثلاثة (اليهودية – المسيحية – الاسلام)، والافادة منها من أجل تحقيق سلام ديني عالمي قائم على الضمير الجمعي العالمي ويعي أصحاب هذا الطرح وجود اختلافات جوهرية بين الاديان الثلاثة إلا أن الديانة الإبراهيمية، تؤكد على الأسس المشتركة بين الاديان الثلاثة، ومنها عقيدة التوحيد والقيم المشتركة كالمحبة والإخاء والتسامح، والمقدسات المشتركة خصوصا مدينة القدس والنبي ابراهيم داخل الأديان الثلاثة كمرجعية روحية"[3].

إن الاهداف التي تقوم عليها الإبراهيمية هي[4]:

1. الالغاء التام لثقافة وعقائد الشعوب وابادة الأديان السماوية وهدم والغاء المرجعيات الدينية، والترويج لتأسيس فكرة حاكم واحد يحكم العالم. وان تكون تابعا للآخر وهو لا يعترف بك، وان هدفه ان يضمك إليه. وعلى وفق التسلسل التاريخي للأديان (اليهودية – المسيحية – الاسلام) فيكون الاقدم هو صاحب السيادة وهي اليهودية.

2. زعزعة الثقة والهدم بالمسلمات الدينية والتشكيك في القرآن الكريم من خلال معاهد

ومراكز بحثية مثل معهد (إنارة) في المانيا. وعدم الاعتراف بحقيقة تاريخية تثبت انه ليس عليه دليل مادي (أثر) ضمن (علم آثار جديد) وبالتالي شككوا في وجود الانبياء وبخاصة النبي محمد (ص) وأن المقصود في الاية الكريمة "سبحان الذي أسرى بعبده" هو سيدنا موسى.

3. شيوع مصطلحات عامة (التنمية المستدامة) و (المحبة) و(التعايش) و (السلام العالمي) و(تعزيز السلم في المجتمعات) و (التسامح العالمي) و (الاخوة الانسانية) و (الحب والوئام) و(المشترك الابراهيمي) و(المواطن العالمي) و(المواطنة العالمية) و(جميعنا أبناء إبراهيم وتجمعنا القيم الانسانية).

اما مقومات الدعوة الابراهيمية فهي[5]:

1. وضع ميثاق تكون له القدسية الدينية كبديل عن المقدسات السماوية ويُنحّى الخلاف والفواصل. فبعد رفض وجود اي دور للدين في العملية السياسية والدعوة الى فصل الدين عن السياسة، ادى الى تغيّر وتطور دور الدين ليكون مدخلاً للحل والتسوية ولتكون الإبراهيمية أحد أبرز أركان المقدسات السماوية.

2. تأمين (مسار ابراهيم) وهو الطريق الذي سلكه النبي ابراهيم وعائلته منذ (٤٠٠٠) عام مضت، الذي بدأ من حران – تركيا حيث كلفها الرب بالخروج والتنقل للمرور بالعديد من المدن التي تتقاطع مع تسع دول (تركيا، سوريا، العراق، مصر، الأردن، لبنان، السعودية، فلسطين، ايران) وفقاً للمسيرة السماوية. ان هذا المسار يتطابق مع خارطة (اسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات) التي نشرت مع مبادرة مسار ابراهيم التي نشرتها (جامعة هارفرد)، وتكمن خطورة هذا المسار في أن عائدية ملكية ارض المسار ليست لشعوب المنطقة او حكوماتها وإنما هي مناطق مدولة فتنضمر معها سيادة الدول التي يخترقها ارض المسار فلا تعد لهذه الدول سيطرة او سلطة عليها.

3. اقامة اتحاد فيدرالي يجمع (18) دولة مع اسرائيل وتركيا وايران معاً وسيعرف باسم الولايات المتحدة الابراهيمية أو (الارض المقدسة) ومع الاشارة الى ان منطقة الشرق الاوسط هي منطقة شديدة الجفاف في المستقبل، فيكون تجمع كل الاطراف في الأرض بين نهري دجلة والفرات ونهر النيل.

4. انتشار (مراكز الدبلوماسية الروحية) التي تتبنى الافكار (الابراهيمية) في أنحاء العالم بين معاهد اكاديمية ومؤسسات مجتمع مدني وجمعيات طلابية لبناء الكوادر الجديدة وجميعها تهتم بالتأصيل النظري للفكر الجديد (الإبراهيمية) فضلا عن استحداث عدد من الأدوات العلمية التي توظف على ارض الواقع منها: اليونسكو، والسياحة الدينية ومشروعات ريادة الاعمال للتواصل مع الشباب والتعاونيات النسائية.

خطوات آثار (الإبراهيمية) في الثقافة العراقية التي تقوم بتهيئة الارضية للأفكار الإبراهيمية:

1. بروز الشخصيات اليهودية في الصنوف الابداعية (القصة والرواية والشعر). فقد غدت ظاهرة تشمل أجيالا ادبية مختلفة. تتناول هذه الصنوف الابداعية

هذه الشخصيات في بيئة تتناقض تماماً مع ما هو سائد واقعياً مما يؤدي الى خلق حالة من السخرية في تناول احداث غير طبيعية بل انبرى بعض النقاد وهم يكيلون المدح لهذا الصنف الهجين من المعرفة.

2. الدعوة والاهتمام بشخصيات جدلية في مجتمعاتها في ما يتعلق بموضوعات تطبيع العلاقات مع اسرائيل والطعن بالمعتقدات الدينية ومناقشتها ضمن مفهوم (التنوير) وانجذاب الشباب لهذه الشخصيات. وافراد اعداد من الدوريات الثقافية الي تناولت افكارها واتجاهاتها، وجعلها المحور الاساسي في هذه الدوريات في حين يكون نصيب الاديب العراقي محاورة هذه الشخصيات مما ادى الى تقزيم الاديب العراقي في مقابل هذه الشخصيات.

3. الانجراف الاعلامي مع ما هو سائد من افكار مطروحة في ما يتعلق بمدينة (اور) وعدم الرجوع الى ما تم تناوله من قبل أعلام عراقية مهمة بخصوص هذه المدينة وعلاقتها بالنبي (ابراهيم). والذين سنتناول طروحاتهم التاريخية القيمة في مقالات لاحقة مثل (طه باقر واحمد سوسة وسامي سعيد الاحمد) مع مقارنة تاريخية للطروحات الغربية لهذه الدعوة.

4. بروز أسماء مفكرين في فلسفة الدين والتاريخ تدعي التنوير والتدين وتأخذ في إعادة تأويل النصوص الدينية ونصوص التفسير وتقوم بطرح رؤى مبهمة وبعبارات تحمل التأويل دون جزم مع سيل من المطبوعات المنشورة لها خارج العراق، واثارة موضوعات دينية – صوفية تصاغ بعبارات منها (شفرة اللغة الروحية، جغرافية الأديان، وفاء الاعتقاد، الانساق الاعتقادية، عزرا).

5. منح الجوائز لادباء ومفكرين عراقيين وبمبالغ خيالية خارج العراق فهم مؤهلون ليلعبوا دوراً مهما في مشروع الابراهيمية، بل هناك شبكة تواصل بين هذه الشخصيات فتجدها في ندوات وحوارات ودعوات رسمية خارج العراق تحظى باحتضان مؤسسات رسمية عليا.

الهوامش

1. د. احمد الطيب: كلمة القاها في احتفالية بيت الدين في مصر www.alkhaleejonline.net
2. (القمص بنيامين المحرقي): حديث لصحيفة الوطن 11/8/ 2021 www. sputnik news.com
3. د. هبة جمال الدين: المراكز الابراهيمية تعد كتابا (مقدس) جديدا والصراعان (العربي – الاسرائيلي) و (السني – الشيعي) على قمة أجنداتها. 13 مارس 2018 www.m.el watannew.com
4. د. مصطفى عبد الوارث: الإبراهيمية الجديدة والمستقبل العربي (ندوة)،6 تشرين الثاني 2021. www.gate.aharm. org.eg
5. ياسمين قعيق: قراءة في كتاب الدبلوماسية الروحية والمشترك الإبراهيمي. المخطط الاستعماري الجديد للدكتورة هبة جمال الدين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2021. www. almayadeen.net.

محطات وذكريات مع كلكامش العصر

أ.د. جواد مطر الموسوي *

عرفتهُ قبل أن ألتقي بهِ، وهو يبحثُ عن الخلود، فينبش في الاطلال القديمة؛ ليخرج الألواح الاثرية، فيزيح الغبار عنها، ثم يقوم بفكّ سحرها وطلاسمها (الكتابات القديمة) بتأنٍ وصبر كبير، كصبر أيوب؛ ليقوم بتحويل هذه الطلاسم والمخربشات (اللغة الاكدية وأخواتها) الى لغة حديث يفهمها كل قارىء، وحتى يجذر أصولها، كان يفكك النص الى ثيمات متعددة، وبعد دراسة وتمحيص هذه الثيمات والتنقيب والتنقيق فيها؛ غايته استظهار اصالة حضارة بلاد الرافدين وعراقة تاريخه.

كنتُ في حينِها أعدُّ رسالة الماجستير؛ بعد أواسط ثمانينيات القرن الماضي، كان هدفنا واحدًا: كان هو يجذّر وينبش في تاريخ العراق القديم وحضارته، لكنهُ سَجَّلَ سبقًا علميًّا، عِبْرَ تأليفه سِفرًا قيّماً في الدراسات التاريخية القديمة (عقائد ما بعد الموت)؛ ليكون دليلاً نحتذي بهِ، ونتأثر بما سطّر يراعهُ علميًّا ومنهجيًّا بعقل نيّر حرّ؛ لذلك اخترتُ السَّيرَ معه، فانطلقتُ من اليمن القديم لأكتب عن عقائدهِ وميثولوجيتها فكانت (الديانة

اليمنية القديمة ومعابدها في الألف الأول قبل الميلاد).

سألتُ عنهُ، قالوا: ابن ميسان، قلتُ أنعم وأكرم فهو حفيد أبناء مملكتها؛ مملكة كراكاس (charaxe) القديمة التي حكمت كل شمال الخليج العربي حتى سُمّي الخليج باسمها وامتدت شمالاً حتى جنوب بابل في وسطِ العراق وعيلام جنوباً، هي مملكة عربية قديمة، ظهرت في أرض السواد (جنوب العراق) في القرن الثاني قبل الميلاد، بعد تفكك إمبراطورية الاسكندر المقدوني (-36 23م) كانت عاصمتها خاراكس، التي أسسها الملك (هيسباوسينس) سنة (127ق.م) الذي سمّاه المؤرخ يوسفيوس فلافيوس (ت: -38 100م) (Josephus Flavius) بـ (العربي)؛ يطلق عليها بعض الباحثِين بـ (مملكة الأهوار) حكم هذه المملكة (26) ملكاً، وكانت نهايتها على يدي أول ملوك الساسانيين الملك أردشير بن بابك بن ساسان الأول (-224 242م) سنة (222م)؛ عندما كان حاكم ولاية (اصطخر).

ومن أشهر علمائها ازادور الكرخي (إسدور الخاراكسي) الذي استنشق نائل حنون؛ من الهواء نفسه الذي استنشق منه ازدور: المؤرخ والجغرافي الذي عاش في ميسان، له اكثر من مؤلف؛ منها: كتاب الطرق الفرثية، وكتاب في قياسات الأرض في زمن أغسطس قيصر (62 ق.م- 14م) هذا يعني ان ازادور عاش في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد، حتى النصف الأول من القرن الأول الميلادي.

قلت وبعد، قالوا: ابن كميت، قلتُ: ومَنْ منَّا لا يعرف الشاعر الكُميت بن زيد الأسدي (ولد أيام استشهاد الإمام الحسين سنة 60هـ) الذي أدرك الإمام السجَّاد والباقر والصَّادق (عليهم السلام) ووقف معهم ضد طغيان بني مروان فتعرَّض للأذى والتشرد، وأخيرًا صلبهُ القائد الأموي الحجاج بن موسى الثقفي (-40 95هـ/ 714-660م)، والي العراق؛ في الكناسة سنة (126هـ)؛ ليدفع ثمن قوله الحقيقة علنيًّا، فكان مخلصًا وصادقًا، مثله كان نائل حنون مخلصاً وجاداً حتى النخاع، وهذا واضح عندما تولّى معاون العميد لشؤون العلمية كلية التربية وعمادة كلية الآداب- جامعة القادسية، وكلية التربية- جامعة واسط، واخلصه في عمله والتشدد فيه افقده في حينها بعض المقربين منه.

والحال مع الكميت في قصائده المعروفة بـ (الهاشميَّات)، التي كتمها، ولم يعلنها، إلّا بعد أن جاء إلى الفرزدق - وهو همام بن غالب بن صعصعة الدارميّ التميميّ، وكنيته أبو فراس وسُمِّيَ الفرزدق لضخامة وجهه وتجهّمه (38 هـ/ 641 م– 114 هـ/ 732م) شاعر عربي من شعراء العصر الأموي من أهل البصرة- كما ذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني (بيروت: دار احياء التراث، ج 17، ص 23) وقال له: يا أبا فراس، إنك كبير قبيلة مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك الكُميت بن زيد الأسدي، فصدّق الفرزدق كلام الكميت، وقال له ما تريد؟ فقال له الكميت أنشدت قصائد شعرية، وأريد أن أعرضها عليك،

فإن كان شعري حسناً أبادر إلى نشره، وإن كان قبيحاً فلا أنشره، فقال الفرزدق: أما عقلك فحسن، وإني لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك، فأنشدني ما قلت، فأنشده بعض أشعاره: وهي قصيدته البائية، فبدأ الكميت يقول:

طربتُ وما شوقًا إلى البيض أطربُ

فقال الشاعر الفرزدق له: ممَّ تطرب يا ابن أخي؟ فقال:

ولا لعبًا مني وذو الشوق يلعبُ

قال: بلى، فالعب يا ابن أخي فإنك في أوان اللعب، فقال:

ولم تلهني دارٌ ولا رسم منزلٍ ولم يتطرفني بنانٌ مخضب

فقال: ما يطربك يا ابن أخي، فقال:

ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيةً أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضب

قال: أجل فلا تتطير، فقال:

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى وخير بني حواء والخير يطلب

قال: ومن هؤلاء ويحك؟ فقال:

إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله في ما نابني أتقرب

فقال: أرحني ويحك، من هؤلاء؟ فقال:

بني هاشم رهط النبي فإنني
لهم وبهم أرضى مرارًا وأغضب
خفضت لهم مني جناحي مودةٍ
إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

فقال الفرزدق للكميت: يا ابن أخي أذع، وأنشر شعرك؛ فأنت -والله- أشعر ممَّن تقدَّم، وأشعر مَنْ بقي، فعُدّ عند الباحثين أول من (أدخل الجدل المنطقي) في الشعر العربي، فلم يكن شعره عاطفيًّا بل هو (ذهنيّ عقليّ)، والحال مع قارىء الألواح نائل حنون، فلم يترك النصوص على علاتها ، كما يتعامل الآخرون معها، بل استخدم المنطق ؛ لاستظهار الحقيقة التاريخية؛ بذهنية ثاقبة، وبثقافة عالية، وعقلية متنورة، وفكر منظم؛ وضمن منهج منضبط.

ثم استدركوا وقالوا: نقصد كميت المدينة، قلتُ: المدينة الميسانية التي تغفو في أحضان نهر دجلة الخير مدينة الخرافة والجمال والأسطورة، التي تنبض في وريد العراق الجميل، إنّها شهقة حب تصعد وتنزل في رئتِه، وهي إحدى نواحي محافظة ميسان في العراق تبعد عن مدينة العمارة مركز المحافظة بمسافة (40) كم وتبلغ مساحتها (1695) كم2 يخترقها نهر دجلة ويقسمها إلى قسمين وقد ربط جانبا الناحية بجسر كونكريتي ثابت يربط الناحية من الشرق بمحافظة ميسان ومن الغرب بمحافظتي ذي قار والقادسية وقد تأسست هذه الناحية سنة (1878م) في عصر السيطرة العثمانية للعراق فتعدّ من أقدم الوحدات الإدارية في محافظة ميسان.

قلتُ لم أقصد هذا؟ قالوا: إنه ابن قبيلة عبودة العربية، من العشائر العراقية الكبيرة، فهي ثلث عشائر الأجود، من ذرية: عبدي بن محمد بن الحكم بن المنذر بن بشر بن الجارود (الذي بايع النبي -ص-) بن عمرو بن حنش بن معاوية بن زيد بن حارثة ابن معاوية بن ثعلبة بن جديلة بن عوف بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن

ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.

وقبيلة عبودة من أشهر القبائل التي ناصرت الإمام عليًّا (ع) في جميع معاركه من أمثال: صعصعة بن صوحان العبدي وأخيه زيد وغيرهم، وكان لمرافقتهم للإمام علي (ع) سببٌ لنزوحهم إلى العراق وسكنهم في البطائح؛ المنطقة الجغرافية المحصورة من البصرة إلى كوت واسط، قلتُ: أصالته واضحة.

ولم أقصد هذا، قالوا: ماذا تريد؟! قلت: أريد أباه، الذي علّمهُ حبّ العراق وتاريخه، والمبادئ الأساسية للبحث فيه، وجعل منه بعد ذلك كلكامش عصره، قالوا: أتقصد معلمه الأول، قلت: نعم، قالوا: طه باقر (1912 - 8 شباط 1984م)، قلتُ: هذا الذي قلتُ عنه يومًا، عند تحقيق كتابه (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة) الصادر سنة (2011م) من بيت الحكمة إنه (ذاكرة القصب والطين)، قالوا: نعم، قلتُ: أنْعِم وأكْرِم إنَّه شبل ذلك الأسد، الذي أصبح اليوم أسد عصره في حقل تخصصه...

إنّه العالم الاثاري واللغوي في اللغات القديمة، نائل حنون، كان لقائي الأول معه سنة (1991م) على أرض سومر (الديوانية الْيَوْمَ) قرب أطلال ونه والصدوم (السنية في الوقت الحاضر)، هذه الأرض التي لا أستبعد أن أقدام كلكامش العراقي القديم قد سارت عليها، فتركت آثارها هنا وهناك، وإلّا لماذا نائل حنون كلكامش عصرنا نسيَ كميتهُ -ويكاد الوحيد الذي نسيَ كميته- من أجلها.

كان الأخ والزميل الأستاذ الدكتور عماد عبدالصاحب الجواهري (رئيس قسم التاريخ آنذاك- كلية التربية/ جامعة القادسية) الفضل في تسهيل أمر تعييني في جامعة القادسية، إذ زودني بكتاب طلب حاجة سنة (1990م) حمله بيده ودخل على رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور جواد مجيد العبيدي (ت: 1994م) ؛ليخرج منه، وقد سلّمني نسخة منه بتوقيعه، معنونة إلى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

وبعد صدور أمري الوزاري بالتعيين في (29/ 5/ 1991م) استقبلني الدكتور الجواهري بهدوئهِ الرهيب والرتيب في بعض الأحيان، واقتادني إلى المكتب المخصص لي -كان موقع قسم التاريخ في بناية عمادة الكلية من جهة اليمين، وكان في حينها عميد الكلية الدكتور فلاح حسن حسين الخفاجي (1991 - 1994م) الإداري الناجح والانسان المتفاهم- خرج الدكتور عماد الجواهري من غرفته وسار في ممر القسم وانأ أسير خلفه، بشكل يثير السخرية، لما للفارق الواضح في طول القامة -الحمدلله كان الممر فارغاً من المارة- انحرف بعدها يمينًا ودخل غرفة أطلق عليها الجواهري (غرفة التاريخ القديم) كانت شبه فارغة -ماعدا المكاتب- مشرعة الشبابيك والباب، كان الجو في حينها يميل إلى ارتفاع نسبي في درجات الحرارة.

وعند دخولنا نظر الجواهري إلى جهة اليسار، فنهض شخص بقامة فارعة جميلة وعوينات مرتخية على ارنبة الأنف؛ لم اشاهدهُ سابقًا، سلمتُ فرد السلام، ونهض من كرسيهُ وصافحني بهدوء تام.

وقبل ان يخرج الجواهري من الغرفة؛

التفت الى الدكتور نائل فقال له: هذا الأستاذ من جماعتكم؛ لتبدأ قصة طويلة الأجمل ما فيها انه كلما بعدنا مكاناً وزماناً تزداد المحبة بيننا وتتعمق بل تتجدد اكثر عندما نلتقي؛ نتألم بيننا اذا أصيب أحد منّا بعرض صحي ، بالأمس (20 /4 /2022م) وصلني منه صباحاً ؛ مسج يتألم فيه على وضعي الصحي وهذا نصه: (صباح الخير والعافية أخي الغالي وصديقي وزميلي .... بلغني تواً خبر متاعب صحية ألمت بك شافاك الله وعافاك. وأنا منذ مغادرتي العراق ألهج بالدعاء من الله في كل يوم بأن يحفظ أصدقائي لأعود فأسعد بلقائهم، وهم نعمة بها أحدث. وأنت لي أيقونة هذه النعمة. الله يعلم أنني لم التقيك يوماً إلا وقد ضحكت معك من كل قلبي وسعدت كل السعادة بلقاك واستمتعت بأحاديثك الجميلة. مهما يكن ما ألمّ بك فإنني أتوجه إلى الله متضرعاً منه الشفاء لك، وأدعو منه، في هذه الأيام الرمضانية الغالية عنده، أن يحفظك لمحبيك بشفاعة جدك وآل بيته الطاهرين. سلمت وعوفيت يا أيها الإنسان الرائع والصديق الغالي والأخ الحبيب. أخوك الذي أنعم الله بك عليه نائل حنون) وعندما طمنته عن حالتي الصحية برسالة واتساب؛ رد ما نصه:(... طمأنتني وافرحتني لحد الدمع. رسالتك هذه أغلى وأكرم ما تلقيت في هذه السنين. اتضرع إلى الله جلت قدرته أن يجمعنا ثانية "ويجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا" حفظك الله بصحة وعافية وحفظ العائلة الكريمة وكل محبيك بالصحة والسلامة)،

هذا كلام نائل حنون وهو على اعتاب السبعين، لاحظ اخلاقه العالية ووفاءه وطيبته وانسانيته...

خرج الجواهري؛ بعد أن عيَّنَ لي مكتبي المقابل للباب وخلفه الشباك المواجه للشمس، ثم التفت إلى الجهة اليمنى، فوجدتُ مكتباً فارغاً، وآخر على جهة اليسار يقابل مكتب الدكتور نائل الذي سلَّمنا عليه توًّا، بعد أن جلست؛ وبعد (الله بالخير) العراقية، عرفته بنفسي؟ ثم طلب عنوان رسالتي للماجستير، أجبته بالتفصيل، وعند نهاية حديثي همهم وهزَّ رأسه بالموافقة، ثم قدَّم ابتسامةً غامضة مميزة من الصعب التكهن بها هل هي ابتسامة فرح أو حزن؟ إلى الآن عالقة في ذهني، لم أر مثلها، ذكَّرتني بتميز ابتسامة لوحة الجيوكاندا (الموناليزا)، هي لوحةٌ فنيةٌ نصفيةٌ ترجع للقرن السادس عشر لسيدة بِريشةِ الفنان الإيطالي ليوناردو دافينشي (1519م)، حيث رسمها في عصر النهضة الإيطالية، استخدم فيها بعد إنهائها طلاء زيتيا ولوحا خشبيا مِنَ الحور الأسود.

المهم حملت ابتسامة دكتور نائل الكثير من التعبيرات والإيحاءات؛ فضلا عن جمالياتها؛ منها: المخفي والمباح، وكأنه يقول لي : كلنا في الهوى سوى ... لا أدري كم فتاة تحطمت عند هذه الابتسامة؛ لتنتهي ملكاً خالصاً إلى زوجته أم يوسف....

سألته: ومن أنت يا أستاذ؟ أجابني على عجالة وكأنه يريد ان ينهي الحديث بسرعة؛ اجابني: نائل حنون؛ ثم أطرق رأسه على مكتبه ؛ليكتب شيئًا مهمًّا يشغلُ بالهُ.

تركني في حيرة من أمري، كانت مفاجأة كبيرة، أين أنا من هذا الرجل، وقد حصلت قبل سنتين (1989م) على الماجستير؟ إذ يكبرني عمرًا ودراسةً وعلمًا ، فهوَ قد وُلِدَ في (18 /3 /1952م) وحصل على البكالوريوس سنه (1972م) من قسم الآثار/ كلية الآداب- جامعة بغداد، وحصلَ علَى الماجستير الأولى سنة (1976م) من قسم الآثار كلية الآداب- جامعة بغداد، والماجستير الثانية سنة (1982م) من جامعة تورونتو (Tonrnto) في مدينة تورونتو من أكبر مدن كندا وعاصمة مقاطعة أونتاريو، على الساحل الشمالي الشرقي من بحيرة المقاطعة، ظهرت باسم (يورك) في نهاية القرن الثامن عشر ميلادي وسميت تورونتو بعد حرب سنة (1812م)، والدكتوراه كانت عن اللغة الأكديَّة من الجامعة نفسها سنة (1986م).

أمَّا يفوقني عِلمًا فهو الباحث العلمي الذي عمل في التنقيبات الآثارية في دائرة الآثار والتراث (1989م) والمشرف على التنقيبات البحثية والإنقاذية في شمال العراق (1977م) ويمتلك أكثر من ثمانية بحوث علمية رصينة منشورة آنذاك منها البحث الموسوم (شخصيه الآلهة الأم في النصوص السومرية والأكدية) نشره في مجلة سومر سنة (1987م) وكتابه (عقائد ما بعد الموت) طبع في بغداد (1978م) وأصدرَ كتابًا مهمًّا بعد ذلك هو(نظام التوثيق ألآثاري) عن دار الحكمة في بغداد سنه (1992م).

تسمَّرتُ في مكاني، بعد أن ساد الغرفة صمت وهدوء تام، وأخذ شريط الذاكرة يمرّ من أمام نظري؛ أوقفته لبرهة؛ لأجد أمامي الأستاذ الدكتور منذر عبد الكريم البكر (ت: 1999م)، جالساً في قاعة الدرس المخصَّصَة لطلبة الماجستير، في ذلك الصباح البصراويّ الجميل المعطر برائحة مياه شط العرب؛ قبل نهاية سنه (1986م) دخل القاعة وهو يتأبط نسخه من كتاب رفعهُ أمامنا قبل أن يبدأ بمحاضرتهِ، وأوصانا بقراءتهِ بشكل جيد ومركَّز؛ إنهُ كتاب نائل حنون (عقائد ما بعد الموت)...

كان هناك الكثير في هذا الشريط عن نائل حنون، وأكد أوقفهُ لبرهة مرةً ثانية...، ألا أن دخول شخص بسرعة غير اعتيادية، سلَّم علينا، وجلس ينظر نحوي تارة وتارة أخرى إلى الدكتور نائل حنون المنشغل بالكتابة، انتبه إلى ذلك الدكتور نائل بعد حين، وفهم ما يريد، فقال له: هذا تدريسي جديد في القسم مختص في التاريخ القديم من جامعة البصرة واسمهُ (أستاذ جواد) وسوف أضيفه إلَى هيئة الدراسات والتنقيبات في جامعه القادسية، رحَّب بي هذا الشخص بشكل لائق، تدل على اصالته وخلفيته الريفية، يمتاز بأخلاق عالية، يحمل الطبائع الأصيلة لابن القرية شكلاً وتصرفاً، فملوحة الأرض معَ دفئهَا واضحتان في وجههِ، وخشونةُ يديه واضحةٌ جَلِيةٌ؛ احسستها عندما صافحني بقوة، مقابل يدي الناعمة الرطبة، وهذا دليل استمراره في فلاحةِ أرض آبائهِ وأجدادهِ في قريةِ (الزلجة) جنوب مدينة العزيزية في محافظة واسط، بعد تداول الحديث معه عرفتُ أنهُ (طالب منعم حبيب الشمري) أخذت نفساً طويلًا،

بعد ماعَلِمتُ أنَّ هذا التدريسي قريب بعض الشيء من عمري (1956م) ودراستي (الماجستير) فقد حصل عليها من قسم الآثار- كلية الاداب/ جامعة بغداد سنة (1978م)، وتطورت علاقتي معه وأصبحنا أصدقاء أوفياء؛ ووجدتهُ يعتز ويفاخر بالانتماء الى الريف؛ وكان عنده شغف بحب الأرض وكان يصف لي كيف يزرع السمسم، وكان لا ينسى حصتي من المنتوج؛ وكان يقول بابتسامة هذا (هدية السيد).

شاءت الصدفة في هذه السنة ان اتولى رئاسة لجنة مناقشة ابنه للدكتوراه عليّ طالب الشمري (30/ 3/ 2021م) بعد ان ناقشته بالماجستير (25 / 12 /2014م) وقبل المناقشة سألت عن والده (الأستاذ الدكتور طالب منعم الشمري) قالوا: انه في المستشفى يعالج من آثار مرض كورونا، فتأثرت كثيراً، فقررت في اليوم التالي زيارته، فخرجتُ من بغداد بعد الثانية عشرة الى الكوت مروراً بقضاء العزيزية، وكنت متأثراً كثيراً، ولاسيما ان علاقتي تمتد الى اكثر من ثلاثين سنة، وفي الطريق اوقفنا اخوان الدكتور طالب وابناؤه، ومنعوني من الاستمرار، حفاظاً على صحتي نتيجة الإصابة؛ بمرض سرطان الرئة منذ ثلاث سنوات؛ ونتيجة الحاحهم ونزولاً عند رغبتهم، اضطررت الرجوع على شرط ان يوفوني بالتطورات الصحية له، فرجعت منكسراً ومتأثراً، فقد كنت اتمنى ان أراهُ، وزادت خيبتي اكثر وعظم حزني، عندما وصلنا اعتاب بغداد من جهة الرستمية، رنّ هاتف ابن اختي الدكتور مازن محمد موات (تدريسي في كلية الطب- واسط) الذي رافقني، ليخبروه بكل أسف ان الدكتور طالب الشمري؛ انتقل الى رحمة الله.

بقيت أنتظر مَنْ يحلُّ ليجلسَ على المكتب الذي يقع إلى يميني بيني وبين الدكتور نائل حنون، استمر الحال إلى شهر تموز، من سنة (1991م) وذات يوم من هذا الشهر، دخل علينا شخص مملوء الجسد - اكتشفت بعد ذلك ان هذا الجسد يحمل قلباً ممتلئا بالبراءة والطيبة كأنه طفل وديع سلَّم علينا بلطف وتواضع كبير، ينمُّ عن أخلاق عالية، وعرَّف نفسه بأنَّهُ (هديب حياوي غزالة) فكان على معرفة سابقة بالدكتور نائل حنون وطالب منعم بحكم تخرجهم من قسم واحد واختصاصهم آثَار، أما أنا فخريج قسم التاريخ -جامعة البصرة، وعرفتُ أنَّ (هديب) من مواليدي نفسها (1959م) ومن سنة (1989م) تخرج واحدة.

لتبدأ مع كلِّ واحدٍ من هؤلاء الثلاثة، ومعهم اثنان في التاريخ الحديث، هما: الدكتور عماد الجواهري -ولد في محافظة الديوانية سنة (1945م)- والدكتور محمد هليل الجابري أبو وسام (1942 - 2015م) اللذينَ كانت تربطني بهما علاقات حميمة وطيبة وذكريات يختلفُ لونُ كلِّ ذكرى عن الأخرى، وسنترك الحديثَ عن كلِّ واحدةٍ منهما للزمن إذا كان لدينا عمرٌ يسمح لنا بذكرِهَا مستقبلا.

ونستمر بسرد بعض محطات ذكرياتنا مع الأستاذ الدكتور نائل حنون، الذي كان لوجوده بيننا حافزٌ علميٌّ مؤثرٌ، نستشيره علميًّا في كل شاردة وواردة، وتأثرنا به اتكيتيا -إذا صحّ التعبير– فأناقته ولطفه

أمرانِ مميّزانِ فيه، أمَّا كأسه (ماك) الذي كتب عليه اسمه، فيُعَدُّ في حينه شيئًا جديدًا بالنسبة لنا، حتى توقيعه فيه شيء من التميز الذي يشبه (الطغراء).

اشتغلت معه لمدَّةٍ قصيرةٍ جداً -بسبب توقف عمل الهيئة- في هيئة الدراسات والتنقيبات الآثارية في موقع (ونة والصدوم) في منطقة السنية، وعملت معه (عضوًا مقررًا) في مؤتمر (القادسية بين التراث والمعاصرة) سنة (1992م) وهو أول مؤتمر علمي يعقد في جامعة القادسية آنذاك، وكنت قريبًا منه عندما كان المعاون العلمي لعميد كلية التربية، جالسته بصورةٍ منفردةٍ وبصورةٍ عائلية، كان لطف وكرم أم يوسف يُشَابهُ لطفه وكرمه، عرفتُ أشياءَ كثيرةً عنهُ وسمعت عنه الكثير بعد ذلك، وعلق في ذهني سؤال حيَّرني كثيرًا يتداوله أغلبُ النّاس ويسألونني عنه، وأنا لم أستطع الإجابةَ عنهُ وأبقى محرجًا جَرّاءَ محبتي له، ولا يمكن لي استيضاحُ الإجابة عنهُ من تصرفاته، على الرغم من أنَّ الإجابَة عن هذا السؤال يسيرةٌ إنْ كانَ يَخُصُّ واحدًا مِنَّا، لكنَّ الإجابةَ عنهُ فيمَا يَخُصُّ نائل حنون غَدَتْ صعبةً جِدًّا، فقد أخفى كثيرًا من الأسرارِ بين جناحيه رافِضًا البوحَ بها ولا يستظهرها بسهولة، كتوم على كل شيء، ربما تعلَّم ذلك من والده حنون عليوي؛ العسكري القديم، حاولت قدر المستطاع أن أحصل على جواب، صعب عليَّ الأمر فتركته، لكن الصدفة كان لها الأثر الواضح في الإجابة، زرته كعادتي بين الحين والآخر في مكتبه عندما كان معاون العميد سنة (1993م)؛ لتقديم التهنئة له بطبع كتابه (نظام التوثيق الآثاري) وبعد السلام والتحية، وأنا العاشق دومًا بالنظر لابتسامته الجميلة التي يظهر فيها واحدٌ من أسنانه من المقدمة، طلبتُ منه نسخة من الكتاب، سحبَ نسخةً من مكتبه ليسلمها لي، وهو يعتذر أنه لم يهدِ اي نسخة لأحد، بسبب خلل طباعي في الكتاب، وختم كلامه وأقسم القول بـ (وإمامك عليّ) تفاجأت بالإجابة التي كانت تشغلني دائمًا، وظهرت على وجهي آثار المفاجأة، فحضنته وقبلته لأنه أجابني، وخرجت بسرعة، ونسيت نسختي من الكتابِ حتَّى يومنا هذا، وتركته يدمدم ربما لأني نسيت الكتاب.

تركته مدةً من الزمن، فأنا ذهبت لأكملَ دراستي للدكتوراه؛ وهو انتقل إلى كلية الآداب؛ ليصبح عميدها، وزرته في سنة (1996م) فاستقبلني برحابة صدر كبيرة، وطلب مني أن أشاركه في جولة رسمية لمرافق الكلية واشتركت معه في الحديث عن الكلية وتطويرها علميًّا وإداريًّا....

يعدّ نائل حنون باحثًا علميًّا رصينًا لا خلاف عليه عند الجميع؛ اذ يمتلك أسلوبا مرنا يجذب القارئ له؛ له ذاكرة وقّادة وفكر منظّم ومنهج دقيق محكم؛ لذلك تعرضت دراساته للتساؤلات والمناقشات، ولاسيما في النتائج التي يتوصل لها، وهذه الصفة أهلته ان يتبوأ المقعد الاول بين الباحثين.

كما عرف عنه: إداري ناجح وكفء، ومخلص في عمله؛ جاد ونزيه؛ وهذا يدلل على حبه للعراق، فعندما أصبحَ معاون عميد كلية التربية كان يحمل كل مفاتيح الكلية بشكل لافت للنظر، ومرة شاهدته عصرَ أحد الأيام وهو يحاول أن يتسلَّقَ خزّان ماء الكلية؛ ليقفله خشية نضوح أحد

أنابيب المياه في الكلية مِمَّا يُسَبِّبُ هدر مياه الشرب، انها من صفات السومري المحب للماء والقصب والحياة ودجلة والفرات، ومن الصدف الجميلة أنَّهُ طلب مرَّةً منّي أن أرافقه من غير تكليف رسمي لشراء كراسي للكلية، وجدته يتعامل بإلحاح معَ البَائِع، ويسأله عن النوعية والصنع، قلت له: لَم أجدك لحوحًا يومًا من أجلِ شيء يخصك؟ ابتسم، وقال: إنَّ هذا الشيء مكلف به وواجب الأمانة؛ الاهتمام، هذا شيء من نزاهته وعراقيته، ذكر لي عندما كنت رئيس جامعة واسط (2007– 2012م) إدارته المميزة في كلية تربية واسط آنذاك، على الرغم من انها كانت حديثة التأسيس. استمر بعد ذلك بتولي عمادتها حتى الاحتلال الأمريكي (9/ 4/ 2003م).

التقيته بعد ذلك في الأيام الأولى من الاحتلال في باحة مجمع كليات باب المعظم جامعة بغداد، وهو يلتقي مع طلبة الدراسات العليا، لكن ابتسامته بقيت لم تتغير، على الرغم من أنَّ بريقها خافت، لكن يمكنُ قراءتُهَا بأكثر من وجه، غادر العراق بعد ذلك إلى سوريا وابتسامته لم تتغير، حاولت أن التقيه هناك فلم أفلح، لكن صداه العلمي استمر يشع كابتسامته، هي نفسها منذ عرفته تشع بالأمل والتفاؤل والإبداع والحب والتاريخ....

المحطات كثيرة مع كلكامش العصر نائل حنون، فهذا هو الشخصُ الّذي عرفته قبل أن ألتقيه، وزدت إعجابًا به بعد أن التقيتُ بهِ وعرفته عن قُربٍ، علاقتي بهِ بقيت هكذا لم تتعرض يوما من الأيّام لأيّ طارئ يعكر صفوها ابداً، أعتز به كَثيرًا وافتخر بصداقته الدائمة، وهذا ما أجده عنده نفسه....

الأستاذ الدكتور نائل حنون: اسمٌ حفر لهُ مكانًا بارزًا في جداريَّةِ المشهد الثقافي والعلمي العراقي، لا يمكن أن يُنسَى، قدَّم الكثير وعنده الكثير، فهو الإناء الذي لا ينضب، وغدًا له أكثر من مفاجأة، فقد أسرني بأكثر عمل لم يظهر بعد، وعليكم أن تشهدوا لي بذلك، مادامت ابتسامته تشعُّ أملًا وتفاؤلًا حتَّى اليوم.

والسؤال الذي يفرض نفسه اين هو اليوم عالم اللغات العراقية القديمة، نائل حنون؟ لقد ترك ارض بلاد الرافدين (2019م) الى سلطنة عُمان، بعد ان طلب التقاعد من جامعة القادسية قبل اوانه، واقامت له كلية الاثار احتفالية (20 /4 /2017م) متواضعة جداً حضرها القليل من زملائه كنت من بينهم وطلبته، فالقيت من هذا المقال بعض النتف والكلمات الخجولة والمتواضعة عن علاقتي به، وهي لا ترتقي لما قدّمه العلاّمة نائل حنون للثقافة والتاريخ واللغة والإدارة الجامعية في العراق، وللمؤسسات التعليمية والطلبة.

يبقى نائل: كلكامش عصرنا، فهو الذي رأى كل شيء، فقرأ التاريخ وجذره؛ وصال به، وأبحر، فعرف الأشياء كلها، وكشف عن اسراره، وسلك كل طرقه، أطال الله في عمره وزاد في إبداعه، لينير الدرب للباحثين...

* اكاديمي ودبلوماسي/ جامعة بغداد ـ كلية الاداب

القمع والحرية في رواية (طشّاري) لإنعام كجه جي

أ.د. باقر محمد جعفر الكرباسي

تمهيد

الرواية جنس أدبي يتجاوز تسمية أو تعريفاً محدداً، لأنه يتطور ويخلق قوانينه وإبداعاته المرحلية ويترك بصماته الخاصة في إبداعات العصور التاريخية مذ عرف الإنسان هذا النوع الملحمي من الفن، والفن الروائي هو أكثر فنون السرد استيعاباً للهموم الإنسانية وأكثرها ملاءمة للتعبير عن هذا النزوع الشريف في احتضان طاقات إبداعية تعبر عن نضال الإنسان ودوره في الحياة من أجل جعلها أكثر دفئاً وإشراقاً. إنَّ الرواية في العراق والتي تجاوزت السبعة عقود شأنها شأن الرواية العربية المحلية، بل هي تضاهي – حسب فاضل ثامر – في تاريخها وعمرها الرواية العربية في نشأتها ومولدها وسيرورتها، إذ لا يمكن موضوعياً دراسة المهاد التاريخي والثقافي والروحي لنشوء الرواية العربية، كجنس أدبي متميز في هذا العصر، بمعزل عن نشوء الرواية العراقية، بل يمكن القول وبثقة تامة، ان عملية تشكيل الرواية العربية كانت تنم وتنضج في مناخات متقاربة، وان كان ذلك بمستويات متباينة من النضج والأصالة، في أوقات متقاربة نسبياً، في عدد محدد من الأقطار العربية وبشكل خاص في مصر وسورية ولبنان والعراق، يقول الناقد فاضل ثامر في – المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي – ص 132 (ان مؤرخي الرواية العربية ونقادها يتأرجحون في تحديد نشأة الرواية العربية بين رأيين أساسين: أولهما يرى أن الرواية العربية هي جنس أدبي جديد تماماً على الأدب العربي، نشأ نتيجة الاحتكاك الثقافي بالغرب، وبذا يقطعون جذوره عن موروثنا الأدبي الكلاسيكي والشعبي. وثانيهما يرى أن الرواية العربية هي امتداد طبيعي للموروث النثري العربي المتمثل في ألوان نثرية كالسِيَر والأخبار والحكايات الشعبية والمقامات وغيرها)، ويؤكد دارسو الرواية العراقية بان أعمال محمود أحمد السيد (1930 - 1937)

الروائية المبكرة بسيطة وساذجة إلى حد ما، وتعتمد بنية سردية تقليدية تقريرية، ويسود فيها الراوي الكلي فان عمله الروائي (جلال خالد) الصادر عام 1928 يؤلف نقلة مهمة في حركة تأصيل هذا الجنس الأدبي الحديث. ولم يشهد العقدان الثاني والثالث من هذا القرن – فترة ما بين الحربين – الا ظهور نماذج روائية محدودة لم تستطع أن ترتقي بالبناء الفني للرواية العراقية إلى مرتبة فنية متقدمة، وفي الكتاب نفسه يرى الناقد فاضل ثامر: (ان الرواية العراقية لم تستطع حتى مطلع الستينات أن تؤكد حضورها، أو تفوقها فنياً ورؤيوياً، حتى النصف الثاني منه شهد المخاض الإبداعي الحقيقي للرواية العراقية، حتى بات بالإمكان اعتبار الستينات هي التاريخ الحقيقي لولادة الرواية الفنية الناضجة في الأدب العراقي الحديث) ص136، فالروائي العراقي قاد في بواكير سردياته الروائية وفي محاولات جادة للتعبير عن حلمه في ضرورة ممارسة المجتمع لمنطق العقل والتطور لغرض تحقيق حياة يكون المنطق الإنساني هو السائد فيها، لذلك تمخضت تجاربه المبكرة عن التزام كامل بهموم الإنسان العراقي ومواجهة قضاياه المصيرية فوجد في الرواية أداة تعبير عظيمة تجسد طموحه في الإبداع والمواطنة.

وجاء التغيير في 9 /4 /2003 حيث سعى فيه الروائيون العراقيون جاهدين إلى أرشفة مأساة شعبهم وتقلبات وطنهم السياسية وما خلفته من تغييرات أصابت صلب المجتمع العراقي، تطورات زادت من شحنة التغريب التي ظل العراقي

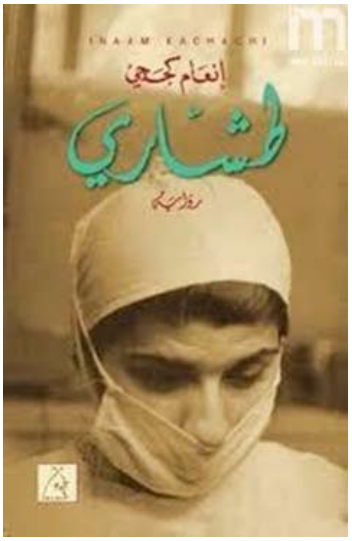

يعاني منها لعقود، يقول أحد الباحثين: يمكننا القول بأن الروايات العراقية حاولت وتحاول إعادة بناء مشاهد الماضي بطريقة الإدراك والبحث ووضع الصورة عن طريق المحاكاة والوثائق والشهادات عن طريق الأدب الروائي ليكون بحق ذاكرة الشعب وأرشيفا حقيقيا لتاريخ شعب ظل يرزح تحت الظلم والطغيان.

ان الروايات التي صدرت بعد 2003 لكتاب عراقيين كثر، أعطت مكاناً لائقاً للرواية العراقية وهي تتصدر وتفوز بجوائز عديدة، منها الرواية التي ادرسها للكاتبة إنعام كجه جي (طشاري)، إذ وجدت أن الرواية العراقية الجديدة بعثت بعثاً جديداً قوّض فاعلوه الجدار الكلاسيكي لهذا النوع الأدبي وراحوا يضعون لبنات تجديدية في نتاجهم، فكانت كجة جي من هؤلاء في روايتها هذه، فجاء البحث مجلياً تلك الآثار المأساوية الواغلة في

الجسد العراقي وكيانه لكن بكاشف ضوئي استطاعت الرواية العراقية الجديدة أن تضعه، وأزعم ان رواية (طشاري) تتصل بهذا الكاشف من قريب شكلي بنائي، ومن بعيد فكري ورؤيوي، وما تعرض له المسيحيون في العراق من تهجير وقتل وإقصاء ...

المبحث الأول:

مشاهد القمع والحرية في (طشاري)

لا شك ان الكاتبة أنعام كجه جي تدرك جيداً فضاء العمل الذي تتحرك فيه مهما كان جنس هذا العمل نصاً سردياً قصصياً أم روائياً، كما أنها تدرك أبعاد وحدود كل فضاء من فضاءات الكتابة تلك، هذا الإدراك قد لا يلمسه المتلقي العادي وإنما يشعر به عن طريق تفاعله مع النص، فمنذ الوهلة الأولى لدخولي أجواء وعوالم رواية (طشاري)، طالعني العنوان وهو مفردة عراقية تنطق بضم وفتح وكسر الطاء بحسب مناطق العراق، إذ تنم على أن جمعا من الناس قد تشتتوا في البلاد وتفرقوا بفعل فاعل ما، ألا هو فاعل فعل التشتيت والتشريد، والراوي المهيمن وفي سياق السرد، يلفت انتباه القارئ لهذه المفردة (بالعربي الفصيح، تفرقوا أيدي سبأ)، (الرواية ص90)، إذ تؤكد الرواية انتصار القمع على الحرية، وإذا كانت هناك حرية فهي حرية آيلة إلى الزوال والتلاشي والدليل على ذلك ما خزنته ذاكرة الدكتورة وردية الشخصية المركزية في الرواية، إذ تعد الشخصية الروائية أحد أبرز عناصر البناء الروائي مع اختلاف وجهات النظر حول هذه المسألة، فهي تقع في صميم الوجود الروائي – تقود الأحداث وتنظم الأفعال – وتعطي القصة بعدها الروائي، وردية آخر العنقود، ينقل الأب من الموصل إلى بغداد، ليكمل أبناؤه تعليمهم، تتخرج وردية في كلية الطب، وقرعة التعيين تجعلها من نصيب مدينة الديوانية، تصحبها شقيقتها كمالة لدرايتها بمدن الوسط والجنوب، كونها تعمل معلمة في جنوب العراق، في أور الكلدانيين في الناصرية، تفتح الديوانية قلبها للطبيبة وردية، وهي بالمقابل ترد الجميل بالعطاء الطبي والإنساني والتواشج الاجتماعي، بتوليد ومعالجة ومساعدة نساء الديوانية وأطرافها، تتزوج الطبيبة وردية من زميلها وتستقر في الديوانية وتنجب ابنتها البكر، هنده، التي رضعت من أثداء شرارة وبستانة، بنات الفرات الأوسط فيكون لبنت الطبيبة إخوة وأخوات بالرضاعة فيتعانق على الأرض الأكدية، الصليب مع الهلال، وتنجب شقيقاً لهنده، وحيدها براق الأشقر الذي تلبسه السواد ليشارك في مواكب العزاء في عاشوراء، يوم كان حب عاشوراء في القلوب وليس من الجيوب، وعند دخول الدكتورة وردية العقد الثامن من عمرها، ينفخ السلطويون في رماد الماضي السحيق فتنهض عنقاء الطائفية مغبرة شعثاء يتبعها الأشرار والرعاع والغوغاء والمجرمون ووعاظ السلطة، فيتحول الود جفاءً، والفرات أجاجاً والفطرة شراً، وإخوان الرضاعة والجوار والبيئة أعداءً، في عقدها الثامن تغادر الطبيبة وردية بغداد على كرسيها المتحرك اثر رسالة تهديد: (السلام على

من اتبع الهدى، إما بعد، فعندكم عشر أيام لتنفيذ هذه الفتوى وإعطائنا بنتكم زوجة حلالاً لأمير جماعتنا او نذبحكم كلكم ونأخذ بيتكم يا كفار والى جهنم وبأس المصير) ص 129 ، فتسلم وردية رسالة التهديد إلى جارها شيخ داود، الذي اكفهر وجهه من ركاكة الرسالة وشرها المستطير، ص 130، لا بد من الرحيل... أصبح التهجير أمراً لا مفر منه، ورياح الشر تعصف بأرجاء بلاد مابين النهرين، وتهدد الجذور بالقلع مهما كانت أعماقها موغلة في باطن الأصالة، (والبلد يموت الناس فيه مثل الذباب) ص 92، حَطَّ الكرسي المحرك في قصر الاليزيه – باريس – في بلاد الحرية وحقوق الإنسان وكان في استقبال الفارين والمهجرين من بيئة التكفير والقمع والعنف، الرئيس الفرنسي والبابا، الطبيبة وردية هنا لم تعد تعرف العراق الذي أحبته فحملت صورته الماضية إلى بلد غريب فتح لها باباً للجوء والمحافظة على الكرامة، وبقدر ما تكون أحداث الرواية ووقائعها ذات بعد إنساني، فهي في الوقت نفسه تشير إلى المخاطر التي تعرضت لها الأقليات في العراق.

ومن مظاهر القمع في الشارع ما تصفه الكاتبة في روايتها قائلة: (ولتفادي الوقوف المتكرر والسلامات على الرايح والجاي، خصصت لكل منهم تعييناً شهرياً فصارت التويوتا تنساب بدون عراقيل، يفسح لها الشرطي الطريق في الزحام ويؤشر لها بان تمر حتى ولو كان الضوء أحمر، كل تلك الأعمدة والإشارات الضوئية صارت ذكريات وآثارا قديمة، وحتى الشرطة اختفوا من الشوارع والمفارق ثم عادوا بأزياء أخرى، بعضهم ملثم وبعضهم مسلح وبعضهم ملتح والباقي يبدو وكأنه في ورطة وجودية، المدينة كلها في ورطة وجودية، ولا أحد يعرف لمن يأمن وممن يخاف، والشوارع مقسمة حسب الطوائف) ص 20 .

وفي الصحيفة 38 نجد تجسيداً للقمع بصورة روائية تشبيهية مع ظهور القبيح والمأساوي فتقول الكاتبة: (نحن شعب لا عازة له، مثل المشيمة التي ترمى للقطط، تردد وهي تسوق سيارتها التويوتا العتيقة في طريقها إلى بغداد الجديدة، هم فائضون في هذه الدنيا، مسجلون في خانة الزوال، لا أحد يهتم لمصائرهم ولا يقلقه أنهم يخبطون في الظلام منذ عشر سنوات، يشربون ماء كالبول الحار ويغتسلون نصف اغتسال من حنفيات شحيحة، يوقدون الشموع نذوراً لكي تأتي الكهرباء،

يتمددون غارقين في عرقهم، تفوح روائح أجسادهم وهم يتفرجون على مروحة السقف عسى أن تئن وتدور وتنفخ عليهم فحيحها، أصيح بها في الهاتف لكي يصل صوتي إلى سمعها الكفيف:

- عَمّة ...

- ها عمَّة !

- كيف الحال ؟

- سخام وزقنبوت). ص 38

ومن أنواع القمع أيضاً ما وصفته الكاتبة وهي تقول: (هو إما محتال أو عبقري، تطلعت وردية بعينين مذعورتين إلى ما كان اسكندر يعرضه عليها، وهو يضع شاشة الكمبيوتر أمام عينيها، يقوم ويقعد، مزهوّاً ومتوتراً، وهو يشاركها في أسرار الموقع الجديد الذي صَمّمه بنفسه، شوفي عمه، مقبرة الكترونية يمكنك ان تنامي فيها بجوار من تحبين، رأت شواهد رخامية تتوزع بين أشجار خضراء، صلباناً من رخام وخشب وذهب، أزهاراً نضِرة وكأنها سقيت للتو، وضعت السماعتين فسمعت موسيقى ناعمة تتناغم مع حركة فأرة الكمبيوتر التي يقبض عليها اسكندر ويجول بالسهم يميناً ويساراً، عرض عليها قبوراً تفنَّن في تشييدها، وأقام عليها شواهد ملونة مثل أقواس قزح، هذا قبر جدّه سليمان، شقيقها الكبير المدفون في بغداد، بجواره قبر زوجته وقبور جولي وكمالة وزوجها شمعون، قبر أم جرجس وحفيدتها فايزة التي خطفها السرطان، قبر قريبهم أولمبي الذي كان طياراً في الجيش، تتفرج وتضطرب وترتجف يداها مع تواتر الألحان والألوان، يستدير الولد ويواجهها ويتطلع في عينيها ويطلب وعداً بألّا تبكي، يوجه سهم الفأرة إلى قلب الصورة، يرفع السماعتين عن رأسها ويقول بحرج:

- هنا وضعت قبر العم جرجس وتركت لك مكاناً بجواره.. بعد مئة سنة ان شاء الله.

نقر على زاوية الشاشة فتضاعف حجم الصورة وتمكنت ان تشاهد ما هو منقوش على رخامة القبر: (من آمن بي وإن مات مسَيحيا) وتحت العبارة الإنجيلية قرأت: (الدكتور جرجس منصور 1928 – 1997) ص 109.

المبحث الثاني:

وردية والواقع المأزوم، العامل الاجتماعي

بات علم الاجتماع ماثلاً أمامي وشاخصاً بين أسطر السرد، بتصويره للواقع المأزوم، والبيئة ذات الصواعق المنفلتة، بيئة التغول العقدي والتكفير المجاني، فالآخرون كفار وملحدون، وذاكرة الفرهود والحواسم والتهجير والتسفير ناطقة بلسان مبين وقمع مشين، ومهما ملك السارد من بيان يسرده، إلا ان حال المقموعين أسوأ ألف ألف مرة مما يدونه الروائي على لسان الراوي أو الرواة، وهذا ينطبق على بشاعة القامعين، فمن أين للوصف قدرة على تصوير انكسار المقموعين وآلام الضحايا، وتصوير الشر في أفكار التكفيريين والمجرمين...

رواية (طشاري) وُلِدَت لتكون شاهداً ووثيقة وبصمة، كتبت انعام كجه جي وكتب روائيون وقاصون عن مأساة

بلدهم، وكل يريد التميز وعدم التكرار، أي لا بد للكاتب ان يخلق أشكالاً فنية يريد لها التميز والفرادة، والقول ينطبق على الروائية، فرواية (طشاري) تقترب كثيراً من ذلك، بدءاً من سيميائية العنوان ومشاكسته اللغوية مروراً بالمرويات السردية، وتتجلى الحرفية بدقة الاختيار، الأسماء، الشخوص ومهنهم ومدنهم ومرجعياتهم العقدية والفكرية والعلمية والثقافية وحتى ميولهم التحزبية، كذلك بيئاتهم ومحيط كل منهم، والبينية بين ما هو ريفي ومدني، بدائي، متطور ومهذب ومتحول معرفياً وعلمياً وتنويرياً، الطبيبة وردية وزوجها الطبيب جرجس، الطبيب اللبناني فرنجيّة وزوجته السيدة لوريس، وصديقات وردية علوية شذرة، وعلوية حسينة وأم يعقوب زوجة اليهودي صاحب محل الطابوق، ومرضعات هنده بنت وردية كل من شرارة وبستانة، أسماء ومهن لها دلالاتها السيميائية، وحياة الإنسان تحت سطوة العنف تجعله يحلم بمقبرة آمنة، ولشراسة القمع يشطح به الخيال ليستعين بالكمبيوتر والمبرمجين، فبعد ان وصف اسكندر لعمته المقبرة، ذُهلت وردية لإيجاده حلاً لحنين عمته إلى أرض العراق وأمنيتها أن ترقد إلى جوار قبر زوجها الضائع بين الأشياء والأشلاء، يسأل اسكندر عمته الطبيبة وردية:

- عمه ، هل أنت راضية ؟
- أنا مسحورة ،
- هل أعجبك التصميم ؟
- جداً، يحتاج بضع نخلاتٍ. ص 111

مع انها وصلت باريس، مدينة الأضواء والزهور والحرية، إلا أنها متعلقة بجذورها أرادت قبراً قرب نخلةٍ يساقط على روحها رطباً جنيا، الحرية وحدها التي تصون حياة الإنسان من القمع السلطوي والمجتمعي الذي تنشده (طشاري)، كذلك لم يعد بالإمكان تداعي الوعي في قوالب لفظية، إذ أن مطمح الرواية الأساس هو في إثارة اهتمامنا بإشارتها لحياتنا الخاصة، ان تأكيد الروائية على الرابطة الاجتماعية في خاتمة روايتها دليل على اهتمام الرواية بهذا الجانب، فالرواية ذللت كثيراً من العوائق الدينية بين الأديان والمذهبية بين المذاهب والاثنية بين الاثنيات. يقول عبد الزهرة الركابي وهو يقدم قراءة للرواية : (ان الرواية أظهرت تطوراً في التكنيك السردي الذي استخدمته المؤلفة انعام كجه جي بعدما وظفته توظيفاً في التوصيف والترشيد والتأهيل لهذا المشهد أو ذاك، وهي عبر هذا الأسلوب الحكائي المنمق ببعض الانعطافات، استراحة للقارئ وخصوصاً في تداخلاتها وتأطيراتها سواء من خلال إدخال اللهجة العراقية أم من خلال التأكيد على الأريحية المجتمعية العراقية، واعتبار ما آلت إليه الأمور في هذا المجتمع، إنما هو حالة مرحلية وطارئة وشاذة، وليس هي من شيم قاعدة هذا المجتمع القائمة على التسامح والألفة واحترام المعتقدات).

(طشاري) لانعام كجه جي الناطقة بواقع اجتماعي عراقي مأزوم، بدءاً من العتبة الأولى – الغلاف – والعنوان طشّاري، الغارق في عراقيته وسيميائيته، وانتهاءً بالسؤال الأخير: أَمَ يشبعون من الدم؟...

عبد المطلب صالح، متى والى أين رحلت؟

د. جمال العتّابي *

ليس من الميسور على الكاتب، تناول شخصية أدبية مرموقة، بكتابة مستوفية كل شروط الموضوعية والكمال، حين لا يجد الكاتب ضالته بصورة واحدة على الأقل تعزز موضوعه في التعريف بالشخصية، ومن المحزن جداً ان محاولات البحث في الأرشيف الثقافي، لم تسعفنا في الوصول إلى تلك الغاية.

ان مترجماً مهماً وكاتباً رصيناً مثل عبد المطلب صالح، أجد من الانصاف والوفاء له أن أسجل لهذا الرجل مأثرته في الكتابة، بعد أن طواه النسيان، كان صالح من الكتّاب العراقيين القلّة الذين آثروا المكوث في الظل بعيداً عن الأضواء، على الرغم من موهبته في الترجمة، عن الأدب الفرنسي، وتخصصه الأكاديمي في الأدب المقارن، وإذا كانت الذاكرة الثقافية العراقية تحتفظ لجعفر الخياط، وعناد غزوان، وداود سلوم، وضياء نافع، بقسط وافر من الاعتزاز والاحترام لجهودهم المتميزة في الأدب المقارن، فإن عبد المطلب صالح، ومنجزه الإبداعي في هذا الميدان، يعدّ شاهداً على غنى تجربته، وعمق ثقافته.

كان عبد المطلب قد درس الأدب في الجامعات الفرنسية، منذ خمسينات القرن الماضي، (لم يكمل الدراسة لنيل شهادة الدكتوراه)، صدرت له العديد من الكتب، منها على سبيل المثال: دراسات في الأدب المقارن، دانتي ومصادره العربية والإسلامية، ترجم للشاعر لويس أراگون كتابه (فيكتور هيغو)، شاعراً واقعياً في ضوء المنهج الماركسي، وآخر: دراسات في أدب الواقعية والواقعية الإشتراكية، وكتاب آخر في أدب البروليتاريا، فضلاً عن عشرات الترجمات والمقالات في الأدب والثقافة والفكر، المنشورة في المجلات، والصحف الصادرة في العقدين السادس والسابع من القرن المنصرم.

عبد المطلب صالح

بعد خمسة عقود من الزمن، ما زلت أذكر اللقاء الأول بعبد المطلب صالح، تلك الأعوام الأخيرة من عقد الستينات، حيث عادت مجلة (الثقافة الجديدة) إلى الصدور، وتحول المبنى إلى ملتقى أدبي، فكري، سياسي، فيه جرت المحاولات الأولى لعودة اتحاد الأدباء، وتشكيله من جديد، كما شهدت تلك الفترة هامشاً من الحرية، وتراجعاً عن الوصايات الأيديولوجية والحزبية، لحساب محاولات التجديد في الأدب العراقي، التي أشاعها الجيل الستيني نهجاً وسلوكاً. وأجواءً للحوارات والمراجعات على مستويات عدّة.

أبيض الوجه أقرب إلى التدوير، جبهة عريضة واسعة، شارب برونزي، عينان لامعتان ملونتان، تشعان بريقاً ذكياً، قامة متوسطة أقرب إلى البدانة، كنت لا أميز بينه وبين الكاتب المسرحي يوسف عبد المسيح ثروت، فهناك أوجه شبه بينهما في السمات والملامح، تلك أول الإنطباعات التي تناهت إلى مخيلتي، وأنا أتأمل وأنتظر ما سيسفر عن قدوم هذا الرجل، الذي ناء بحمله مثقلاً بحقيبة جلدية سوداء، تآكلت أطرافها، منتفخة.

يبدو أن مدير التحرير الشاعر الفريد سمعان أوحى له بمهنتي في المجلة، فبدأت يده تتجه نحو مفتاح حقيبته، ثمة أشياء كثيرة كانت في جوفها، لا تكاد تميزها من أول نظرة، تبدو يده الأخرى منصرفة لإطفاء سيگارته التي ظلت مشتعلة حتى النفس الأخير، تلك اللحظة، اخترقني إحساس بانشداد سحري لهذا الرجل، لتلك الشخصية التي تنطوي على غموض، كأن صمته ينتمي لطفولة مدهشة، نادراً ما يتحدث، مستغرقاً في الإصغاء والتأمل، يبدو لمن لا يعرفه أحياناً شارد الذهن، سارحاً في الخيال.

من جميل المصادفات أن يكون هذا اللقاء بداية لعلاقة جديدة توطدت وازدهرت بمرور الأيام، بعد أن بات يتردد على جريدة طريق الشعب اليومية، مشاركاً وكاتباً ومترجماً نشيطاً، ثم علاقة جميلة ورفقة طيبة وصادقة تشكّلت بسمات تلك الحقبة من الزمن بكل تفاصيلها، وتشابكها. كنت ممتناً له حين إلتمس مني تصميماً لغلاف كتابه (دراسات في الأدب المقارن)، وآخر في (أدب

البروليتاريا)، وهو في غاية السعادة حين أنجزت ما أراد، مع تواضع وبساطة التصميم، ضمن الإمكانات المتاحة آنذاك.

لا ريب أن صالح واحد من أندر الكتاب، وأكثرهم دقة في صياغة أفكاره، لما يتمتع به من قدرات لغوية، وموهبة في الترجمة، واطلاع على الأدب العالمي، إذ قطع شوطاً بعيداً في تتبعه ودراسته، على وفق قناعاته، إذ كان من أبرز الدعاة لأدب واقعي إشتراكي، فأثار جدلاً واسعاً بشأن الموضوعات التي تطالعنا في كتاباته، التي لم تجد لها سبيلاً نحو الثبات، لا في زمن سابق ولا لاحق!!

لكنه ظل مخلصاً لنهجه الفكري لم يتراجع قيد أنملة، مؤمناً بشكل مطلق بمتبنياته، عنيداً بقناعاته، بالمقابل كان هناك جيل ينظر بحساسية بالغة إلى تلك الرؤى، يتحدث بلغة جديدة، ضد ما هو سطحي، ومباشر في الكتابة، كان هذا الجيل مختلفاً حتى في نمط قراءاته، لم يعد رواد الواقعية الكبار يحظون بدرجة من الإعجاب، لم يكن أولئك ممن يستحق الإقتفاء، وأصبحت الواقعية الإشتراكية، وأدبها ماضويا.

لم يسلم عبد المطلب صالح من تلك الأحكام، ومقاسات (الموجة الصاخبة)، لأنه يقدم أفكاره وفق طبيعة وعيه، وثقافته التي اكتسبت مفرداتها وعوالمها من خلال موقفه وعاطفته هو، التي تملي عليه أن يكون حالماً بطريقته الخاصة.

ان عالمه عالم غني مضيء، فيه الكثير من القدرات الموحية، انه يقدم تجربته كعارف ومتخصص، بهدف لا يخلو من الرصانة والموضوعية، وأحياناً الصارمة بعيداً عن العواطف، إذ يذكر: ان حبنا للواقعية الإشتراكية في الأدب شيء، وتشخيص ملامحها في المشهد الأدبي شيء آخر، في إشارة لرأي الناقد فاضل ثامر عن توفر ملامح الواقعية الإشتراكية في العديد من تجارب الأدباء العراقيين في عقدي الخمسينات والستينات.

هذا الكلام يعطي تفسيراً متأرجحاً لماهية الواقعية الإشتراكية، وأسسها، واغفالاً للظروف الموضوعية، حسب رأي صالح، الذي يؤكد ان الصواب في وصف تلك الملامح تنتمي إلى تيار الواقعية النقدية، بأطر إنسانية.

ان ما قدّمه من آراء بشأن قصة الستينات، وكتابات وفية لأي أقلام عن الواقعية الإشتراكية، يعطي الدليل على عمق قراءاته النقدية ووعيه المتقدم الرصين.

كان يعتقد انه ليس من الصواب عدم التصدي للآراء التي تفتقر لمنهجية البحث العلمي الموضوعية، وعلى هذا الصعيد كان يصحح لأبي أقلام آراءها بشأن الروائي الفرنسي بلزاك، واصفة إياه: انه كان ذا اتجاه إشتراكي في الأدب، في حين ان الحقائق تقول غير ذلك، وقدّم عبد المطلب أكثر من دليل لتفنيد رأي (ابو اقلام).

عبد المطلب صالح من القلّة التي إستطاعت الإمساك بالخيط، الذي يشد الكاتب إلى أفقه بجدارة أخلاقية

ومعرفية، هو في كل الأحوال مكتشف للمعاني عبر ما أنتجه عقله النيّر، وفي هذا السياق، يربح المتزلفون، ومزورو الشهادات، وفي هذه الحمى يفوز البارعون في التملق، وبوس اللحى، ومسح الأكتاف، كيف لمثقف مثله يحمل في ذهنه صبوات الماركسية أن يعيش وسط عالم يستمرئ الحياة في الظلام ويعيد توليده؟

ترى.. كيف رحل عبد المطلب صالح ومتى..؟ هذا ما نجهله !.

إشارة لا بد منها:

ما كان لهذه المقالة أن تنشر، لولا (نجدة) الأستاذ الناقد فاضل ثامر، الذي أسعفني في الوقت الضائع، بصورة من أرشيفه للكاتب عبد المطلب صالح، ومعلومات مهمة في سيرته الشخصية، ألف شكر وامتنان للصديق ثامر، أنه أنقذ المقالة من محنة حقيقية.

• ولد عبد المطلب صالح مهدي ابراهيم العبيدي في 31 آذار 1928، بغداد، محلة الخلاني.

• أكمل الإبتدائية في المدرسة الجعفرية، كذلك الثانوية.

• تخرج في دار المعلمين العالية بدرجة (شرف).

• درّس في المتوسطة الغربية، في أول تعيين له.

• توفي في 19 كانون الثاني 1996.

* كاتب ومصمم، مدير عام سابق في وزارة الثقافة

نصوص

ستار موزان / أوسلو

1. رحيل أول

لمْ يحنْ الوقتُ بعد
لترتلَ ترنيماتٍ ونصوص ،
وَلَمْ تئنْ أضرحةٌ سراً
فتسعف جرحَ روحٍ فى خشوع،
إنما علتْ ريحٌ فى ملكوت
إنما هوتْ نجمةٌ فى علوٍ
وراحَ طيرٌ يتلو يباسَ الأيام
علي نقائض عهد و جبروت
لَمْ يحنْ الوقتُ بعد
فتمتد بأرخبيلات فى بلورات
وتقرأ كتابَ النهر متصلاً بأول
رحيلٍ فى صلصال وجمرات،
أىُّ زمنٍ نامَ علي جسد الإنتظار
فمضي اليوم رجزاً فى سراب
لَمْ يحنْ الوقتُ بعد
إذْ ترحل فى القصص رمزاً
فتغدو فى الاحتمالات فصلاً
فغياب ،
يالحاءَ النخل المسافر فى مكانه
أوقدناكَ ناراً أزليةً فى بر
لرحيمٍ قادمٍ من حكايةٍ أمس .

2 . مطر
ماذا قالوا عن المطر
قالوا لنْ يأتى المطر هذا العام
ولنْ ينشرَ أقواسَ قزح علي زجاج

السماء
ولنْ يسألَ الحقول عن فورة الشمس
وهى تتلوي بين خطوطٍ ومديات
قالوا لنْ يأتى المطر عند باب الشرق
فيضىء أبعاداً ثلاثة علي ارواح
ونهايات
لنْ يمضىَ فى آخر الوقت
فيحزن علي بغداد
وينزلُ أسودَ فى أقلِ نزول .

3. رحيل ثانى
لقد حلَّ مساء
وانهمر مطر
فتدحرج حجر أزرق
بين كتلتين
ايُّ حجرٍ يؤسسُ لرحيلٍ أول
فيصل المسافة المرسومة بين بابين
باب فى سماء
وباب بين فراتين
مُر بين قوسين
أو سَمِها ماشئتَ

وأكتب علي جدار الطين
إنّا كُنا هنا
نسألُ عنكَ القمرين
فينزلُ الوقتُ برداء فضى
قائلاً :
أنيّ لنا لرحيل ثانيةً
بينما المطرُ ينهمر فى الخارج
والمفرقين ،
من أين لنا أن نمرَ
ووليد ماسكٌ شعلةَ الريح
..... تصفرُ
أن يُخرجَ من قابين أو أعلي
سفر غياب ورحيل قلبين
كانت نبوءة ورحلة مدينتين
هكذا نودعُ بعضَنا فى الطريق
والمرارةُ تعلو أفواهنا
بينما الكلام يُنزلُ
التمامَ من التراب ،
أو كان طيناً
او كان سراب ؟
مَنْ لوّحَ اليكَ بنجمتين إثنتين

من لوّحَ اليكَ بنيزكين ضدين
ولكى تُزيحَ دورتين
من زمن عالق بين مسارين
لتوقدَ شموعكَ تحت ماءٍ
وتمضى الي طبقاتٍ رخوة
فى قيعان وأحجارٍ وطين ،
مَنْ لوّحَ اليكَ فى بلادٍ بلا سماء
أن تصعدَ سلالمَ من خيوطٍ زرقاء
إذْ تمسكُ نافذة تطلُ علي بحرين،
وماذا بعد غير هذا الرنين
ماذا غير هذا الألق الذى يتبعثرُ بعد
حين وحين ،
ويجرف بنتوئهِ الرمحى طبقات
وجذور وحنين .

تنويه وإعتذار

حدث في تصميم غلاف العدد 430 من الثقافة الجديدة، خلل غير مقصود، أعاق إظهار ما إحتوته لوحتا العدد، للفنان الكبير قاسم الساعدي، من جمال وإبداع، معربين عن أسفنا للفنان المبدع وللأعزاء القراء.

بائع مصابيح

نادية محمد/ مصر

لا أريد حطابا
يشعل النار فى عيدان الخريف
ولا فلاحا يحرث أرضى البور
ولا عازف مزمار
يراقص صخورى البلهاء
ولا حتي صيادا ماهرا
يصطاد سمكتى الوحيدة
من النهر العاجز
لا أريد حارسا لبوابة عمرى
ولا بائع للزهور وقت العيد
ولا فارسا يكسب كل المعارك
معى
بعذوبة صوته
لا أريد شمشون فلست دليلة
كل ما أريده
بائع مصابيح
حتي إذا احترق فتيل شمعتى
وذهبت دمعتى بلا رجعه
وضحكتى بلا طعم
منحنى قبس الأبناس
لظلمتى ...

حروفي حب وسلام

عبد الباسط الصمدي أبو أميمه/ اليمن

وكلما مرت بالجانب
من النساء جميلة
إسترحمت دقات قلبى
قلبى الذى فى الحب
لا يعشق مرتين
الليل من طبعه الهدوء
ومشوار الحب يبدأ
بألف ابتسامة وأول خطوة
وحبى أنا موج بحر بدأ من مغرب
فى عام حطين قبل صحوة الفجر
أنا امتداد لتاريخ طويل من الحب
حالى كحال أمى اليمن
وقلبى من الطين
التى تنبت بزهر الياسمين
ومعلقا بالمسجد الأقصي
فى فلسطين
ألوان الحب تظهر بأوردتى
وأينما حلت ابتسامتى
تظهر الحدائق حولها
فى الحب قلبى عاشق
لامرأة حبها يتدفق بأوردتى
كموج والبحر فى هيجان
فأنا من قبل ظهوراها
أمشى الخطوة بألف
وألف الدنيا بلاد بلاد
أنا عاشق والعشق أشبه بزلزال
يضرب إلي حدود الصين
إلا وعشق القلب زلزاله ثان
يضرب حتي جزر ومحيطات الجان
وحبى لها قد حصل زمان
لما رأيتها تمشى بلا خطوات
وتدفقت أمواج الشريان
وما عاد فى قلبى موضع
إلا ويتدفق منه حمم البركان
ولا نياط لم تمزقه
بسيوف عينيها
أحبها.. وعشق القلب غالى غالى
ولو يصير النبض كالليل ساكن
والثلوج تغطى الأرض فى سواكن
لن أدق بدقة قلب باب ثان
غالية هى كتاباتى معيارا للحب
وحروفى حب وسلام
وأنا أكتب لامرأة أعشقها
والعشق كالحب كالشعر إدمان
تعجبنى وهى ترتدى النظارات
وتقرأ حروف إسمى من اليونان

الذَّكاءُ مَعَ العَدُوِّ

سعيد أنوس/ المغرب

المَعْلومَةُ تَبْحَثُ عَنْ قَناتِها
وَالتَّأويلُ يَحْرِصُ علي اسْتِثْمارِ آلِياتِهِ
بِتَرْويضِ أَوْهامٍ قَدْ تَمَّ بَذْرُها
فى تُرْبَةِ النَّوايا.
فَلا التَّجَمُّعُ وَلا الخُضوعُ الطَّيِّعُ
سَيُسْعِفُ فى تَرْميم ذَاكِرَةٍ
أَهْمَلَتْ تاريخَها الطَّويل.
لِذا وَجَبَ الذَّكاءُ مَعَ العَدُوِّ
فى كُلِّ انْجازِ وَرَقَةِ طَريقٍ
وفِى كُلِّ تَحَصُّنٍ لِرُوحٍ
مَازالَتْ تَقْتَفى أَثَرَ
ضَوْءِ مَوْقِدِها المُحْتَمَل.

المعرض السنوي لجمعية التشكيليين العراقيين كثرة الإنتاج وحيز التخصص وسؤال الاختيار

رعد كريم عزيز

يمتاز الفن التشكيلي العراقي بكثرة إنتاجه وثراء مدياته المتنوعة في العراق وخارجه، وهذا ما دفع رئيس الجمعية الفنان قاسم سبتي الى الاشارة الى ان المعرض السنوي لعام 2022 يختلف بالتوصيف حين اقتصر على جنس الرسم دون الاجناس الاخرى نزوعا نحو التخصصية في العرض. اضافة الى ان المعرض لا يضع حدودا للمجايلة فاتحاً الأبواب للجميع رهانا على مستوى الأداء الفني، فنجد في المعرض عاصم عبد الأمير وقاسم سبتي وعباس هاشم ومكي عمران وعشتار جميل حمودي ومراد ابراهيم في حفلة متعة جمالية، تحوز رضا عين المشاهدة والمعاينة النقدية في فضاء واحد، تسبح فيه إبداعات الفن التشكيلي العراقي.

ولعل ما سبق في القول يفتح بابا للسؤال عن كيفية الاختيار وسط انفتاح فني واسع داخل الجمعية وفروعها التي تزداد في المحافظات، وما يشفع للجنة المكونة من مشارب مختلفة في الرؤيا النقدية والانجاز الفني على قماشة اللوحة (قاسم سبتي و حسن

ابراهيم و جواد الزيدي وفاخر محمد و باسم العسماوي و صلاح هاد) في أنها تعاملت مع ذائقة عامة تعرف بخبرتها مسارات الفن التشكيلي العراقي، اضافة الى المقاييس الجمالية وفق الدرس الأكاديمي في التنفيذ واحترام مديات التجريب، وهذا لا يعني انفراد كل فنان في إطار مدرسة خاصة دون غيره، بل هناك في اكثر الاحيان اصطفاف في الإنشاء والتوجه بين أكثر من فنان، ولو بدون التقاء او اتفاق فني معلن.

واذا بدأنا من المساهمة النسوية في المعرض فإن لوحة الفنانة (انترانيك اوهانسيان) ذهبت نحو الموضوع الأثير عن الفنانات في اظهار الشكل

الأنثوي الطاغي على لوحاتهن، كما ظهر في لوحة الفنانة سؤدد الرماحي والالوان السائحة التي تغطي العلاقة الاثيرة بين الرجل والمرأة، واختفاء ملامح الأنثى في لوحة الفنانة عشتار جميل حمودي خلف زينة المكان الفلكلوري، وما دمنا في اللوحة الانثوية ان جاز التعبير، فإن لوحتي الفنانة شفاء هادي تقعان في فضاء الراحلة نزيهة سليم ومنحنيات الوجوه والرموز العراقية، واختلاط الرموز والجنوح نحو التعبيرية في لوحة الفنانة فلورا تركي، فيما ذهبت الفنانة منى مرعي نحو عالم الدراجة الهوائية كمفردة شاعت عند أكثر من رسام عراقي وان امتاز فيها لفترة طويلة الفنان محمد مسير كعلامة فارقة، وذكرتنا لوحة الفنانة ميساء محمد بصياغات طارق مظلوم ومدى الرؤية الواسعة في الرموز العراقية وكأنها توثيق آثار بملامح اسلامية، وبدت لوحة الفنانة ايمان الشوك وكأنها قطعة من المتحف المصري برموزها القريبة من الحضارة الفرعونية وطغيان اللونين الأصفر و الرمادي، وانفردت لوحة الفنانة سماح الآلوسي باعتمادها السريالية وكتلها البارزة وتعدد الأطراف البشرية لشخصية تندفع نحو ضوء الشباك بتنفيذ مقتدر، وتبقى لوحة الفنانة الراحلة يسرى العبادي متفردة في رموزها الطفولية واستطالة شخوصها وبهجة الوانها الطاغية لتشكل ملمحا فنيا نسويا في الفن العراقي المعاصر.

هناك من شكّل بصمته الفنية فبات يعرف من التكوين العام واللون والموضوع، فكانت لوحة الفنان اياد الزبيدي المكتظة بالزخارف الفيروزية والنساء المختبئات خلف موزائيك الشذر واللون الاخضر المبهج وهي واحدة من رسوم المرحلة التي غادرها لاحقا إلى مرحلة الابيض والاسود المرصعة ببعض الألوان في نقاط مختارة داخل اللوحة.

ويبقى الفنان حسن ابراهيم مصرا على مرحلته اللونية بألوانها الهادئة والاعتماد على الكولاج مبتعدا عن تميزه في الواقعي ورسم الخيول وهذه واحدة من مكابدات الفنان للوصول الى هوية مميزة وبصمة خاصة ينفرد بها في سعي يتجدد في كل معرض.

ويتمسك الفنان قاسم سبتي باستثمار المواد المتنوعة لخلق أكثر من أفق داخل اللوحة وكأنه يزيح الرمال عن عاصفة ماثلة في المشهد مما يفسح مجالات كثيرة للتأويل وكأن هناك مراكب صغيرة تشرف عليها جبال راسخة بعيدة وفق تباينات لونية مستقرة.

وعلى الرغم من الاجتهاد النقدي المميز والسعي في الدرس الأكاديمي إلى مداه الارحب، فإن الفنان عاصم عبد الأمير لم يغادر طفولة الرسم وبراءته، وحين ينجز لوحة يبدو سطحها عريق في القدم، وما فعله الفنان هو الخربشة الطفولية بالفحم والوان اخرى فوق سطح اللوحة مشاكسا وجودها ويستعين أحيانا

ببعض الحروف المبعثرة وهذه واحدة من سمات فنه التي تشير إليه دون غيره.

ويرسخ الفنان فاخر محمد مسعاه منذ فترة طويلة في انشاء مواضيع إنسانية تعتني بوجود الإنسان داخل محيطه فهو اما غارق مع اسماك محيطه الواسع او محلق في فضاء طيوره الاسطورية، وفي لوحته المشاركة ثمة سيارات منطلقة باتجاهات متقابلة يخيل إليك أنها ذاهبة نحو مناسبة اجتماعية أو رحيل مفاجئ في مساحة تأويل واسعة بألوان مفرحة بهيجة تحيط بها الزهور من كل جانب.

وكما هو دأبه يقدم لنا الفنان مكي عمران لوحة مزدحمة بحيوات شخوصها كأنها تتسابق لإظهار وجوهها وسط حشد من الخطوط المشتبكة، اللوحة عند عمران عبارة عن كد صعب لإشهار صرخة مكبوتة، حتى ان زحمة التكوينات تجعلها قريبة من فن الجداريات بتنوع رموزه وكثافة حضورها.

ويبقى الفنان ستار لقمان عاشقا للطبيعة، وبطل لوحته قمة جبل تقف متأملة الافق البعيد وكأن عين الفنان غير بعيدة عن القمة، وهي ترسم غيمة ملونة في سماء فسيحة لا حدود لها.

ونتعرف على الفنان محمد علي جحالي دائما من خلال إصراره على التجريب في انطباعية تحتفل بفراغات الكتل السوداء التي تملأ مساحة لوحته بالكامل.

فيما يبقى الفنان علي طالب أمينا

للمدرسة البغدادية واقواسها التي لم تغادر رموزها رغم انتمائها لفن التجريد الخالص.

ولا تحتاج لوحة الفنان المميز مؤيد محسن الى كثير معاينة لمعرفة توقيع الفنان فهو ينفرد بطريقة تنفيذه التشخيصية وانشاء الرموز السريالية في مقدرة أكاديمية تجسدت في معارضه الفردية والمشتركة، اضافة الى حكاياته الانسانية ورسائله التي تشير إلى أحداث معاصرة يعيشها بمرارة انساننا المعاصر.

وغير بعيد عن مؤيد محسن جنح الفنان بسام ضياء إلى الاستفادة من

صورة الموناليزا وقد طمرها في الرمال مغطاة بالحصى وأعقاب السجائر، يعتمد هذا الفن في النتاج العراقي على المثاقفة التي ترافق تأويل اللوحة.

ويقترب منهما الفنان تحسين الزيدي حين وضع الاجساد البشرية في الآنية الشفافة التي يربى فيها السمك وهم يتوزعون بين الخروج الى فضاء الحرية والاستقرار في قاع الزجاجة بحركات توحي بالمعاناة والتأسي.

فيما يمزج الفنان معراج فارس بين فن السريالية والبوستر واضعا انسان لوحته وسط قنوط بحركة تجعله منفصلا عن محيطه المعاش وفق مقدرة ودربة لونية تحسب له في كل ما يرسم.

ويشترك الفنانان وسام جزي ووضاح مهدي في تضخيم الجسد البشري وبث الرموز بألوان حارة، وكأنها تحاول الخروج من إطار اللوحة لتصبح جزءا من حائط القاعة وكأنها رسمت للتو.

ويتشابه المسعى الفني لدى الفنان علي هاشم محسن وناجي حمد في طريقة الانجاز الفني التي تقترب من فن الرسم المقترن بعملية التنفيذ التي يعقبها المحو أو الخربشة بقصدية لإظهار التكوينات المختبئة تحت الألوان، حيث تظهر تكوينات اشورية عند علي هاشم والطفولية عند ناجي حمد.

كذلك وضح الاشتراك في تكوين حركات الشخصية داخل اللوحة عند الفنان باسم العسماوي والفنان تركي عبد الامير وكأنهم بشر هاربون من محرقة وهم يتدافعون للخلاص من مصير مجهول يحيق بهم.

وتظهر لوحات الفنان خليف محمود واحمد خليل وعدنان عباس ومراد إبراهيم المزج بين التكعيبية والواقعية والتعبيرية في استثمار مفردات المدينة من بنايات والباص الأحمر ذي الطبقتين، ويتجلى التمكن عند مراد ابراهيم في عملية المزج دون بروز الخطوط المتداخلة عبر إتقان اللون وتدرجاته المريحة.

فيما يطرح الفنانون احمد الطالباني وحامد سعيد وحسين مطشر وحسن فالح وحسن عبد الشهيد وحسين هاشم وحيان عبد الجبار ورفعت طاهر وزياد جسام وصالح النجار وصباح العزاوي وصباح حمد وصلاح هادي وعبد الجبار الملي وعلي العبدلي وعلي حسين ومحسن الشمري ومحمد جاسم الزبيدي ومحمد حاتم ومطيع الجميلي ومهند عمران وهاشم حسن وابراهيم حسين وموسى عباس ومعن كرماشة ومثنى طليع وعلي هاشم صالح، نماذج من أعمال فنية اجتهدوا في معارضهم الشخصية على إبراز هوية تمثلهم في الفن الانطباعي والتجريدي في براعة تمثل خصوصية كل فنان بجدارة وبراعة.

في كل معرض سنوي تنجح جمعية التشكيليين في صناعة وثيقة فنية تضاف الى الارشيف الكبير للفن العراقي التشكيلي.

مطبوعات وصلتنا :

• الدكتور عقيل الناصري، دور المؤسسة الأمنية في اسقاط نظام 14 تموز - ستوكهولم: اروك ميديا، 2022).
• فرات المحسن، هناك لي أهل في البعيد عراقو ،ستوكهولم: اروك ميديا، 2022).
• سفين أيرك ليدمان، كارل ماركس -السيرة الذاتية. ترجمة واعداد: عبد العزيز ججو - دمشق:تموز. ديموزي للطباعة والنشر والتوزيع، 2022.
• حمد محمود الدوخي ،لغة الخاتم، (شعر)، منشورات اتحاد الأدباء – بغداد 2021.
• مالك مسلماوي ،تدجين اللغة الهاربة (نقد) ،منشورات اتحاد الأدباء- بغداد 2022.
• ناصر أبو الورد ،شبر من عالم محذوف (شعر)، منشورات اتحاد الأدباء - بغداد 2022.
• هلال الشيخ علي، مكابدات زهرة اليقطين (شعر)،منشورات اتحاد الأدباء- بغداد 2021.
• سلوى أحمد، لعنة البصل (مجموعة قصصية)، منشورات اتحاد الأدباء - بغداد2022.
• عبد السلام المحمدي، قلوب للبيع(شعر)،منشورات اتحاد الأدباء - بغداد 2022.
• حنون مجيد ،يوميات كوفيد19 (مذكرات)، منشورات اتحاد الأدباء- بغداد 2021.
• غسان حسن محمد، بأي صيف ستلمين المطر؟ (شعر)، منشورات اتحاد الأدباء- بغداد 2022.